الإسلام والأسرة السعيدة

تأليف

الشيخ معوّض عوض إبراهيم
رئيس قسم الوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة الكويت

الناشر: وكالة المطبوعات
شارع فهد السالم - الكويت

الإسلام
والأسرة السعيدة

الطبعة الأولى
١٩٨٣

الإهداء

قياماً بأمر الله بالإحسان إلى الوالدين ووفاء لأبويّ في عليين..

أهدي إلى روحهما هذه الثمرة «الإسلام والأسرة السعيدة» وأسأل الكريم المنّان أن يجعلها عليهما رحمات ومغفرة «كما ربياني صغيراً» وآثراني برعايتهما حتى رأياني كما أرادا..

معوض عوض إبراهيم



مقدمَة الطبعة الأولى

عناية الإسلام بالأسرة، حقيقة إنفرد بها بين شرائع الله جميعاً.

فالإسلام دين الحياة لا ريب، يعتبرها ويرعاها ويتسع لشؤونها، ويعالج مشكلاتها التي تتصل بالأحياء أنفسهم، وبما حولهم مما خلقه الله من أجلهم.

واهتمام الإسلام بالأسرة، واختيار الزوجين- وهما لبنتاها اللتان لا تقوم بدونهما- وبيانه للحقوق والواجبات التي أحكم العليم الخبير بها رباط الزوجية، وجعلها دستور العيش الرغيد بين الزوجين وأبنائهم، وخدمهم، وتفصيله للآداب التي لا بد منها في الاختلاط والتزاور، ومعاملة الجيران، إلى آخر ما هنالك من شؤون الأسرة في أيام وفاقها وشقاقها، هو هدفنا من هذه البحوث التي نود أن تجتمع عليها الآذان والقلوب جميعاً، بقدر الحاجة إليها، في زمن اختلطت فيه مذاهب الحياة، وولى أقوام وجوههم شطر الشرق والغرب يستوردون تقاليد ومناهج تخالف موروثاتنا العزيزة، ولا تصلح عليها حياتنا، لأنها لم تصلح حتى اليوم- ولن تصلح- حياة الذين عُرِفت بهم وعرفوا بها «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»[1].

هكذا تكون «الأسرة» مدرسة الحياة، ومشرق النور فيها، وينبوع الفضائل التي تقوى وتبقى، بقدر ما في البيئة التي أنبتتها، من عناصر الحق والخير والجمال!

---

(١) سورة النور اية ٦٣

ولقد دعاني إلى عرض وجهة نظر الإسلام، وجلاء سلوكه الراشد في هذا الجانب، ما رأيت في اقطار وديار في هذه الأيام، من تفكك أواصر بعض الأسر، وانصراف أفرادها إلى ذواتهم وشهواتهم، ناسين وصايا الاسلام ووساطته في دعم قواعد الأسرة، وجهده المبرور في شد عراها، ورد بعضها إلى بعض في إيثار وحدَب، يجعلان التعاون على البر والتقوى- كما دعا إليه القرآن الكريم- من هبات مجتمع الأسرة وهداياه للمجتمع الكبير الذي تشتد حاجته للقدوة الطيبة، وما أسعده حين يتلقاها من البيت الذي قام في أكناف الاسلام- على قواعده وتحت سمعه وبصره- ومن الأسر التي تؤلفه، وتتآلف في نطاقه بما تحرص على تمثله، وأخذ نفسها به مما أجملناه، وتجد تفصيله في فصول تتتابع ان شاء الله..

وما أسعدني- مع ذلك- حين اكشف وجه الحق من منابع الإسلام وأصوله الصحيحة ومن حياة سلف هذه الأمة، وحين أجعل ذلك في متناول شبيبتنا المرجاة- من الجنسين- بعد أن خايلها كثير من دسائس بعض أدعياء المعرفة، الذين يحلو لهم الارجاف بالإسلام والتجني على حقائقه الربانية، باسم التطور والتجديد وحرية الفكر، التي حجبت عن هؤلاء سماحة الاسلام وسعته ومرونة احكامه وتشريعاته، وعمق نظرته في الطلاق وتعدد الزوجات وكريم تناوله لمسائل الجنس وعدالة نظام التوريث فيه بعد أن لفتت إليه الأنظار من خارج حدوده ألسنة تعلن أنه رحمة الله للعالمين.

فإذا غايرت هذه الدراسة الصادقة الصريحة لأدواء الأسر وأدويتها مألوف الناس، وبدت ثقيلة على آذان وقلوب، فإن ذلك شأن الحق الذي يقول الله فيه « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض »[1] ويقول « ان كلمة الحق لم تدع لي صديقاً ».

وهو طبيعة مبضع الطبيب، يسيل الدم وقد يمزق اللحم، ليستأصل علة في بقائها البلى، وطبيعة الدواء الذي نعاف لذعه ومرارته وفيه السلامة والعافية!! ـ

وأسأل الله أن يعين على الخير، وأن يرزقنا الثبات في الأمر والعزيمة على لرشد وأقول مع القائل:

أعُوذُ برب الناس من كل طاعنٍ عليـنـا بسوء أو ملـح بباطـل
ومن كاشح يسعـى لنـا بمعيبةٍ ومن ملحـق بالدين ما لم نحاول

بيروت في: جمادى الآخرة ١٣٨٠
كانون أول «ديسمبر» ١٩٦٠

معوض عوض إبراهيم



مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على معلم الناس الخير، سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان على طريق الاسلام.. وبعد

فلقد وددت في مقدمة الطبعة الأولى من «الاسلام والاسرة» بما بينت يومئذ من بواعثي في اصداره ومقاصدي (أن يجتمع عليه الآذان والقلوب جميعاً، في زمن اختلطت فيه المذاهب في الحياة وولى أقوام وجوههم شطر الشرق والغرب يستوردون تقاليد ومذاهب تخالف موروثاتنا العزيزة، ولا تصلح عليها حياتنا، لا لأنها لم تصلح حتى اليوم- ولن تصلح- حياة الذين عرفت بهم وعرفوا بها).

وإذا كان جموح الحياة قد طال، والتبس فيها الحق بالباطل أكثر من ذي قبل، وعلت بالباطل أصوات كانت تستتر به وتستخفي وخفضت أصوات الحق في كثير من المنازل، فتضاعفت فرص الضلال ليبيض ويفرخ، فان من حق الاسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة أن يكون واقع حياة الذين يتظاهرون في جوانب من دنيانا بأنهم أهله وناسه وحماته وحراسه.

وأن يتعارف الدعاة إلى الله، وتتشابك خناصرهم، وتقوى أواصرهم في ركضة يستعينون فيها بالله الذي يتولى الصالحين لمحاولة صوع الحياة بالاسلام، كما فعل ذلك من قبل ابتداء بالفرد ومروراً بالأسرة، وانتهاء الى الأمة التي شهد الله لأوائلها بقوله «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله «آل عمران / ١١٠.

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقد قال «من أراد أن يكون من أهل هذه الآية فليؤدْ شرط الله فيها.

ولقد كتب الله بفضله لكتابي أكثر مما توقعت من الذيوع والانتشار، ورأيته يرفع رأسي ويبهج نفسي في كل ما زرت من ديار وأقطار قالوا لي في لواء أب في اليمن الشمالي عام ١٩٦٢م أن الاسلام والأسرة من الكتب التي نعول عليها في وزارة الثقافة والارشاد..

ووجدته في السعودية تعرف به صحفها، ويأخذ مكانه في واجهات مكتباتها، ويحدثني عنه غير واحد في الرياض أول ما جئتها عام ١٩٧٢م وكان و «قبس من الاسلام» و «ملامح من هذا الدين» وكتبي الأخرى سبيلي إلى التعاقد مدرساً في كلية الشريعة في الرياض عام ٩٢هـ.

ووجدته في الكويت تعرف به مجلة (الوعي الاسلامي) في سنتها الثانية العدد / ١٩ ص ٩٨

ويثير أعزاز الذين عرفتهم في الكويت، ويكون وكتبي الأخرى داعي وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية فيها لتدعوني للاسهام في موسمها الثقافي في رمضان عام ١٩٧٨م ثم إلى العمل المثول فيها بعد انتهاء عملي في جامعات السعودية.

ولقد كان الإسلام والأسرة «أول محاولة - فيما أظن - في موضوعه، وكان من بين مراجعي فيه مؤلفات الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله وكتاباته في مجلته «حضارة الإسلام» وغيرها، فلما كتب كتابه «المرأة بين الفقه والقانون كان «الاسلام والأسرة» فيما ذكر من مراجعه في أسفل صفحات ذوات عدد من كتبه.

وأذكر أن بعض غير المسلمين في بيروت استقبل «الاسلام والأسرة» فور ظهوره بمقالة تهكم فيها بموضوع «تعدد الزوجات» في الكتاب في مجلة كان يحرر فيها، وبعثت إلى المجلة برد هادىء هدوء الحق الذي يقول فيه أبو العلاء المعري:

إذا قلت المحال، رفعت صوتي وان قلت اليقين، أطلت همسي

واتصلت المجلة بيَّ معتذرة عما نشر، راجية أن ينتهي الموقف عند هذا الحد ناسية حقي المقرر في الرد، فبعثت بردي (بين الشيخ والخوري) إلى جريدة «بيروت المساء» التي كانت أوسع جرائد بيروت انتشاراً يومئذ، (تفضل المساء) وإلى جريدة العروبة التي كان يصدرها حزب النجادة، وتفضل المسؤولون في الجريدتين فنشروا المقال في تاريخين مختلفين، وهو موجود بين زيادات هذه الطبعة.

ومن اللطائف أن شخصاً غير مسلم من الأسرة التي كانت حاكمة في لبنان يومئذ استعار «الإسلام والأسرة» من صديقي الحاج توفيق يموت رحمه الله، ثم لقيني بعد أيام يقول لي أن نساء الأسرة وفيهن مسلمات ونصرانيات وفرنسيات، قد قرأن الكتاب وقلن: ان كان هذا هو عطاء الاسلام للأسرة، فذلك حسبه ليكون دين الله بحق.

ولقد عدت مرات إلى شواهدي من السنة النبوية في الكتاب فحققتها وأضفت إلى موضوعاته ما يكملها وستبقى - ومتغيرات الحياة تتتابع - قابلة للمزيد والاضافة التي تلقي أضواء من الإسلام على الجديد من قضايا الحياة والأحياء، أحوج ما يكونان إليها من دين الله الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. ومن الله نستمد العون أبداً ماضين ما استمسك القلم بأيدينا، على الطريق الذي سبقنا في أوله سيدنا رسول الله ﷺ، وخير القرون، والدعاة الصادقون.

والحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات.

معوض عوض إبراهيم
الكويت في جمادى الآخرة ١٤٠٢
نيسان - ابريل ١٩٨٢

أساس الأُسرَة

١ - الزواج

الزواج هو أساس هذه الأسرة التي هي لبنة في صرح المجتمع المتكافل، ولن يكون هذا المجتمع مرهوب الجانب، يرجى ويحذر، حتى يستهدي بهدى الله الذي يضيء النهج ويهدي للتي هي أقوم، وأين من ذلك ما قال فلان وفلان؟!

وما يستوي وحي من الله منزل وقافيـــة في العالمـــين شرود!

والزواج- عقد بين طرفين لا يُكْرَه فيه احدهما على ما لا يريد، وهو فرض على المسلم القادر، فمن تركه أو تثاقل عنه، فهو آثم، إثم من ترك فريضة من فرائض الإسلام كما قال جملة من العلماء بينهم ابن حزم..

أما غير القادرين فإن رسول الله يخاطبهم بقوله «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة- مؤن الزواج- فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»- أي خض للخصيتين وأضعاف للرغبة في الجماع[١] فتح الباري جـ ٧ ص ١٢٨ طبعة المطبعة الخيرية. رواه ابن عباس رضي الله عنهما.

يقول الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله في كتابه «تنظيم الإسلام للمجتمع».

«ولقد حث الشارع الإسلامي على الزواج حتى لقد اعتبره بعض الفقهاء فرضاً والأكثرون على إنه سنة ما دام يعدل مع زوجه، إلا إذا كان لا يستطيع الاستغناء عن النساء، ويقع في الزنى إن لم يتزوج فإنه يكون فرضاً.

(١) ومسلم جـ ٤ ص ١٢٨ مطبعة دار الطباعة العامرة.

أخرج الإمام البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها - عدوها قليلة - قال: فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر، أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً..

فجاء رسول الله ﷺ فقال: « أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني ».

وقد سأل رسول الله صلوات الله عليه عكاف بن وداعة الهلالي: ألك زوجة؟ قال: لا، قال: ولا جارية؟ قال: لا، قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم والحمد لله يا رسول الله. قال: فأنت من اخوان الشياطين. أما ان تكون من رهبان النصارى فالحق بهم، وأما ان تكون منا، فاصنع كما نصنع، فإن من سنتنا النكاح. شراركم عزابكم، ويحك يا عكاف. تزوج!!(١).

وما كان الإسلام بدعاً في الدعوة إلى الزواج، فهو وصية كل نبي، ودعوة كل رسول، وهو طبيعة الحياة التي لا تنهض بجنس واحد، حتى يقاسمه فيها الجنس الآخر، ويعملا معاً على أن تسير الحياة سيرتها التي يكون الاحياء فيها - ذكوراً وإناثاً - خلفاء عن الله في عمارة هذا الكون العظيم! قال تعالى: « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية »(٢).

وقديماً أراد فرعون أن يبيد بني إسرائيل، فمضى « يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم » وكاد يفلح في استئصال شأفتهم، لولا ان اقتضت رحمة الله نجاة موسى عليه السلام، فكان ما أراد « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون »(٣)

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ١٦٩ طبعة السلطان عبد الحفيظ.

(٢) الرعد: ٣٨

(٣) الأعراف: ١٣٨.

٢ - حكمة مشروعية الزواج

وحسبنا من الزواج الأول - زواج آدم وحواء - قول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً »[١].

اننا نلحظ بالنظرة الأولى في هذه الآية معنى الانسجام الذي لا يكون بين شيئين، كما يكون بين الزوجين، ومن أجل ذلك عد الله الزواج من اعلام قدرته، وشواهد عظمته فقال: « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٢]

فلقد يكون الرجل من قطر، وتكون المرأة من قطر آخر، فيصنع الزواج المعجزة، وهو يختصر الأبعاد ويطوي المسافات، ويسقط الفوارق، فتكون الأسرتان اللتان تم بينهما الأصهار، أسرة واحدة، تتعاطف وتتواصل، كجوارح الجسد الواحد!

قال الماوردي في « أدب الدنيا والدين »: « ولذلك قيل المرء على دين زوجته - أي طبيعتها - لما يستنزله الميل إليها من التابعة، ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد إلى المخالفة سبيلاً ولا إلى المباينة والمشاقة طريقاً ».

وهكذا كانت آثار الزواج الذي لم يستهدف غير هذه الغايات الشريفة - مع أعفاف الزوجين وحفظ الانساب والتناسل - ومن أجل الترابط بالمودة والرحمة، أصهر رسول الله إلى أبي بكر وعمر، وزوج رقية ثم أم كلثوم من بعدها لذي النورين، واختار لبضعته فاطمة ابن عمه علياً رضوان الله عليهم، وهن بناته جميعاً من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وان ثرثر بغير ذلك من لا يتقون الله.

---

(١) النساء: ١

(٢) الروم: ٢١

ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون / الروم / ٢٠ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً الفرقان / ٥٤ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة النحل / ٧٢

وحين تضيق بالرجل فسيحات البلاد ، ويتبرم به بعض الناس ، ويأوي إلى بيته مضطرب الحواس مبهور الأنفاس ، تتلقاه هنالك نفس برة رضية ، تمسح تعبه اللاغب بالكلمة اللينة والوجه الذي يشرق بما بين جانحي شريكة الحياة من حب ومودة واخلاص.

ولقد كانت خديجة رضي الله عنها رائعة حقاً ، حين دخل عليها رسول الله بعد الوحي الأول ترتجف بوادره- يرتعد من أثر الوحي- فقال: زملوني- غطوني- فبادرت بذلك خديجة دون أن تسأله ما حدث ، حتى قام من نومه. فقص عليها ان انساناً جاءه في غار حراء وقال له اقرأ فقال(ﷺ)ما أنا بقارىء قال فضمني إلى صدره حتى بلغ مني الجهد ثم كرر ذلك مرتين حين كنت أقول ما أنا بقارىء حتى قال: إقرأ باسم ربك الذي خلق... الآيات[1] ثم قال الرسول لخديجة: لقد خشيت على نفسي فقالت: كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً . انك لتصل الرحم... وما زالت به صلوات الله عليه حتى سكن جأشه وأشارت عليه أن يأتي ابن عمها ورقة بن نوفل.[2]

وام سلمة كانت ناصحة بصيرة وهي تشير على الرسول ، في خلاف أصحابه عن أمره ، بعد صلح الحديبية فلم ينحروا أو يحلقوا وقد دعاهم إلى ذلك ثلاثاً!! فسألته أم سلمة: أتحب ذلك؟! اخرج ثم لا تكلم أحداً من صحبك كلمة واحدة ، حتى تنحر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلقك. وما كاد رسول الله يفعل ، حتى قاموا جميعاً ، فنحروا وحلقوا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً وندماً!!![3]

ان الزواج شطر الدين ، به تحفظ الحرمات ، وتصان الكرامات ، وتستحكم بين الناس الصلات وبه يبتغى النسل ، وتوضع الدعائم القوية لتواصل الحياة سيرها في تفاهم ونظام!. والذين يفرقون من الزواج ويتحامونه ، مؤثرين حياة الانطلاق ، وارخاء العنان لشهواتهم ، فارين من مؤن الزوجية وتبعاتها

---

(١) صدر سورة إقرأ.. ١- ٥

(٢) صحيح البخاري طبعة بولاق جـ ١ ص ٣.

(٣) الزرقاني على المواهب اللدنية جـ ٢ ص ١٠٨- ١٠٩ المطبعة الأزهرية.

ومسؤولياتها، انما يقيمون الدليل على انحرافهم عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وعلى خفة دينهم، وضعف رجولتهم، وفي الحديث «من تزوج فقد استكمل نصف دينه فليتق الله في النصف الباقي».(١)

٣- الإمام الغزالي وحكمة مشروعية الزواج

يقول الإمام الغزالي من الإحياء:

«أما بعد فإن النكاح معين على الدين، ومهين للشياطين، وحصن دون عدو الله حصين، وسبب للتكثر الذي به مباهاة سيد المرسلين بسائر النبيين..».

وقد عنون بعد ذلك لفوائد النكاح وفصل القول في أمور خمسة هي الولد وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهن».

وكلام الإمام رحمه الله تقبس فيه صدق إيمانه، وشغوف وجدانه، وعمق نظره، واخلاصه في ابتغاء وجه الله تعالى في قوله وعمله، وما أسعد الذين يعودون إلى «كتاب النكاح» في الاحياء للاغتراف المبارك من هذا النبع الغدق..

ويقول الأستاذ الأكبر الشيخ / محمود شلتوت «وما الزواج في واقعه إلا ظاهرة من ظواهر التنظيم لفطرة أودعت في الانسان، كما أودعت في غيره من أنواع الحيوان، ولولا الزواج الذي هو تنظيم لتلك الفطرة المشتركة بين الانسان والحيوان، لتساوى الانسان مع غيره من أنواع الحيوان في سبيل تلبية هذه الفطرة عن طريق الفوضى والشيوع، وعندئذ لا يكون الانسان ذلك المخلوق الذي سواه الله ونفخ فيه من روحه ثم منحه العقل والتفكير، وفضله على كثير من خلقه، واستخلفه في أرضه، وسخر له عوالم كونه ثم هيأ له مبادىء الروابط السامية التي يرتفع بها من حضيض الحيوانية البحتة وتدعوه إلى التعاون مع بني نوعه في عمارة الكون وتدبير المصالح وتبادل المنافع»(٢).

---

(١) الطبراني في الأوسط من فيض القدير شرح الجامع الصغير ص ١٠٣ جـ ٦.
(٢) كتاب الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ١٣١.

٤ - مطالب الناس في الزواج:

ما ينبغي أن يدفع عن الإصهار إلى الأحرار ذو فضل، بسبب قلة في المال، أو خفاء في المجتمع، فلقد أعظم الرسول النكير في ذلك فقال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[١].

ان الزواج شركة حقاً، ولكنه شركة روحية، لا صفقة تجارية، فإذا جاء المال في ركب الفضائل التي لا بد منها في الزواج فمرحباً به، وإلا فسحقاً سحقاً.

كانت أخلاق رسول الله هي المفاخر التي قدمه بها عمه أبو طالب في حفل زواجه من خديجة.

قال أبو طالب: «الحمدلله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع اسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً وجعلنا القوام على الناس ثم ان محمد بن عبدالله ابن أخي، لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به، براً وفضلاً، وكرماً وعقلاً، وفخراً ونبلاً، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك وما فرضتم من الصداق فعَلَيَّ»[٢].

وكانت اخلاقه- صلوات الله عليه- هي حجة خديجة يوم قالت له: كلا والله ما يخزيك الله أبداً فقد أردفت تقول: «انك لتصل الرحم، وتحمل الكل. وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وهي خلائق لم تدع بفضيلة في البشرية قد كانت إلا استوعبتها، وكانت خديجة بعرفانها أهلاً لإعزاز الله ورسوله لأم المؤمنين!.

والناس يزنون طالب الزواج- في أقطار وديار- بما يملك من مال، لا بما

---

(١) الترمذي جـ ١ ص ٢٠١ طبعة بولاق وهو عند غير الترمذي «.. وفساد كبير» وعلى غير أساس الإسلام يتزوجون في اليهودية، ويحمي القانون في دول الحضارة اليوم «الشذوذ الجنسي» وأول كتابي «قبس من الإسلام»

(٢) الف يا للبلوي جـ ٢ ص ٤٢٢ جمعية المعارف.

يحسن من أعمال، ويناط به من آمال، وينظرون إلى المرأة من زاوية ما تملك عاجلاً، وما تملك غداً من تراث الآباء والأجداد، أو من أجرها على أعمال تزاحم فيها الرجال بالمناكب في غبار المجتمع!! [وقدنسي هؤلاء وأولئك الميزان الذي وضعه الرسول بقوله: «من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لجمالها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوجها لم يرد إلا أن يغض بصره، ويحفظ فرجه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه »(١)] عند الطبراني في الأوسط.

قال المهاجرون: لما أُنزل في الذهب والفضة ما أُنزل «وددنا أنا علمنا أي المال خير فنتخذه؟ فقال عليه السلام «ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على إيمانه » ألف باء حـ ١ ص ٤٠٢.

واني لأعجب من هؤلاء الذين ينثرون الآلاف والملايين في سبيل زواج لا تتكافأ فيه أعمار عبيد شهواتهم مع أعمار الضحايا اللواتي يقدمهن الآباء وولاة الأمور على مذابح المطامع والأهواء، ورحم الله شوقي إذ يقول في هذه الفاشية الخطيرة:

المـال حلَّـل كـل غـير محلَّـل	حـتى زواج الشيـب بالأبكـار
مـا زوِّجَـت تلـك الفتاة وإنما	بيـع الصبـا والحسن بالدينـار!

كان الناس في عصور الخير والنور لا يرعون إلا الفضل والمروءة فيمن يختارون لكرائمهم، ولا يتطاولون لغير ذات الدين التي تغالي بكريم خلالها أكثر مما تغالي بجمالها، وما غناء جمال ينطفىء غداً أَلَقُهُ، ويتضاءل رونقه حين تبقى شراسة اللسان، وسوء المعاملة إلى آخر الزمان؟

إن الأخلاق لأصون لشرف المرأة، وأحفظ لأمانات الزوج، وأجلب لصفو نفسه، مما يخلب الأبصار من جمال مصنوع أو مطبوع هو- وان كان امنية المتمني- مما يشغل صاحبه عن معالي الأمور، ويجعله غرضاً لظالم الظنون

(١) المنذري الترغيب والترهيب جـ٣ ص٤٦ طبعة الحلبي.

ومن المتفق عليه «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ودينها » فإن مزيدات الدين مربعة بذاك .

وموصول الريب، وقديماً أوصى أحد الحكماء رجلاً فقال: تزوج وإياك وذات الجمال البارع ثم أنشد:

ولن تصادف مرعىً مُونِقاً أبداً الا وجدتَ به آثار منتجع!

وقد قال رجل للحسن: يخطب ابنتي الكثيرون فممن أزوجها؟! فقال: «زوجها ممن يتقي الله فإنه ان أحبها أكرمها وان أبغضها لم يظلمها»!! وخطب عبد الملك بن مروان لابنه الوليد - حين ولاه العهد - ابنة سعيد بن المسيب فظنَّ بها عليه وآثر بها تلميذه أبا وداعة.

قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيداً ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت توفيت أهلي فاشتغلت بها. فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ قال ثم أردت أن أقوم فقال: هلا استحدثت أهلاً؟! فقلت يرحمك الله، ومن يزوجني، وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟؟ فقال: انا، قلت وتفعل؟! قال نعم، ثم تحمَّد وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو قال ثلاثة. قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فسرت وجعلت أتفكر: ممن آخذ وممن استدين؟ فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي، وكنت وحدي صائماً، فقدمت عشائي أفطر، وكان خبزاً وزيتاً، فإذا بابي يقرع، فقلت من هذا؟ قال سعيد. فأنكرت في كل انسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فانه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد!! فقمت وخرجت، فإذا سعيد بن المسيب، فظننت انه قد بدا له. فقلت يا أبا محمد، ألا أرسلت إلي فأتيتك؟ قال لأنت أحق أن تؤتى. فقلت: فما تأمر؟ قال انك كنت رجلاً عزباً فتزوجت، فكرهت ان ابيتك الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها، فدفعها في الباب، ورد الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمتها إلى القصعة التي فيها الزيت والخل، فوضعتها في ظل السراج، لكيلا تراه، ثم صعدت إلى السطح فناديت الجيران، فجاءوني. فقالوا ما شأنك؟! قلت ويحكم. زوجني سعيد بن المسيب بنته اليوم وقد جاء بها على غفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زوجك؟ قلت نعم وها هي في البيت قال.. فنزلوا إليها، وجاءت أمي فقالت وجهي من وجهك حرام ان مسستها قبل أن اصلحها في ثلاثة أيام، ثم

دخلت بها فإذا هي احفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بسنة رسوله، وأعرفهم بحق الزوج، ومكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه ثم أتيته في حلقته، وسلمت عليه فرد عليّ السلام، فلما تقوّض المجلس، ولم يبق غيري قال: ما بال ذلك الانسان؟! قلت: خيراً يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو. قال ان رابك شيء فالعصا!! فانصرفت ووجه إلي بعشرين ألف درهم».

وما ازدحم الناس بباب سعيد لفرط مال، أو لجمال ضربت بابنته فيه الأمثال، ولكنهم ابتغوا بذلك، المنبت الكريم، والبيئة الصالحة التي لا يزكو فيها غير أنفس المفارس، فالجمال الذي يخلب الألباب ويضل الصواب، غير الجمال الحقيقي الذي تسجد في محاريبه البصائر، وقديماً قيل: «ان المرأة الجميلة تسر العين ولكن المرأة الفاضلة تسر القلب» وما أكثر ما تغري الأعين بجمال يخفي وراءه قبيح النفوس!

جمال الوجه مع قبح النفوس	كقنديـلٍ عـلى قبر المجوسي!!

وإذا كان قد أبصر الذي قال:

عينـاك قد دلّتا عينيّ منك على	أشيـاء لولاهما ما كنت رأيتها
والعـين تعـلم من عيني محدثها	إن كان من حزبها أم من أعاديها

فلقد كان أصدق وأبصر الذي قال:

سلوا عن مودات الرجـال قلوبكم	فتلك شهود لم تكن تقبل الرّشا
ولا تسألوا عنهـا العيون فإنها	تشير لشيء غير ما تضمر الحشا

وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد فهو يقول: «اياكم وخضراء الدمن قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال المرأة الحسناء في المنبت السوء»[1]. وفي قوله «تخيروا لنطفكم فان العرق دساس».[2] ما يدعو كلا الزوجين ان

---

(١) الجامع الصغير جـ ١ ص ١١٢.

(٢) كشف الخفا جـ ١ ص ٢٧٢ طبعة القدسي وقد ذكر واشتهر على أنه حديث ذكره الشريف الرضي في المجازاة النبوية والمراد بخضراء الدمن: النبات الحسن الذي ينبت في أبوال الابل والغنم وأبعارها التي تتجمع في مرابضها.

يختار اخاه في نور من الدين والاخلاق وكريم التصرفات التي يورثها الآباء للأبناء « فاللبن يعدي » كما في الأثر.

ولقد امتن أبو الأسود الدؤلي على أولاده فقال: «لقد أحسنت إليكم صغاراً وأحسنت إليكم كباراً وأحسنت إليكم قبل أن تولدوا » فلما سألوه كيف أحسن إليهم قبل أن يولدوا؟ قال اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها. وأنشد الرياشي:

وأول إحساني إليــــكم تخيُّري   لما جدة الأعراق بادٍ عفافها!!

وما رشح بنت بائعة لبن للزواج من عاصم بن عمر بن الخطاب والانتقال إلى بيت الخلافة، إلا أخلاقها وأمانتها، فلقد مر عمر بسوق الليل - وهي من أسواق المدينة - فرأى امرأة تبيع اللبن ومعها بنت لها شابة، وقد همت العجوز ان تخلط لبنها بالماء وجعلت الشابة تقول يا أمه لا تمذقيه - لا تخلطيه - ولا تغشيه، فوقف عليها عمر، فقال من هذه منك؟! قالت ابنتي فأمر عاصماً فتزوجها »[3] بعد أن قال لأولاده « من يتزوج منكم فتاة لو كان لي في النساء أرب ما سبقني احدكم إليها رضي الله عن أمير المؤمنين فقد نظر إلى قوله تعالى:

« إن أكرمكم عند الله اتقاكم » الحجرات / ١٣

روى القرطبي رحمه الله في تفسيره للآية - بسنده عن سالم بن أبي الجعد قال: « تزوج رجل من الأنصار امرأة فطُعِن عليها في حسبها، فقال: « إني لم أتزوجها لحسبها، وانما تزوجتها لدينها وخُلُقها ».

فقال النبي ﷺ « ما يضرك ألا تكون من آل حاجب بن زرارة » ثم قال ﷺ:

« إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام، فرفع به الخسيسة، وأتم به الناقصة، وأذهب به اللوم، فلا لوم على مسلم، إنما اللوم لوم الجاهلية ».

٥ - القصد من المهور

حث الرسول على عدم المغالاة في المهور بقدر حثه على الزواج، فليست بناتنا سلعاً نغالي لها في الثمن، ولكنها جواهر كريمة نبتغي لها ما نصونها

(٣) الميداني جـ ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣ المطبعة الخيرية.

ويرعاها قبل أن ترغم أنوف أسر تخطف بناتهم من أجل الاسراف في المهور والرسول يقول «التمس ولو خاتماً من حديد »[1] ويقول « تزوجها على سورة كذا أو على آية كذا من القرآن ».[2]

والمهر في الحقيقة رمز يعبر به الرجل عن رغبته في المرأة واعزازه لانسانيتها، ولمعاني سكنه إليها، وسكنها إليه، وهو معنى روحي يجل عن مجرد الشهوة الجنسية، ولا يقادر بمال على أي حال.

والرسول يؤكد بوصاياه بالقصد في المهور أن اجهاد الزوج وتكليفه بما يشق عليه وهو في أول عهده بالزوجية يجعله متعباً معنى وقتاً طويلاً، وربما بغض اليه من أصهر اليهم مما ينافي حكمة الله « وجعل بينكم مودة ورحمة » وربما كان ذلك سبباً في تقويض دعائم الهناءة في هذا البيت الجديد، وخير الأمور أوساطها - كما يقول المعصوم صلوات الله عليه - وبينما يذهب بعض الآباء المذاهب البعيدة في ارتفاع المهور، نرى نسوة يطالبن بالغاء المهر من أجل تشجيع الشباب على الزواج راجع مقترحات مؤتمر نساء أفريقيا وآسيا المنعقد في القاهرة خلال شهر كانون الثاني « فبراير ١٩٦١ » ويقلن: إذا لم نستطع إلغاء المهور فلتكن في أضيق الحدود، وهن بهذا العرض الأخير يأخذن بيسر الاسلام، فهل يحرصن على معطياته ونفحاته في شتى الاتجاهات، فهو- وحده- السبيل لصفو الحياة ورضوان الله.

ولقد لاحظ الاستاذ محمد جميل بيهم- في أقطار زارها- سهولة الزواج. ووازن بين ذلك وبين عقبات ارتفاع المهور عندنا، وقرر ان سهولة الزواج هناك شجعت شباناً كثيرين على الزواج من أجنبيات، وانه نصح بعضهم بالعدول عن هذا، وضرب لهم أمثلة كثيرة مما شاهد من فشل الزواج بالأجنبيات وقال:

وهذه- ناحية ارتفاع المهور- ناحية جديرة باهتمام المصلحين في البلاد العربية، واهتمام الحكومات كذلك، والأوطان العربية حافلة بالعزاب الذين لا

---

(١) هامش فتح الباري جـ ٧ ص ١٣٩ المطبعة الخيرية.

(٢) فتح الباري جـ ٧ ص ١٥٠ المطبعة الخيرية.

يمنعهم من الزواج إلا تقاليد بالية، واعتبارات مالية، فحرام أن تبقى هذه التقاليد تحول بينهم وبين ما يرغبون، وتقضي بالتالي إلى الفجوروالدعارة السرية »

وصيحة النذير تتردد في أقطار من كثرة العوانس لو أرهف السمع المسئولون.

٦- الزواج المشروع.. والزواج الجماعي

الزواج رابطة آلهية بين رجل وامرأة لا يمنع شرع الله من زواجهما لبقاء النوع الانساني، وبالزواج تواصل حبل الناس منذ الانسان الأول آدم الذي خلق منه ربنا سبحانه حواء عليهما السلام فكانا أول زوجين بث الله منهما الاناث والذكور، وأمتن الله تعالى بذلك فقال جلت أنعمه:

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث فيهما رجالاً كثيراً ونساءً... » النساء / ١.

وتتابعت سنة الله تعالى بالزواج المشروع الذي جعله؛ بغاياته ومراده سبحانه منه؛ آية من أياته، وشاهداً من شواهد قدرته وحكمته فقال:

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » الروم / ٢١.

إن السكن في البيت، والمودة والرحمة في الأسرة، وفي الأسر التي أصهر بعضها إلى بعض عناصر ضرورية لترابط الأفراد والجماعات وقيام المجتمع الأمثل بلبنات الأسر المتواصلة المتكافلة على النحو الذي كانت عليه الحياة في نور الرسالات السماوية الأولى، لا في المراحل التي غابت فيها عن الناس هدايات الله فشاع مذهب « مَزْدَكْ » وغيره من مذاهب انطلاق الغريزة الجنسية على غير هدى من الله، فكانت منطلقاً للشيوعية في الأغراض التي دعا إليها « انجلز » زعيم الشيوعية الثاني، ففي كتابه « أصل العائلة » المطبوع بدار التعليم بدمشق ص ٢٩ قال:

« إن الزواج الجماعي الذي لا يزال في استراليا زواجاً طبقياً، أي زواج

طبقة كاملة من الرجال منتشرة غالباً فوق قارة بأسرها بطبقة من النساء منتشرة انتشارها الواسع.. هذا الزواج الجماعي ليس- إذا ما لوحظ عن كثب- مخيفاً فظيعاً تماماً كما تصوره لنا عقلية الرجال المتدينين التقاة المتعودة على تحريم الزواج من المحارم، بل على العكس لقد انقضت السنون الطوال قبل أن يصبح وجوده مثاراً للريبة، كما أنه لم يطرح على بساط البحث ثانية إلا حديثاً».

وإن «انجلز» لم يحرم في كتابه البنت ولا الأخت ولا الأم ولا أي امرأة على الأب والأخ والابن والرجل أي رجل.. ويقول: «إن الغيرة عاطفة بدأت متأخرة نسبياً». إنه تفكير غث، وادراك سقيم، ومشاعر لا تعرف الشرف ولا الكرامة التي منحها الله الانسان السويَّ منذ قال: «ولقد كرمنا بني آدم.... الاسراء / ٧٠

فكان من النسل الشريف في البيت النظيف، الطائفة القائمة على أمر الله تعالى التي اتجه إليها قول رسول الله ﷺ: «لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله».

إن الزواج لا يكون منة من الله تعالى حتى يقوم على مقتضى هديّه ووحيّه لرسله، ولا يكون مدرجة أمن، ولا سبيل سعادة واستقرار ولا يكون المحضن الصحيح للبنين والحفدة إلا وهو يوافق ما جاء به النبي ﷺ الناس عن ربنا سبحانه، وهو صلوات الله عليه يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هداه تبعاً لما جئت به». والله تعالى يقول: «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية..» الرعد / ٣٨ وقال: «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة» النحل / ٧٢ والامام بن قيم الجوزية- رحمه الله- يقول في كتابه «الجواب الكافي» ص ١٢٠ عن منافع الزواج وأسراره..: «الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى لها المرأة أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل، الذي هو حفظ هذا النوع، الذي هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب

الخلق إلى الله من جماعهن كالانبياء والاولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته إلى غير ذلك... ».

إنها مقاصد رفيعة لا يحققها إلا الزواج بمقتضى شرع الله وسنة نبيه ﷺ: وقد كانت وما تزال واقعاً يدعم المجتمع ويؤنس الحياة- والإمام الغزالي رحمه الله يذكر في كتابه «احياء علوم الدين» جـ ١ «ان من العلماء من بالغ ففضل الزواج على التخلي للعبادة، وان أقواماً اعترفوا بفضله، ولكن قدموا عليه التخلي للعبادة ما لم تتق النفس إلى النكاح توقانا يشوش عليها الحال، ويدعو إلى الوقاع.. »..

والإمام الزبيدي شارح الاحياء يورد كلاماً للنووي رحمهما الله فيه «إن قصد بالنكاح طاعة، كاتباع السنة، أو تحصيل ولد صالح أو عفة فرجه أو عينه، فهو من أعمال الآخرة يُثاب عليه، وهو للتائق له ولو خصياً، القادر على مؤنه أفضل من التخلي للعبادة تحصيناً للدين، وكما فيه بقاء النسل، والعاجز عن مؤنه يصوم، والقادر غير التائق إن تخلى للعبادة فهو أفضل من النكاح وإلا فالنكاح أفضل له من تركه، لئلا تفضي به البطالة إلى الفواحش».

ألا وإن فطرة الله التي فطر الناس عليها لا يوائمها إلا الزواج أسلوباً تواصل به الحياة سيرها التقى النقي بأتقياء أنقياء من رجال ونساء لا يرضون بدين الله بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً..

إن تحريم الإسلام الزواج من نساء سماهن القرآن في قوله تعالى: «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنَّ فإن لم تكونوا دخلتم بهنَّ فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله غفور رحيم، والمحصنات من المؤمنات إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأصل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين... » النساء ٢٣ - ٢٤ . وما وراء ذلكم في حدود الأربع.. وما عدا من ذكرت من المحارم هن لكم حلال كما قال عطاء هاتيك إلى ما جلت السنة المطهرة مما روى أبو هريرة في

الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ نهى عن زواج الرجل من المرأة وعمتها أو جمعه بينها وبين خالتها لحرمة الأم في الأخيرة وحرمة الأب في النهي عن زواج العمة مع ابنة أخيها.

كما حرم الإسلام الزواج ممن هي في عدة غيره، أو الزواج ممن هي في عدة الطلقة الثالثة من زوجها- حتى تنكح زوجاً غيره-

والاسلام في ذلك يضع الروابط الأسرية في مواضعها من الرعاية والاعتبار ويدعم الأسرة حين يختار من غير القريبات وممن لهن صهر، وصلة رضاع شريكة الحياة ورفيقة الدرب وأم البنين والبنات، و «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» البقرة / ١٥٧. وأين من هذا السمو في حوافظ الاسلام للأسرة ما أشرق إليه من دنس «انجلز» وما ألحت في مذهب «مزدك» يرون حل فروج الأمهات.. واأسفاه ويقولون: «الإبن أحرى بتسكين شهوة أمه».

وذلك أمر يأنف فيه الحيوان ويتحاماه-

وأباح «مزدك» في عهد «قباذ» النساء لمن يشاء، كما أباح الله الماء والهواء ونكح نساء «قباذ» لتقتدي به الرعية فتفعل في النساء فعله، فلما جاء دور أم أنوشروان من نساء «قباذ» قال «مزدك» له: أخرجها إليّ فإنك إن منعتني شهوتي لم يتم إيمانك!!! فهم بإخراجها إليه ويا للإيمان!!- ولكن أنوشروان بكى بين يدي «مزدك» وقبل رجليه وأبوه ينظر.. وكم من ناظر لا يبصر ولا يحس ولا يشعر «وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» الأعراف / ١٩٨.

«فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور» الحج / ٤٦. وتتوسل أنوشروان ببكائه وتقبيل أقدام «مزدك» وهو يسأله بفاعل الفطرة فيه أن يهب له أمه وقال قباذ منطلقاً من فلسفة الضال «مزدك» لا من رجولة قباذ موجهاً كلامه لمزدك:

«ألست تزعم أن المؤمن (!!) لا ينبغي أن يُردّ عن شهوته؟!
قال مزدك: بلى، قال: فَلِمَ ترد أنوشروان عن شهوته؟!
قال الضليل: قد وهبتها له.

ويا لعدل الله الذي يملي للظالمين إلى حين إن لم يعاجلهم بالمؤاخذة- فلم يطل

زمن حتى صار الحكم إلى آنوشروان، فافنى «المزدكية» وقضى على آخر أثر من آثار هذه الاباحية...

إن العلاقة بين الزوجين أرفع بكثير من مجرد أرواء الغريزة وهي ذات قيمة حين تجري في رحاب الاسلام، والنبي ﷺ يقول:

«وفي بضع أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنها- والبضع: الزواج إن الزواج يطهر الاسلام وشروطه وهداياته ينتج أطيب الثمرات ويكون بحق أحد آيات قدرة الله وحكمته ومنته في قوله: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» الروم / ٢١ فهل يتفكر كثيرون في عصر الكشوف العلمية؟!

إن الانسان المستخلف يربأ بنفسه أن يعيش حياته بغير هدى ونور من الله وهو يضنّ بكرامته عن أن يكون أذنا يتردد فيها أصوات عبيد الشهوات والنزوات ثم هو يجري في تيارهم حتى يكون عصرياً لا انساناً يعيش في الماضي، ويرضى التخلف عن زمانه، إنه حين تخدعه هذه الدعاوى ويقع في هذه الأحابيل، يكون «أمْعَة» ألغى فكره، وأمتهن قدره، وقهر في أعماقه سر النفحة الألهية فيه وأعلى كدر الطين وكثافة المادة التي تتسامى بالروح في آخرين فتجعلهم أسواء مهتدين.

والله الذي أعطى كل شيء خلقه وركب فيه غرائزه وميوله قد هداه وأراه كيف يستعملها؟ ومتى يستعملها؟ وكيف يكون بها عبد ربه لا عبد نزوه ولا أسير شهوة، ويحكي الله من كلام فرعون- «قال فمن ربك يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» طه / ٤٩- ٥٠.

وأعتى الشهوات وأعنفها هي غريزة الجنس التي تسلم من شوائب الهوى وانحرافات الاثم فتكون سبيل اتصال الحياة، وتتابع مسيرتها بالنوع الانساني، ولا سبيل لوجود النوع الإنساني الأمثل إلا الزواج.. يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في كتابه «تنظيم الاسلام للمجتمع».. «إن حفظ النوع الانساني على

الوجه الأكمل لا يكون إلا بالزواج فإن العلاقة بين الرجل والمرأة بغير الزواج لا تنتج نسلاً وإذا انتجت نسلاً لا تنتجه قوياً صالحاً للإلف الاجتماعي الذي يجعل من الأسرة لبنة في بناء المجتمع.

وأردف رحمه الله يقول: «وإن التجربة العلمية أثبتت أن الولد الذي يعيش بين أبويه يكون أقوى جسماً وعاطفة من الأطفال الذين ينشئون في الملاجىء، وقد جرت تلك التجارب العلمية ووضعت الموازنات بعد الحروب الأخيرة، إذ وجد أطفال بلا مأوى، فآوتهم الملاجىء وقد كتبت كاتبة أوربية رسالة في نتيجة هذه الدراسة وقد قررت أن طفل الملاجىء في السنة الأولى من حياته ينمو نمواً حسناً، ربما كان خيراً من نمو من يكون بين أبويه في السنة الأولى بسبب الرعاية الصحية والغذائية الموجودة بوفرة في الملاجىء، وعدم تواجدها في بعض الأسر، وإذا تجاوز الطفل العام الأول نجد الطفل الذي يكون بين أبويه يفوق ابن الملجأ نمواً» وتقول الكاتبة كما يقول العلامة أبو زهرة رحمه الله «وكلما وازنا بين أطفال الملاجىء الذين تجاوزوا العام الأول وبين أطفال المنازل في مثل سنهم كانت نتيجة الموازنة ليست في صالح الأولين.. ثم تتكلم في نمو حاسة النطق فتبين سرعة نموها بانتظام في ظل الأسرة وتقول في ذلك «إن بداية الكلام الحقيقي ينمو على أساس الصلة المباشرة بين الطفل ووالديه فالطفل يدرك بغريزته كل انفعال يثيرانه، فهو يرقبهما، ويقلد التعبيرات المختلفة التي تظهر على وجهيهما، وهذا الانفعال العاطفي والتقليدي فيه من القوة ما يدفع إلى الكلام».

وأرى أن فطرة الأبوين وحبهما لثمرة فردوس الأسرة يدعوهما إلى استعجال كلام الصغير، وهما يلقنانه الكلمات الأولى عادة تلك التي تتصل بالأب والأم؛ وطابع التكرار في ذلك والاصرار على أن يتجاوب الصغير ولو بعض التجاوب معهما يغلف الرغبة في كلامه واستعجاله، ولهذا لا يكون نطقة أول ما ينطق بكلمة أو بعضها في نفس ما يلقي إليه ويصل إلى سمعه من كلامهما.

ثم يقول الشيخ أبو زهرة: «ثم تقول الكاتبة في ختام رسالتها القيمة الفاحصة العميقة»: «ومن خلال الخمس سنوات الأولى من حياة الطفل تعمل

القوى الغريزية البدائية عند الطفل، من نشاط واضح، ومن علاقات الطفل الأولى بوالديه يستخدم هذه القوى ثم يتغلب عليها بإدماج نفسه في رغبات والديه، فتهذب غرائزه، وتكون في حدود معقولة، ويكون الضمير اللوام، ويبدأ الطفل حياة جديدة أساسها تهذيب الغرائز ومواءمتها، أي أن الطفل الذي يتربى بين أبويه يكون في السنوات الخمس الأولى تحت تأثير عاملين قويين.. أحدهما غرائزه التي لو انطلقت لكان وحشاً لا يألف ولا يؤلف- وثانيهما ما ينبعث من الوالدين من رحمة ومحبة، وما يبادلها به من المحبة ما يجعله يتأثر بها ويحاول ادماج نفسه في أنفسهما فتتهذب بذلك غرائزه من غير ارهاق نفسي ولا توجد في غير الأبوين، أو بعبارة عامة، لا توجد في غير الأسرة هذه العواطف التي توجد اندماج نفس الطفل في نفس غيره، لتهذب غرائزه.

وإذا كانت الغرائز تهذب بغير طريق الأسرة، فبنوع السيطرة لا الاندماج، فيحس بالألم وبالضغط فيكون النفور، ومن النفور ممن حوله تتكون الكراهية للمجتمع فلا يكون منه ألفة ولا ائتلاف، ويكون من الشذاذ الذين ينظرون إلى المجتمع نظرة من يريد الافتراس». والذين يعرفون دور رعاية الأطفال الجانحين، وثمرات الجريمة الجنسية، والأولاد الذين يتخلى عنهم بعض آبائهم لقصور ذات يدهم عن الانفاق عليهم، يعرفون من سوء تصرفاتهم ما لا تذكره هنا وأن نسيت فما أنس أنني زرت في صحبة قانوني مسئول عن رعاية القصَّر في بعض أقطارنا وكان معه اثنان من معاونيه ومعنا رئيس احدى هذه الدور، وتنقلنا في المؤسسة التي كان يشرف عليها، ووقفنا في آخر المطاف بعض الشيء قريباً من باب الخروج وكان على مقربة منا طفل بين الرابعة والخامسة من عمره، وكانت تحدثه احدى الأختين اللتين معنا، وإذا بالولد- كما قالت- يكلمها كلاماً عجيباً ممن هو في مثل سنه، ويضع يده في مكان من ظهرها سمنته لأحدنا.

إن البيت هو محضن الأولاد الطبيعي، والأسرة هي المجتمع الصغير الذي يقدم للحياة أنقى وأتقى العناصر التي تقودها قيادة صالحة. فمتى تقيم الأسر على منهج الله، وترفع بنيانها بالقرآن والسنة؟!

٧- أمور لا بد منها:

خطب رجل من الموالي قرشية على عهد عمر رضوان الله عليه، وأجزل لها المهر، فأباها عليه أخوها، فلما بلغ ذلك عمر، دعاه إليه، وسأله ما منعك أن تزوجه، فان له صلاحاً، وقد أحسن عطية أختك؟ فقال القرشي:

إن لنا - يا أمير المؤمنين - حسباً، وانه ليس لها بكفء، فقال عمر: لقد جاءكم بحسب الدنيا والآخرة. أما حسب الدنيا فالمال، وأما حسب الآخرة فالتقوى، زوج الرجل، إن كانت المرأة راضية، فراجعها أخوها، فرضيت فزوجها منه!!

وفي القصة مبادئ لا بد منها في اقامة حياة زوجية يصفو فيها الود ويتراخى العهد، هي - مع المهر الذي أسلفنا فيه الكلام - الكفاءة التي نلحظ فيها أن لا ندع ثغرة تستطيع المرأة أن تنفذ منها للتعالي على زوجها، والتعلل لعدم طاعته، ثم رضا المرأة واختيارها، ولقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته. فقال: أجيزي - نفذي - ما صنع أبوك. فقالت: اني لا أرضاه، فجعل الرسول الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن أعلم النساء إن ليس للآباء من الأمر شيء[1] » والرسول يلحظ في ذلك قول الله « .. فإذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف.. » ٢٣٢ البقرة، وهذا لا يمنع تدخل الآباء حين تسيء المرأة الاختيار.

وذهب شيخ الاسلام ابن شبرمة أمام العراق - في اعتبار رأي البنت - إلى أن زواج البنت باطل ما لم تبلغ وتصارح برأيها فيمن يريدها.[2]

وقال ابن القيّم « ان البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها في أقل شيء من ملكها إلا برضاها، ولا يجبرها على اخراج اليسير منه إلا باذنها، فكيف يجوز أن يخرج نفسها منها بغير رضاها؟ ومعلوم ان اخراج مالها كله بغير

(١) المبسوط جـ ٥ ص ٢، سنن النسائي جـ ٦ ص ٨٧ طبعة بولاق. وتراجع أحاديث أخرى أوردها عبد الرزاق في مصنفه وأصوله فيها..

(٢) المبسوط حـ٤ص ٢١٢.

رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لا تختاره ».

والرسول يقرر مبدأ التعرف على الزوجة، وتعرفها عليه، على وجه كريم، لا كما كتب أحد الصحفيين « زواج على المكسر »! فيقول النبي صلوات الله عليه وسلم. « إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعوه إلى زواجها فليفعل ».[1]

وذهب بعض العلماء إلى جواز أن يرى الخاطب مخطوبته على الحال التي تبدو فيها للآباء والأخوة، وحجتهم في ذلك قول الرسول للمغيرة بن شعبة وقد خطب امرأة « انظر إليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما »[2] أي يديم الوفاق والمودة اللذين يكون الزواج بدونها جحيماً لا يطاق!! وما أكثر ما يذكر الناس من زوجيات فشلت وخيبت آمال النساء والرجال الذين لم يتيحوا لأبنائهم وبناتهم فرصة الاختيار البصير، ولم يشركوهم الرأي في أمر يعود عليهم بخاصة، ويبوءون وحدهم بأوزاره وعاره!! وقد أعرب أحد العلماء المولعين بالأعراب بجانب الصواب يدعونه الدبري يخاطب المخطوبة متمردة وللتمرد حدود لا كما فهم من اطلاقها ما أراديا

أما أحفال الزفاف.. فالاسلام يقرها، ما روعيت فيها آدابه، من التصون والاحتشام، وتوجيه ما ينفق فيها إلى وجوه الخير أو تقديمها للعروسين، ليصلحا بها من أمرها، أو يدخراها لأيام تجري على الناس بما يحتسبون وما لا يحتسبون!

وفي فتح القدير « والمختار انه- الزفاف- لا يكره، إذا لم يشتمل على مفسدة دينية، وفي الترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ « اعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف » وفي البخاري عنها قالت « زففنا امرأة إلى رجل من الأنصار فقال النبي « اما يكون معهم لهو فان الأنصار يعجبهم اللهو » وروى الترمذي والنسائي عنه (ﷺ) انه قال « فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت » والفقهاء يقولون الدف ما لا جلاجل له.[3]

---

(١) عمدة القارىء جـ ٢٠ ص ١١٩ ونيل الأوطار جـ ٦ ص ١١٠.

(٢) عمدة القارىء جـ ٢٠ ص ١١٩ والترق في جـ ٦ ص ٦٩- ٧٠.

(٣) فتح القدير جـ ٣ ص ١٠٢

قال الشوكاني بعد إيراد هذه الأحاديث « وفي الأحاديث دليل أنه يجوز في النكاح ضرب الأدفاف، ورفع الأصوات بشيء من الكلام مثل «اتيناكم اتيناكم.. الخ » لا الأغاني المهيجة للسرور، المشتملة على وصف الجمال والفجور، فان ذلك يحرم في النكاح كما يحرم في غيره، وكذلك سائر الملاهي المحرمة »[١].

« قال أنس: أبصر النبي (ﷺ) نساء وصبايا مقبلين من عرس، فقام ممتناً - مرتاحاً - فقال اللهم أنتم من أحب الناس إليّ ».[٢]

ومن نافله القول ان السهرات الهائجة المائجة التي تبدو فيها أجساد النساء إلا قليلاً، وقد أثقلت الخمر الرؤوس ورنحت الأجسام، واستحلت الحرام، وأطلقت الأيدي بالأموال على دور اللهو وعلى الغانيات والراقصات اللواتي يقهقه معهن الشيطان حتى الصباح.. ليست من الإسلام في شيء!!

لقد أمات الناس سنة الولائم في الأعراس، وأقاموا على أنقاضها هذه السهرات، ونسوا أن الرسول أولم حين تزوج من زينب - بشاة، كما أولم - في رواية أخرى - في زواجه من غيرها بما يؤكل! وفي زواج الرسول بخديجة وذبح بكراً من أبكاره واطعامه الثاني كما طلبت إليه أم المؤمنين بيان كنت الواثقة وأنزل الله فيمن شهدوا وليمة زينب وأطالوا الجلوس قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين أناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحيي من الحق...[٣]

وقال الرسول لأصحابه في أحد الأعراس « انتبهوا انتبهوا » لما في ذلك من المرح والسرور، وأوجب على من دعي أن يجيب، ووصف الطفيلي الذي يغشى دور الناس غير مدعو إليها بقوله « دخل سارقاً وخرج مغيراً ».[٤]

وأوجب على من يشهد عرساً أن ينكر المنكر أو يرجع - على الأقل - فقال

(١) نيل الأوطار جـ ٦ ص ١٨٨.
(٢) القسطلاني جـ ٨ ص ٨٥.
(٣) سورة الأحزاب ٥٣.
(٤) القسطلاني جـ ٨ ص ١٨٥ - ١٧٨.

«من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها خمر».[1]

ولقد عمت البلوى بأم الكبائر، ففشت في دور، وشاعت في احياء، وجرت انهاراً في مناسبات- كانت لا تعرف شيئاً منها- ووجدت مدافعين عنها، يسمونها بغير اسمها، ويذكرون لها من المنافع والفوائد ما لا ينهض إلا في رؤوس الائمة العادين، وما ينبغي أن ندخر وسعاً في انكار هذا المنكر في الأعراس، وملتقى الناس «أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين»[2].

أما بعد، فان زواجاً يتم في هذه الأضواء، وعلى تلك الركائز الإلهية يثمر- لا ريب- أسرة مباركة، تدعم جوانب الأمة بنسل ميمون، وتقر في الملأ الأعلى عين محمد صلوات الله عليه وسلم بعد ان حدد أهداف الزواج بقوله «تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة». عن ابن عمر رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره، ويقويه مما وسم به من ضعف ان البيهقي أورده في المعرفة، وعن الإمام الشافعي أنه بلغه وآل العراقي على «الاحياء» أخرجه أبو داود والنسائي عن مفصل بن يسار باسناد صحيح.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٣- ١٨٤.
(٢) التوبة ١٣.

عُشّ الزوجية

١ - لبنة في صرح الأسرة:

عش الزوجية وديعة في أعناق الزوجين، ينبغي أن يعملا على بقائه ونمائه، وأن يذودا أسباب وهنه واضطرابه - ما وأتاهما جهد - وسبيل ذلك، ان يعرف كلاهما دوره ِ هذه الغاية، وأن يؤدي واجبه بصدق وبصر، فقد أوجب الله على الزوج والزوجة حقوقاً لن يرضى سبحانه عن أحدهما إلا بقدر ما يؤدي منها لشريكه، وحين نرعى الحقوق والواجبات، وتكون حقيقة ماثلة في البيت - وهو المجتمع الصغير - يكون الأمل كبيراً في شيوعها في الحياة، وهل المجتمع الا لبنَات مُتراصة من الأسر يشد بعضها بعضاً؟

ومن حق الزوجية التي تَّمت على كتاب الله وسنة رسوله، وأنشأت أسرة صالحة تضاف إلى أخواتها في سجل أمة محمد، أن يذكر كلا طرفيها «الميثاق الغليظ» الذي واثقهما الله به، والغبطة الواسعة التي أثارها الاختيار والاصهار، وأن يلحظ التكامل الذي يمد أحدهما به الآخر؛ بعد أن قال الله تعالى «هن لباس لكم وانتم لباس لهنَّ»[١] وما تعطيه هذه الآية من أن الرجل سياج للمرأة، وأنها سره وبطانته وخاصة أهله كذلك، وقد قالت الاعرابية لأختها وهي تزفها في وصاة طويلة «يا بنية كوني له مهاداً يكن لك عماداً وكوني له أمة يكن لك عبداً».

٢ - الرسول في بيتة!!

يقول صلوات الله عليه «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٢] ومعنى

(١) البقرة: ١٨٧.
(٢) الترغيب والترهيب للمنذري جـ ٣ ص ٤٩ طبعة الحلبي.

ذلك أن فضل ذوي الفضل إنما يظهر في معاملة الأهل، لا في السخاء على الأصدقاء في مجالس اللهو، وليس من المروءة في شيء أن يُقتّر الرجل على أهله ويسيء عشرة شريكة حياته حتى ينقلب البيت من السلام الوادع إلى محكمة تزور فيها الأخطاء، وتفتري المعايب!!

والحديث يوجب رفق الرجل بالمرأة واحترام أحاسيسها ومشاعرها، وان يكون للمؤمنين أسوة حسنة في ذلك برسولهم صلوات الله عليه، فلقد كان ابر زوج وأوفى عشير، يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته «ويكون في مهنة أهله[1] ولقد كن يتظاهرن عليه، ويسألنه - أحياناً - ما لا يستطيع حتى خيرهن الله تعالى بقوله «يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحاً جميلاً وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن اجراً عظيماً»[2] وقال النبي لعائشة لا تعجلي برأي حتى تستشيري أبويك فقالت أفيك استشير أبوي يا رسول الله؟ اني اختار الله ورسوله والدار الآخرة، وكذلك قال نساؤه أجمعين[3]».

وكان الرسول يلاعب عائشة ويسابقها فسبقته وسابقها فسبقها وقال هذه بتلك أبو داود والنسائي وابن ماجة بسند صحيح كما قال الطبراني قالت: وكان لي صواحب يلعبن معي، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن - يستخفين - فيسربهن إليَّ ليلعبن معي».[4]

وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فايتهن خرج سهمها، خرجت معه، ولم يقض للبواقي شيئاً.

قالت عائشة: «وكان لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندهن في القسم، وقل يوم إلّا طاف علينا جميعاً فيدنو من كل امرأة - من غير مسيس - حتى

---

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٩٩.

(٢) الأحزاب: ٢٨ - ٢٩.

(٣) النسائي جـ ٦ ص ٥٥ طبعة بولاق.

(٤) سفر السعادة للشيرازي هامش كشف الغمة ص ١٢٥ - ١٢٧ ونيل الأوطار جـ ٦ ص ٢٠٦.

يبلغ التي هو في نوبتها، فيبيت عندها ».(١)

ان الزوجة احدى بنات آدم و « كل بني آدم خطاء »(٢) كما قال المعصوم ﷺ، وهن في هذا المعنى وفي غيره « شقائق الرجال »(٣) من الحكمة أن ننهضها من كبوتها، وان نتجاوز عن هفوتها - ما لم تثلم عرضاً أو تخدش شرفاً - وان نصرفها عما نكره بالحكمة والموعظة الحسنة، فما أدب الله به المؤمنين « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ».(٤)

ولقد قسم الله صفات الكمال بين عباده، وجعل في كل انسان فضيلة، قد تعفى على هناته، وتربو على سيئاته، وفي ذلك يقول النبي « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي آخر ».(٥)

كان كرام الناس - عبر التاريخ - وما يزالون حتى اليوم، أصبر من عرفت الدنيا على أذى زوجاتهم، وكانت امرأة سقراط سليطة اللسان، تخز به وتدمي، وأشد ما كانت تستطيل به، على زوجها، حتى ضاق ذرع طلابه بذلك، وخافوا أن تصرفه شراستها عن رسالته الكبرى، فرغبوا إليه أن يطلقها، ولكنه أبى عليهم ما أرادوا وقال: كيف أطلق امرأة تعلمني فضيلة الصبر؟! وكانت ربما امعنت في أذاه حتى ترميه آخرة أمرها باناء فيه ماء، فيقول: ما زلت تبرقين وترعدين حتى أمطرت؟!

وفي تاريخ الإسلام ان عمر بن الخطاب قال: « والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، فبينما أنا في أمر ائتمره، إذ قالت لي امرأتي، لو صنعت كذا وكذا. فقلت لها: ومالك أنت ولما ههنا؟ وما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت: عجباً لك يا بن الخطاب. ما تريد

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ٤٠ طبعة صبيح. متفق عليه وللبخاري كان يهدهن تسعٌ في ليلة لمجرد إيناسهن واتاحة الفرصة لهن ليشركنه في خاصة أمر كل منهن

(٢) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٧٩.

(٣) المنذري جـ ٣ ص ٥١.

(٤) النساء: ١٩.

(٥) المنذري جـ ٣ ص ٥٠ لا يفرك: لا يكره.

أن تراجع أنت، وان ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟! فأخذت ردائي، ثم انطلقت حتى أدخل على حفصة. فقلت لها: أي بنيه. إنك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان؟ قالت.. والله إنا لنراجعه!!

ثم خرجت ودخلت على أم سلمة، لقرابتي منها، فكلمتها، فقالت: عجباً لك يا بن الخطاب. قد دخلت في كل شيء، حتى تبتغي ان تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟!!

فأخذتني اخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد.[1]

دب الخلاف في كل بيت، وأوغل في كل أسرة، وعرف منازل الأنبياء والمرسلين، والهداة الراشدين، ولكنهم كسروا مده وردوا عاديته- من غير هوادة- في وجه الشيطان، الذي ينزع بين الأهل من غير هوادة كذلك.

ولقد كان في الامام علي شدة على السيدة فاطمة، فقالت يوماً، والله لأشكونك إلى رسول الله، فانطلقت، وانطلق علي بأثرها، فقام بحيث يسمع كلامها، فشكت للرسول غلظ علي، وشدته عليها، فقال يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي انه لا إمَرة لأمرأة لا تأتي هوى زوجها، وهو ساكت.

قال علي فكففت عما كنت أصنع، وقلت والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً».[2]

٣ - قوامة الرجال ودرجتهم:

وما أجدر الرجال بالقوامة، وهي الدرجة التي جعلها الله لهم على النساء نظير التبعات الكثيرة والمهام الملقاة على عواتقهم في قوله تعالى «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم..» النساء / ٣٤ وهو تفضيل لا يغض من قدر المرأة، وإنما يقرر ضرورة المسؤولية التي تفرضها الحياة في كل شركة تقوم بين أفراد، انهم يجعلون فيها المتحدث الرسمي، ويحددون من له حق امضاء العقود، والرجل بفطرته التي فطر عليها

---

(١) مسلم المجلد الثاني حديث ٣١ طبعة الحلبي.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١٦.

أقدر على مواجهة الظروف المختلفة التي تواجهها الأسرة، فإذا شذت القاعدة، وانفقت المرأة، ودبرت شؤون الأسرة، فما أسرع ما يضطرب الأمر، وتجري الأحوال على غير هدى!! وفي المجتمع أسر تهتز قواعدها بالخلاف على دخل الزوجة من عملها!! وهو أمر لم يفت فقهاؤنا رضوان الله عليهم انه مال المرأة التي تزوجها زوجها وهي تعمل كان بعد ذلك كانت موافقة الرجل شرطاً، وكان له في ذلك المال كلام يعني اسهامها بقدر في شئون نفقة البيت.

وما أعدل الإسلام وهو يقرر حق المرأة على زوجها، حين يقرر حقه عليها، في آية واحدة، فيقول تعالى «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة»[1] وهو عدل تؤكده آيات القرآن التي تقول «بعضكم من بعض» آل عمران ١٩٥، «من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة..» النحل ٩٧ أفلا تسد هذه الآيات بين «الشقائق» كل ثغرة ينفذ منها الذين يوسوسون ويدعون إلى التحاقد؟!

وللمرأة على زوجها حقوق فصلتها السنة، قال معاوية بن حيدة رضي الله عنه قلت يا رسول الله: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: ان تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»[2].

وروى الحافظ المنذري في الترغيب عن طريق ابن ماجة والترمذي ان رسول الله ﷺ قال في خطبة الوداع بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال: الا واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عوان- أسيرات- عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا ان لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»[3]

---

(١) البقرة: ٢٢٨.
(٢) المنذري: جـ ٣ ص ٥١.
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٥١.

وروي في باب الترغيب في النفقة على الزوجة والعيال ان رسول الله ﷺ قال: « دينار انفقته في سبيل الله ودينار انفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار انفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي انفقته على أهلك »[١]

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: « والله إني لأتزين لأمرأتي كما أحب ان تتزين لي »!!

وما أولى الزوجة باعزاز الله، ورعاية الزوج، حين تسلس له قيادها، وتطيعه الطاعة التي لا يوجب عليه الانفاق عليها سواها.. روى ابن ماجة والترمذي ان رسول الله ﷺ قال « أيما امرأة ماتت وزوجها عليها راض دخلت الجنة ».[٢]

وفيما اتفق عليه البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة تضعها في في امرأتك ».[٣]

أوجب الاسلام النفقة للمرأة على الرجل، وهي في بيت الزوجية- ولا نقول بيت الطاعة الذي يثير في نفوس المتحدثات عن قضية المرأة حواساً، ويبعث عناداً وشماساً، وأوجب عليها في مقابلة ذلك طاعتها له، فإذا نشزت، وتركت بيت الزوجية بلا إذنه بغير وجه شرعي « أو خرجت إلى حرفتها رغم منع زوجها ص ١٥٨ المبادىء الشرعية للدكتور صبحي المحمصاني » فان ذلك يسقط نفقتها، حتى تنزل على أمر الزوج وتلتزم طاعته..

قال: ولكن لا تجبر الزوجة على طاعة زوجها فيما كان غير مباح شرعاً، كارتكاب الفواحش، أو الجرائم، أو كترك فرائض الدين ولا فيما كان تعدياً على حقوقها الشرعية كارغامها على اعطائه مالها، أو على التبرع به، أو على التصرف به على شكل آخر ».[٤]

---

(١) المصدر نفسه ص ٦١.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢.
(٣) القسطلاني جـ ٤ ص ٤٧٢.
(٤) المبادىء الشرعية ص ١٠٦.

فهل يطالب الرجال بالنفقة قبل أن نطالب لهم بالطاعة؟!

ان ام المؤمنين عائشة تقول لأمرأة « ان كان لك زوج فاستطعت ان تقلعي عينيك فتصنعيها أحسن مما كانتا فافعلي ».[١]

وكان رسول الله يستأذن عائشة في مبارحة فراشها في ليلتها لعبادة ربه ويقول « يا ابنة أبي بكر ذريني اتعبد لربي فتقول: « يا رسول الله اني أحب قربك » ولكني أوثر هواك »[٢].

وكانت تتبعه في ليلتها – رضي الله عنها – انى ذهب، حتى يكون خالصاً لها صلوات الله عليه.[٣]

وتلح عليها غيرة المرأة كلما تحفى بذكر خديجة، وصواحب كن يزرن بيت النبي أيام خديجة فتقول.. وما تذكر من عجوز قد أبدلك الله خيراً منها؟! فيجيبها. كلا والله ما أبدلني الله خيراً منها. لقد آمنت بي إذ كفر بيّ الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بنفسها ومالها، ورزقني الله منها الولد ولم يرزقني ولداً من غيرها ».[٤]

هذا هو المكان الطبيعي الذي تحتله المرأة الوفية من قلب زوجها بودادة وحب!!

وتعالوا نقف وقفة خشوع وإكبار امام أسماء بنت يزيد الأنصارية.

لقد جاءت رسول الله بين أصحابه فقالت.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله. أنا وافدة النساء إليك، ان الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد في بيوتكم، وحاملات أولادكم، وأنتم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعة، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله وان أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١٣ – طبعة المانيا.

(٢) الف باء للبلوي جـ ٢ حديث عائشة.

(٣) المصدر المذكور.

(٤) البغوي في المصابيح وفي كشف الغمة ص ٨٧ جـ ٢.

أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشاركم في الأجر والثواب؟!

فسأل الرسول أصحابه. هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها، من هذه؟! فقالوا.. ما ظننا ان امرأة تهتدي إلى مثل هذا!!

فقال صلوات الله عليه لأسماء: أفهمي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك، ان حسن تَبَعُّل لزوجها. وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ».[1]

٤ - الإسلام بلغ المدى في تكريم المرأة:

بلغ الإسلام المدى في تكريم المرأة فجعل لها حضانة أولادها، حين تفترق عن زوجها، ثم لأمها، قبل أن يجعلها للزوج أو للنساء من أهله، واشترط لمصلحة الأولاد في الحاضنة: شروط الحرية والبلوغ والعقل، والقدرة على صيانة الصغار وتربيتهم، وأن تكون مأمونة في سيرتها، غير متزوجة بأجنبي من الصغير، وأسقط حق الفاسق الماجن في حضانة البنت الضغيرة، على حين لم يسقطها عن الأم غير المسلمة بالنسبة للولد المسلم إلا إذا أصبح يفهم معنى الدين، ويخشى عليه أن يألف غير دينه ».[2]

ولقد حرص الإسلام على استقلال شخصية المرأة، على عكس ما هي عليه في ظل الحضارة المادية والنور الصناعي في أوروبا وغيرها، فهي هناك- وفي بيوت ببغاوات أوربا بيننا- مدام فلان، بينما ينسبها الإسلام إلى أبيها قبل أن يقول الرسول يابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي.. وإلى أن تقوم الساعة!!

وفي جريدة الرياض السعودية صباح الاثنين ١٩٧١/١/٣ تحت عنوان « الزوجة بالثمن » ما يلي:

« يرى بعض علماء الاجتماع أن الزوجة كانت تُباع قديماً، وتشترى، وأن المهر الذي يدفع للآن دليل هذه المساومة القديمة..

وقد ألغى في هذا القرن في نورمانديا أحد أقاليم فرنسا قانون كان يقضي بأن الزوجة ملك للزوج، له أن يتصرف بها كما يشاء حتى لو أراد أن يبيعها..

---

(١) في ترجمتها من الاستبصار وفي الدرر واللآلىء للشيخ الأنسي ص ٢٣٨.

(٢) تراجع صفحتنا ٥٨- ٥٩ من المبادىء الشرعية للدكتور صبحي المحمصاني.

ولا تزال المرأة تباع عند الهمج في أفريقيا..

فثمن المرأة في أوغندا، ست إبر وبعض قراطيس.

وثمنها في بعض بلاد جنوب أفريقيا يتراوح بين ثورين وعشرة ثيران

أما عند التتار في آسيا، فقد كان ثمنها وزنها من السمن أو الزبد..

أما في مكسيكا، فإن والد الفتاة يطلب ما بين فرس واحد إلى سبعة عشر فرساً!! وحرية المرأة في التملك والتصرف في مالها بدون توقف على رأي الزوج من دلائل تكريم الأسرة للمرأة.. يقول الدكتور الشيخ مصطفى السباعي:

« فالمرأة لا تزال تنتسب إلى عائلتها وتحمل اسم أبيها، وهي مستقلة تمام الاستقلال في شؤونها المالية الخاصة، لا سلطان لزوج ولا أب عليها في هذه الشئون، تبيع وتشتري وتؤجر وتستأجر، وتتصرف سائر التصرفات التي تحتاج إلى الأهلية الكاملة في المعاملات ».

« وهذا حق لم تصل إليه المرأة الفرنسية حتى اليوم، فلقد كانت في القانون المدني الفرنسي حتى عام ١٩٣٨م قاصرة كالصبيان والسفهاء، لا يجوز أن تتصرف في أموالها الخاصة إلا بإذن زوجها، وموافقته، ومع أن القانون الذي صدر عام ١٩٤٢م قد رفعها من هذه المرتبة المهينة، وسمح لها أن تتصرف بريعها الشخصي، إلا أنه لا يزال يمنعها - بموجب نظام الأموال المشتركة - من كثير من التصرفات، إلا بإذن زوجها، حتى أن اذن المحكمة لا يكفي، وهذا يجعلها - بلا ريب - دون مكانة المرأة المسلمة في استقلال شخصيتها، واكتمال اهليتها، ولهذا قال الكاتب الفرنسي رينولد بعد صدور قانون عام ١٩٤٢ « ان حلم المرأة الفرنسية وأملها لم يتحققا إلى الآن ».[1]

ويقول الأستاذ سيد قطب « وحسب الإسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية، ومن مساواة في التملك والكسب وما حقق لها من ضمانات في الزواج باذنها ورضاها، دون إكراه ولا إهمال، وفي مهرها « فآتوهن أجورهن فريضة » النساء آية ٢٤ وفي سائر حقوقها الزوجية، زوجة أو مطلقة « فأمسكوهن

(١) مقال مبادىء عامة في الزواج ص ٥٣٠ من المجلد السادس لمجلة « المسلمون ».

بمعروف او سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا » البقرة ٢٣١ « وعاشروهن بالمعروف » النساء- ١٩ ».[١]

٥- مسؤوليات في عش الزوجية:

يقرر الإسلام مسئولية الرجل والمرأة في حديثه الصحيح « ... والرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ».[٢]

وقوله: « ان الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته ».[٣]

وصدق الله العظيم « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة... ».[٤]

ومسؤولية الرجل تتسع للتوجيه الديني في الأسرة واباحة أكبر قدر ممكن من الثقافة والتربية لافرادها، وفي الأثر « ما لقي الرجل ربه بذنب اعظم من جهالة اهله » والناس يعرفون ما يصير اليه امر الطعام الشهي والشراب الروي، والثياب الجياد حين لا يكون مصير الجهل، الذي لم نبدد سحبه عن الاولاد، غير خزي الدنيا وسوء العاقبة.

ولقد اوجب الإسلام على الرجل والمرأة ان يصونا بيتهما من تردد الهادمين والهادمات عليه، فما اكثر الذين يغشون بيوت الناس وملء ثيابهم غدر ومكر، فيقتلون لهما في الذروة والغارب حتى يفرقوا بين المرء وزوجه، ويفصِمُوا عرى الزوجية.. والمرأة الكيسة هي التي تقول للمفرقين بين الأحبة، الباغين العيب للبرآء « ارجعوا » وكذلك يفعل الرجل البصير!.

وما اوفر سداد هذه المرأة التي دخلت عليها زائرة بعد ان سافر زوجها فسألتها- وهي تصطنع الرفق والحدب عليها- كم ترك زوجك من نفقة؟!

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ٥٥.
(٢) صحيح البخاري جـ ٦ ص ١٤٥ طبعة بولاق.
(٣) المنذري جـ ٣ ص ٦٥.
(٤) التحريم- ٦.

فقالت: يا هذه ان زوجي كان اكالاً ولم يكن رزاقاً، ذهب الأكال وبقي الرزاق!!!

وعش الزوجية يضع في عنق الزوجين مزيد الحرص عليه والضن به على دواعي الانهيار والدمار، فيكون المعروف قائد الرجل وهادية في امور بيته، ويكون المعروف هو دليل المرأة وسبيلها في كل ما تتناول من شئون الاسرة..

يقول الاستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت في قوله تعالى «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف».

«والآية ترشد ارشاداً واضحاً إلى ان الأساس الذي يرجع إليه في تقرير الحقوق والواجبات إنما هو «العرف» الذي تقضي به فطرة المرأة وفطرة الرجل، وشأن ما بينهما من المشاركة والاجتماع، وقد تكلم الفقهاء كثيراً في حق الرجل على المرأة وحق المرأة على الرجل، والحق الذي تهدي إليه الفطرة في شأن الزوجين هو ما قضي به النبي ﷺ بين علي وابنته فاطمة، قضى على ابنته بخدمة البيت ورعايته، وعلى زوجها بما كان خارجاً عن البيت من عمل فعليها تدبير المنزل ورعاية الأطفال، وعلى الرجل السعي والكسب، وبهذا التوزيع تتحقق المماثلة التي قررها القرآن الكريم من الآية الكريمة».

المسئولية من الأسرة (الأمومة)

الأمم مجمع العواطف والأحاسيس الشريفة وهي ينبوع الحنان الدفاق بحق وصدق حتى وإن غضبت، وعلى لسانها قيل:

«أدعو عليه وقلبي يقول: يا رب لا، لا!!» .. إنها تحمل سعيدة صابرة، وتلد حامدة شاكرة، وترضع قريرة العين، وترعى وترأم وتسهر وتخدم غير مدخرة وسعاً، ولا ضنينة بإمكان، لإصلاح حال هذا الذي عاش في خيالها منذ طفولتها الباكرة أملاً، ونما بالزواج في أحشائها حتى صار واقعاً تتهلل به وجوه والديه، ويضاعف استشعارها للحياة يفتح عينيه- أول ما يفتحها- على أقرب الناس منه، وألزمهم له، ويلهم لذلك تميز صوتها فيأنس ويرضى أو هكذا يبدو، ويتأثر بها أكثر من غيرها، فإذا اشتدت أوصاله وظهرت خصاله، تأثر بالبيت والمدرسة والمجتمع خيراً بخير وشراً بشر.

وما ينبغي أن ينكر أحد على الأم دفق حنانها، وصدق احسانها وعمق عواطفها حين لا يتعارض وشبوب الأولاد على المكارم، وفضائل النفس، فإذا صارت تدليلا هادفاً وحنوًّا يغلف الانهيار والدمار، وجب أن تسارع فتذكرٌ الأم في أول فرصة بهذا الانحراف عن فطرة الله فيها، وأنها أم تصلح وتقوِّم، لا تفسد وتهدم وهي حين تكون الأم السويَّة، لا يسعها إلا أن ترجع غير وانية إلى الصواب، وإلا كانت أماً أفسدت فطرة الله فيها وزوجة لم يتخيرها الرجل ذات دين، ولم يفقّهها منذ صارت في بيته، شريكة حياة، ورفيقة درب، وحفيظة مسئولة عن نفسها وعن بيت زوجها والأولاد في القمة والاعتبار الأول في ذلك البيت وفي الحديث المتفق عليه «والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها». وما خاطب الله الرجال وحدهم دون النساء- حاشاه- بقوله: «يا يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة» سورة التحريم /٦ إن من الشذوذ أن تجفو الأم أو تعنف أو تسرف إلى حد التدليل الهادم وهي تحنو وتعطف إلا اذا فقدت صالح التوجيه في بيت أبيها، وفي مناهج التعليم، وبرامج الاعلام مقروءاً ومسموعاً ومرئياً، التي لا تبرز هذه العناصر الضرورية لقيام الأسرة ودوامها وازدهار الحياة بها.

إن للأم السوية مكانه في القرآن والسنة ومكان لا نستهدفها في هذه الكلمات بقدر ما نستهدف بيان حق الأولاد في الترفق بهم، ورعاية خطواتهم على طريق الحياة بإشفاق وحكمة، ومن الكلمات المضيئة «من كان له صبيّ فليتصابى له» وليكن ذلك في نور الأثر الكريم «علق سوطك حيث يراه أهلك» ولقد لاعب الرسول ﷺ إبنيه الحسن والحسين إبني فاطمة وعلي رضي الله عنهما واهتم بهما إلى حد أن ترك المنبر وهو يخطب المسلمين وشأن الخطبة جليل في دين الله ليشمر قميصي الحسن والحسين وكانا يتعثران بها في سيرهما!.

ومن الصحيح المتفق عليه أن رسول الله ﷺ كان ربما حمل أمامة بنت زينب كبرى بناته في صلاة الفريضة، فإذا ركع أو سجد وضعها وإذا قام حملها واذا كانت كتب السنة والسيرة لم تتحدث كثيراً عن هذا الجانب من أمهات المؤمنين، ولا عن دور غيرهن إلى المدى الذي تحدثت به عن النبي ﷺ وبعض اصحابه، فإن رجلاً طلق أخيراً إمرأته متهما إياها بأنها تتدخل في تربيته

لأولاده وتدللهم إلى غير حدّ.. ان طلاق مثل هذه المرآة بدعوى تدليلها لأولادها، مجاوزة للحد، وظلمٌ- لا ريب - من رجل كان لا ينبغي أن يغيب عن هذا التدليل- إن صح زعمه- منذ ابتداء أمره، ومسئولية الرجل عن ذلك لا تُدفع، إلا اذا فقد شخصيته، وترك للمرأة الحبل على الغارب في بيته..

ومن الخير- وقد طلق الرجل المرأة لهذه الدعوى- أن يقوم الأهل بمحاولة إصلاح ذات البين مع الزوجين، وأن لا يدخروا وسعاً في التقريب بين المتباعدين، لخير الأبناء، والإبقاء على أسرة تصنع لبنة في كيان المجتمع المسلم الذي هو أمانة الله تعالى عندنا.. وصدق الله العظيم.

« ولا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف يؤتيه أجراً عظيماً » النساء /١١٤.

ويأيها الرجل «كل بني آدم خطاء» كما قال رسول الله ﷺ، والله تعالى يقول « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » النور /٢٢

٦ - هل تعمل المرأة المتزوجة؟!

حق الانثى في التعلم مقرر في الاسلام[١] وهو لا يمنعها من العمل ان دعت اليه ضرورة من حاجة الحياة اليها او حاجتها هي حين تحرم ممن جعلها في كفالتهم من أب أو أخ او زوج او ابن او قريب، بشرط ان يكون عملاً يلحظ أنوثتها، وان تتزين فيه- متعلمة او عاملة- بلباس التقوى، والضرورة تقدر بقدرها، وما اغنى الكريمة على نفسها وعلى قومها من ان يغبر المجتمع- وهو على ما نعرف من بعده عن الاسلام- وجهها بغباره الكثيف.. وانها لظاهرة شديدة الخطورة تلك التي تتفتح فيها كل الأبواب للمرأة، وتوصد في وجه اخيها الرجل حين تتماثل وسائلها التي لا تتماثل إلا في النزر اليسير!!

---

(١) وستجد تفصيل ذلك في باب «للأولاد في ذمتنا حقوق».

وما نغمط بذلك الفرائد اللواتي فتحن ابواب المجد بثقافتهن وتَصَوُّنِهن عن مظاهر التبذل، وبيننا ممن يرفعن رؤوسنا إعزازاً وإكباراً كثيرات، سيذهبن بمزيد الثقة ما دمن يؤمن باخلاص الذين يذكرونهن بوصايا الإسلام وتعاليمه بكل حال! وارى- وقد اجملت في هذه الكلمات رأيي- ان افسح المجال لنساء ورجال يسهمن في جلاء الحقيقة التي يماري فيها كثيرون.. يقول الاستاذ سيد قطب « ويجب ان لا ننسى التاريخ، وان لا نفتن بالقشور الخادعة، التي تعاصرنا اليوم، يحسن ان نذكر ان الغرب اخرج المرأة من البيت لتعمل، لأن الرجل هناك نكل عن كفالتها وإعانتها إلا ان يقتضيها الثمن من عفتها وكرامتها- عندئذ فقط اضطرت المرأة ان تعمل.

ويحسن ان نذكر انها حين خرجت للعمل، انتهز الغرب المادي حاجتها واستغل فرصة زيادة العرض ليرخص من اجرها، وليستغني اصحاب الأعمال بالمرأة الرخيصة الأجر عن العامل الذي بدأ يرفع رأسه ويطالب بأجر كريم

« وحين طالبت المرأة هناك بالمساواة، كانت تعني- اولاً وبالذات- المساواة في الاجور، لتأكل وتعيش، فلما لم تستطع هذه المساواة، طالبت بحق الانتخاب ليكون لها صوت يحسب حسابه، ثم طالبت بدخول البرلمانات ليكون لها حق ايجابي في تقرير تلك المساواة ».[1]

ولقد نشرت جريدة الأخبار في باب «اخبار حواء» بتاريخ ١٩٥٣/٣/٨.

« اذاعت باحثة اجتماعية انجليزية- اخيراً- بعد استفتاء اجرته بين ثمانمائة امرأة عاملة: ان المرأة ينقصها الطموح، وان ذلك هو سبب تفوق الرجل عليها في ميدان الأعمال.. ثم قالت هذه الباحثة..

« ان المرأة العاملة تشغلها امورها الشخصية فقط، فهي تعنى بملابسها وتصفيف شعرها... »!!

وفي تاريخ ١٩٥٣/٣/٩ نشرت الجريدة تحت عنوان « فكرة » لعلي امين:

---

(١) العدالة الاجتماعية في الاسلام ص ٥٦.

« كنت دائماً من انصار اشتراك المرأة في الحياة العامة، وكنت انادي: ان على الزوجة ان تبحث عن عمل تكتسب منه حتى تضاعف دخل الأسرة، وترفع مستوى المعيشة في البلاد، ولكنني قرأت اليوم في جريدة الايفننج ستاندارد، بحثاً للدكتورة ايدا إيلين بينت فيه: ان سبب الأزمات العائلية في امريكا، وسر كثرة الجرائم في المجتمع، هو ان الزوجة تركت بيتها لتضاعف دخل الاسرة فزاد الدخل وانخفض مستوى الاخلاق ».

« وتنادي الخبيرة الامريكية بضرورة عودة الامهات فوراً إلى البيت، حتى تعود للاخلاق حرمتها، وللابناء والاولاد الرعاية التي حرمتهم منها رغبة الأم في ان ترفع مستواهم الاقتصادي ».

وقالت الدكتورة إيلين « إن التجارب اثبتت ان عودة المرأة إلى الحريم، هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيل الجديد من التدهور الذي يسير فيه »!!

وقال علي امين: « ولا شك ان غياب الأم عن بيتها قد اثر تأثيراً خطيراً على النشىء الحديث، وهدم التقاليد التي كانت تعتمد عليها الأسرة، ولكن هل معنى هذا ان تعود المرأة إلى سجنها القديم؟ وهل يمكن للمرأة التي ذاقت طعم الحياة العامة، ان تعود إلى المطبخ؟ وتقضي وقتها في تقشير البطاطس، وغسل الصحون؟! اهـ

وتساؤلات علي امين هذه بعد ما قرر من الاثر الخطير لغياب الام عن بيتها في النشىء، وفي هدم تقاليدنا الصالحة، هي حوافز بعض النسوة إلى الاندفاع في التيار الذي يرضي علي امين وطلاب الهوى في كل مجال!!

وامضى في هذه السبيل فألخص كلاماً لمحررة « مع المرأة » في جريدة الأهرام.

١ - قالت تحت عنوان « إطلاق التشنيعات على المرأة العاملة » انهم في انجلترا طعنوا المرأة العاملة في انوثتها، بعد ان عجزوا عن ردها عن العمل، واقاموا استفتاء بين عدد كبير من الرجال من مختلف الطبقات لمعرفة رأيهم في اهم الصفات التي تعبر عن انوثة المرأة، وادعوا ان نتيجة الاستفتاء كانت كالآتي:

أ - طبقة العمال قالت: ان الانوثة تبرز في الفتاة التي تتدلل، وتتمنع في نفس الوقت، فتفر من الرجل ان قرب منها واذا ابتعد عنها عادت من نفسها قبل ضياع الفرصة!

ب - واتفق الفنانون على ان الفتاة الهادئة، هي الاكثر انوثة، لأنها توحي بالضعف، والضعف هو الانوثة!

جـ - اما الموظفون والطلبة الجامعيون الذين هم اكثر احتكاكاً بالمرأة. فقد اتفقوا على ان الانوثة لا تتمتع بها إلا المرأة التي تجلس في بيتها، حيث ترعى اولادها بنفسها، وتقوم بجميع اعمال المنزل، اما المرأة العاملة، فهي مجردة نهائياً من الانوثة، وكان هذا رأي الاغلبية هناك!

قالت المحررة: والآن اذا فرض وسئل الرجال هنا نفس السؤال عن رأيهم في الصفة التي تعبر عن انوثة المرأة ترى هل نسمع نفس الجواب؟!

٢ - وتحت عنوان «محاولة اخرى لهدم المرأة» في بابها «مع المرأة» قالت محاولات هدم المرأة العاملة انتقلت هذا الاسبوع من انجلترا إلى امريكا، فقد اجتمع اعضاء الكونجرس الامريكي لمناقشة موضوع منع الام التي لديها اطفال من الاشتغال مهما كلفها ذلك!!!

قال عضو- يبرر المنع- ان اشتغال الامهات يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية لا حصر لها!

وقال آخر: ان الله عندما منح المرأة ميزة انجاب الاولاد، لم يطلب منها ان تتركهم لتعمل في الخارج، بل جعل مهمتها البقاء في المنزل لرعاية هؤلاء الاطفال..

وقال ثالث:- ان المرأة تستطيع ان تخدم الدولة حقاً، اذا بقيت في البيت الذي هو كيان الأسرة!

وقال رابع:- إنه لمن الواجب اتخاذ قرار سريع بمنع المرأة التي لديها أطفال دون الثامنة من العمل!.

وقال خامس:- ان الأم كالفيتامين، اذا حرم الاولاد منها، مرضوا وماتوا!!

واتفقوا في النهاية على السماح للمرأة بالتعليم، حتى تفيد اولادها مستقبلاً، اما العمل فلا!!

قالت المحررة: وانا ارد على هؤلاء ومن سيقلدهم هنا، باننا نعتبر هذه الثورة، تنفيساً عن الشعور بالغيرة من المرأة الذي بدأ يجتاح بعض الرجال، ويملأ نفوسهم بالخوف من تفوقها عليهم!

٣ - وقالت في بابها - مع المرأة - تحت عنوان «حملة التشنيعات وصلت إلى هنا»!!

نشرت على مرتين ما دار في انجلترا وامريكا وتساءلت عن الرأي هنا، وجاءتني مئات الردود، فأدركت ان الحملة ليست وقفاً على الخارج، ولكنها ممتدة هنا أيضاً، وان لم تأخذ شكل العلانية!

وقالت: لقد تحداني بعضهم هل اجرأ على نشر آرائهم التي ارسلوها عن المرأة العاملة باعتباري واحدة منهن؟! ولما كنت عند رأيي من ان هذه الزوبعة مصدرها كما قلت خوف الرجال من منافسة النساء، فاني اعتبر ان كل هجوم يشن عليها هو اعتراف صريح بنجاحها وتفوقها، واعتراف صريح بحقدهم عليها بعد هذا النجاح..

وقالت «الخصم والحكم» والطريقة التي كتبت بها هذه الردود تدل على هذا بشكل لا يقبل المناقشة ولذلك لا اخشى نشرها!!

قال اكثرهم مثلاً، ان المرأة العاملة ترث بطبيعة عملها ومسئولياته، شذوذاً جنسياً تفقد فيه صفات جنسها دون ان تكتسب صفات الجنس الآخر، فتتحول بشرة وجهها الناعمة إلى اديم مُتَلَيِّف[1] وتتحول العيون الساحرة الحالمة إلى عيون متيقظة، توحي بالملل والقلق، ويتحول قوامها من غصن البان، إلى عود الزان، ويتحول الصوت الرقيق، والنبرات العذبة إلى صوت سليط، وعبارات فظة... الخ

ثم قالت.. وبما ان هذا لم - ولن - يحدث، فيعتبر من قبيل التشنيع، الذي لم - ولن - يمنع المرأة العاملة من ان تتقدم في ثقة واطمئنان..

---

(١) وجه لا نضارة فيه.

٤ - وقالت في عدد آخر في بابها «مع المرأة» تحت عنوان «قولي الحقيقة.. المرأة العاملة تتمنى ان تعود امرأة».

«توليت المرافعة في قضية خاسرة، ودافعت عن مكانة المرأة العاملة وانوثتها، ولكن يبدو انني سأكف عن مرافعتي بعد ان تبينت انني خسرت القضية، بهذا الجواب الذي وصلني من واحدة منا. صاحبته سيدة، تشغل مركزاً محترماً وتعمل من خمس وعشرين سنة! تقول لي بالحرف الواحد..

«إما انك تخدعين نفسك، وإما انك ما زلت في اول سنوات العمل. ان الرجال على حق فيما يقولون، فالمرأة العاملة تفقد انوثتها فعلاً بالعمل، وقد يدهشك انني اتمنى بعد - ان امضيت مدة طويلة في العمل المضني واشعر ان غيري كثيرات يشاركنني هذا التمني - ألا اخرج من بيتي، وألا اترك اولادي صباح كل يوم لأذهب إلى مكتبي ولكنني اعمل واشقى، لأفقد انوثتي فعلاً في سبيل العند. انني مثلك اخشى ان يقول الرجال؛ اننا تراجعنا عن ميدان العمل وفشلنا، ولذلك فأنا وغيري نضحي بانفسنا لكي نغيظ الرجال. قولي الحقيقة: ان المرأة مهما تقدمت في عملها، فهي لا تحب ان تصبح رجلاً، بل تتمنى ان تتمتع بانوثتها إلى اقصى حد!! حالة واحدة تتمنى فيها المرأة ان تعمل، عندما يكبر الاولاد، ويذهب كل واحد منهم إلى حال سبيله، وفي هذه الحالة تستشعر رغبة شديدة في العمل اذ لم يعد هناك ما يذكرها بانوثتها، انها تعود إلى العمل باحساس الرجل لا باحساس المرأة!!! ا هـ

ولا اجد ما اعقب عليه بعد هذه الحقيقة غير ان اضع قيد نظر المحررة واضرابها كلمة الكاتب الامريكي «ول ديورانت».

«ان المرأة التي تحررت من عشرات الواجبات، والأعمال المنزلية، ونزلت فخورة إلى ميدان العمل، بجانب الرجل، في الدكان والمكتب، قد اكتسبت عاداته، وافكاره وتصرفاته، ودخنت سجائره ولبست بنطلوناته..!! ا هـ

وفي الاهرام تحت عنوان «نظرة إلى الحياة» في ١٩٥٥/٤/٣٠.

«كل مظهر من مظاهر الحياة يجافي المساواة، فالمساواة لا تقوم إلا نظراً. هي عنصر من عناصر الكمال، وهل للكمال اثر في احداث الحياة؟!

المرأة تطلب مساواتها بالرجل في الحقوق، ويهيب بها « جول ميتر » الا تتشبه بالرجل، اذا ارادت ان تكون مساوية له بل ان تمعن في الانوثة.. وقال:

« على المرأة ان تتزوج حديثة السن- اذا استطاعت- وان تكره الحياة الخالية من الجد، وان تكون لها اولاد، وألا تشفق من ارضاعهم، لأن اداء الواجبات الطبيعية عن طواعية يتحول إلى سعادة، وان تحب اولادها مرضاة لهم، لا مرضاة لها، والا تصرفهم عن العمل، وان تجعل منهم رجالاً، حينئذ تزداد المرأة سلطاناً، فتحتل في المجتمع مرتبة اعلى من المرتبة التي قد ترتقي اليها بحكم من احكام القانون، وحينئذ لا تكون المرأة مساوية للرجل بل تكون ارفع منه!!

ذلك ما يطلب الرجل للمرأة، فلا عجب ان يكون احب الرجال اليها اشدهم مقاومة لمطالبتها بحقوقها ا هـ

فهل « جول ميتر » رجعي لأنه يجاهر المرأة بما يصون كرامتها؟!

لقد افلح بعض كتاب الغرب في ايغار صدور النساء على الرجال، واقناعهن بان لهن « قضية » و « حقوقاً » غلبهن عليها الرجال وجرى في غبار هذه الاراجيف بعض ارباب الأقلام، وتعود محررة « مع المرأة » في الأهرام (١٩/١٠/١٩٦٠) فتقول تحت عنوان « الرجال في امريكا مهددون بالبطالة بسبب المرأة ».

« بدأ الرجال في امريكا يخشرن اكتساح المرأة لجميع ميادين العمل بشكل يهددهم بالبطالة، فقد دلت الاحصاءات الأخيرة على ان هناك ٢٤ مليون امرأة عاملة نظامية، علاوة على السيدات اللاتي يعملن بصفة غير منتظمة، او غير رسمية، وبذلك تصبح نسبتهن ثلث عدد العاملين، ولوحظ ان نسبة العاملات ترتفع بشكل مخيف جداً في كل عام، حتى تنبأ الاخصائيون باكتساح المرأة في خلال سنوات قليلة جداً.

وقد بدأت المرأة العاملة في امريكا تهدد نقابات العمال، تهديدات صريحة، اذا لم تلب لها جميع رغباتها، وفعلاً بدأت نقابات العمال تعطيها امتيازات جديدة لتوفر لها الراحة الكاملة في العمل، وتمكنها- في الوقت نفسه- من

القيام بواجباتها الاخرى في البيت كزوجة وأم.. »

ومرة اخرى يسعفنا الاستاذ سيد قطب بسبب وجيه لعمل المرأة في الخارج فيقول:

« إن نكول الرجال عن إعالة المرأة، واضطرارها إلى ان تعمل مثله، وفي دائرته لتعيش، فالشيوعية- بهذا- هي التكملة الحقيقية لروح الغرب المادية، الفاقدة للاريحية، وللمعاني الروحية في حياة البشرية »

« يجب ان نذكر هذا كله قبل ان يخدع ابصارنا الوهج الزائف، فالاسلام قد منح المرأة من الحقوق، منذ اربعة عشر قرناً، ما لم تمنحها اياه فرنسا إلى اليوم، وهو قد منحها حق العمل، وحق الكسب الذي منحته لها الشيوعية اليوم، ولكنه ابقى لها حق الرعاية في الاسرة، لأن الحياة عنده اكبر من المال والجسد، واهدافها اعلى من مجرد الطعام والشراب، ولأنه ينظر إلى الحياة من جوانبها المتعددة، ويرى لافرادها وظائف مختلفة، ولكنها متكافلة متناسقة، وبهذه النظرية يرى وظيفة الرجل ووظيفة المرأة، فيوجب على كل منهما ان يؤدي وظيفته اولاً لتنمية الحياة ودفعها إلى الامام، ويفرض لكل منهما الحقوق الضامنة لتحقيق هذا الهدف الانساني العام ».[١]

ثم يجيب الاستاذ الكبير محمد جميل بيهم على سؤال هو هل من الصالح خروج المرأة الشرقية إلى ميدان الاعمال الخارجية؟ فيقول: « اجمع المصلحون المجددون في الشرق امثال غاندي[٢] وفيصل الاول، ومحمد علي جنة، وسعد زغلول، وعبد الرحمن شهبندر وهم غير طبقة رجال الاصلاح المحافظين، على انه ليس من صالح الشرق ان يفتح المجال لنسائه لكي يخرجن من خدورهن إلى ميادين الكسب ».

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٥٨.

(٢) رد الزعيم غاندي على سؤال وجهته له جريدة باريسية بحديث جاء فيه: نعم يجب الا تتزل المرأة عن عرشها لكيلا ينهدم نظام الأسرة، وكيف تجد السعادة مأوى في بيت تشتغل صاحبته على الآلة الكاتبة كل النهار وتتناول غذاءها في المطاعم وتذهب إلى البيت لتنام فقط؟! ومن ذا الذي يعني بالأطفال؟ ثم ما قيمة البيت بغير الأطفال الذين هم زينة الحياة الدنيا والؤلؤة الساطعة في احقر الاكواخ؟!

« وهو الصواب عينه ، لأن المرأة التي تنصرف إلى الاعمال الخارجية يخسر بيتها وزوجها واولادها من الراحة المنزلية بقدر ما تربح من المال خارج المنزل ، وذلك لأن الزواج يخلق للمرأة واجبات لا تستطيع الخادمات - مهما كن حاذقات - سد فراغها ، هذا اذا بقي في المستقبل خادمات ، وان العالم الغربي في اوروبا وامريكا لا يكابر في هذا الموضوع ، بل انه لا يزال يجنح عملياً إلى فكرة لزوم المرأة دارها ، حتى ان نسبة النساء اللواتي يقتصرن على الشئون المنزلية في الولايات المتحدة - وهي اكثر البلاد تطرفاً في حرية المرأة - لا تزال تبلغ رقماً عالياً !

وإلى هذا فان الاعمال الاجتماعية والانسانية لا تقبل عليها هناك الصبايا اللواتي تلقى على عواتقهن الواجبات ، فقد تساءلت مساء يوم في واشنطن عن اسباب اقبال جمهور كبير من السيدات الراقيات على بهو « ماي فلور اوتيل » حيث كنت انزل ، وليس بينهن صبية واحدة ، وربما ولا كهلة أيضاً ؟! فقيل لي : انهن على موعد لمؤتمر ؛ وقيل لي - وقد افتقدت الصبايا - ان هذه الأعمال في امريكا انما يتفرغ لها المتقدمات في العمر ، وذلك لأنهن يمسين اقل ارتباطاً من سواهن بالشئون العائلية والواجبات المنزلية .. وجدير بالذكر ، الاشارة هنا إلى انه حتى النساء اللواتي قضى عليهن الزمان بمغادرة المنزل وراء الكسب ، غلب عليهن الاسى والندامة لهذا المصير ، واكبر دليل على ذلك الاستفتاء الذي قام معهد غالوب في امريكا من مدة قريبة - وهو معهد مهمته الاستفتاءات العامة لتحديد اتجاهات الرأي العام - قام باستفتاء عام في جميع الاوساط في الولايات المتحدة ، بصدد تعيين رأي النساء الكاسبات في صدد العمل ، واذا هو ينشر الخلاصة الآتية :

« ان المرأة متعبه الآن ، ويفضل ٦٥٪ من نساء امريكا العود إلى منازلهن ، كانت المرأة تتوهم انها بلغت امنية العمل ، اما اليوم ، وقد ادمت عثرات الطريق قدمها ، واستنزفت الجهود قواها - فانها تود الرجوع إلى عشها والتفرغ لاحتضان فراخها »!!

ولا ينبئك مثل خبير ، على ان هذا التراجع ظهر ايضاً في الأوساط

الامريكية السياسية، اذ تناقص على التوالي عدد عضوات الكونجرس إلى ما يشبه العدم!!

«كان عدد الممثلات الامريكيات في مجلس النواب والشيوخ سنة ١٩٢٦ يبلغ ١٠٨ امرأة، ثم تصاعد هذا العدد في الانتخابات اللاحقة إلى ٣١ امرأة، ولكن الزهد الذي استحوذ من بعد على نساء الولايات المتحدة في هذه الناحية، جعل هذا العدد يتراجع حتى لم يبق في الكونجرس الامريكي الآن الا تسع نائبات فقط على ما قرأت!!

«وخلاصة القول ان خروج النساء لمزاحمة الرجال في اعمال الكسب له اضرار لا مكابرة فيها، وان اعداد بناتنا اعداداً يذلل لهن الاعمال- فيما اذا ما اضطرهن المستقبل- امر له فوائد لا جدال فيها، فلنستعد اذن كما تستعد الدول للحرب في زمن السلم، خصوصاً وان الحياة كلها كفاح، وكل كفاح له سلاح، ومن البلاهة ان نستبقي للنضال في عصر الذرة السيوف والرماح».[1]

وتقول محررة باب «مع المرأة» في الاهرام (٢١/١٢/١٩٦٠) تحت عنوان «الاحصائيات اثبتت ان المرأة تفضل في زواجها عن النجاح في عملها».

«في المانيا اجريت احصائيات ضخمة بين السيدات اللاتي يمتلكن المراكز الكبيرة في الشركات والمصالح، وسئلت كل واحدة. هل تفضل نجاحها في العمل ام نجاحها في الحياة الزوجية؟!

ومن الغريب جداً ان جميع الاجابات كانت واحدة بدون استثناء! فقد اجابت كل سيدة متزوجة، بأنها تفضل النجاح في حياتها الزوجية على النجاح في عملها، وانها مستعدة للتضحية بعملها ومركزها الكبير، ولا يمكن ان تضحي ببيتها وزوجها واولادها!!

واجابت مجموعة كبيرة من السيدات غير المتزوجات، بأنهن كن يفضلن الزواج، مع البقاء في مراكز صغيرة جداً، وتقاضي مرتبات ضئيلة جداً بدلاً من الوصول إلى هذه المراكز المرموقة بدون زواج، فقد تبين لهن ان النجاح في

---

(١) كتاب فتاة الشرق في حضارة الغرب للاستاذ محمد جميل بيهم صفحة ٦٦- ٦٧.

العمل لم يعطهن الاستقرار والسعادة الحقيقية التي تتمناها كل واحدة لنفسها!!

وأتساءل- أخيراً- هل ظلم الإسلام المرأة، وهو يفتح لها ابواب العمل عند اضطرارها اليه، او حاجة الحياة نفسها اليها؟!

٧- غيوم في سماء الأسرة

تظهر بعض السحب في سماء الاسرة، وتهب عليها رياح خلاف، ويشيع بين الزوجين فتور، يبلغ بالمرأة درجة النفور، او يصل بالزوج إلى درجة النشوز والاعراض، وقد يستحكم الشقاق بينهما على السواء، والإسلام يقدم لهذه الحالات جميعاً حلولاً لا يغنى غناءها- في تبديد هذه السحب، واعادة السكينة إلى عش الزوجية- سواها.

أ - فهو في الحالة الاولى، ينادي الرجال «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ان الله كان علياً كبيراً»[١].

وعظ يذكر المرأة بالميثاق الغليظ الذي بينها وبين زوجها، وبذلك العهد الجميل الذي كانت فيه لباساً له كما كان لباساً لها، وبما ينتظر الاولاد- ان كانوا- من تشرد وضياع! ثم هجر في المضاجع يبدي زهد الرجل فيما تدل به الانثى وتحسبه سلاحاً تدرك به من الرجل ما تريد.. ثم ضرب لم يكن غرضاً من اغراض الاسلام ولكنه كالدواء الكريه الذي يضطر اليه المريض، وارجع البصر كرتين في قول الله بعد ذلك «فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً.. الآية» وفي السنة المطهرة تدرك حكمة الإسلام مجلوة سافرة..

يقول الإمام الشوكاني «فاذا اكتفى بالتهديد ونحوه كان افضل، ومهما امكن الوصول. إلى الغرض بالإيهام، لا يعدل إلى الفعل، لما في ذلك من النفرة المضادة لحسن العشرة المطلوبة في الزوجية، إلا اذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله، وقد أخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة له، ولا خادماً قط، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا في سبيل الله او تنتهك محارم

---

(١) النساء- ٤٣.

الله فينتقم لله » وفي الصحيحين « لا يجلد احدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها آخر اليوم »[1].

وحدَّث ابن سعد ان الرسول نهى عن ضرب النساء فقيل له: انهن قد فسدن. فقال اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم « الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ١٤٨ » ولقد صار عدم ضرب النساء ادباً مرعياً في الأنصار وغيرهم حتى ليقول شريح قاضي المسلمين في عهد عمر ومن بعده:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يميني حين اضرب زينبا!!

واسألوا اللواتي تحدثن من المثقفات إلى بعض الصحفيين ماذا قالوا في آثر الضرب وجدواه في بعض الاحايين!!

ب - وهو في الحالة الثانية، يخاطب النساء « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً او اعراضاً فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير.. »[2] فيستثير الله في المرأة حيلها ووسائلها التي قلما تخفق في استلانة الرجل، ورده رضي النفس إلى فردوس الاسرة..

جـ - فاذا لم يجمع ذلك كله الشمل، فقد اوجب الله على الأهل ان يتدخلوا بعد ان عجز الزوجان عن « ان يصلحا بينهما صلحاً » فقال تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً[3] وفي تحديد صلة الحكمين بالزوجين، فرض لحصر الخلاف واسبابه في نطاق السرية؛ حتى لا يسمع شيئاً منها حمالو الحطب المولعون باذكاء نار الفرقة بين الناس، ولا بد ان يكون الحكمان من اهل الصلاح لا من مجرد اهلها، ولقد روى ان عمر رضي الله عنه ارسل اثنين ليصلحا بين متخاصمين، فلما اخفقا علاهما بدرته وقال « ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما »!!

ان الاسلام دين الأهل والنساء على سواء لا يحابي الأهل على حساب شقائقه

---

(١) نيل الاوطار جـ ٦ صفحة ٢١١.

(٢) النساء ١٢٨.

(٣) النساء ٣٥.

يقول الاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة « واذا كان للرجل حق التأديب بالوعظ والهجر وغيرها فان للمرأة الحق ايضاً، فيما قرره الإمام مالك رضي الله عنه اذ يقول ذلك الامام الجليل، ان المرأة اذا اشتكت من زوجها انه يسيء اليها في عشرتها، لها ان ترفع الأمر إلى القاضي فيعظه ويلومه، فان لم يجد ذلك امر لها بالنفقة، ولم يأمرها بالطاعة، امداً معقولاً يراه، وبهذا اجاز لها ان تهجره اذا نشز، كما جاز له ان يهجرها اذا نشزت، فان لم يجد ذلك كان التفريق لا محالة- ان طلبته- « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ».[1]

٨ - أبغض الحلال:-

يحرض الإسلام على ان يحل الوفاق في الأسرة محل الشقاق، وان لا ينتهي الأمر بالزوجين إلى الطلاق، فانه « أبغض الحلال إلى الله... »[2]، وان كان لا يسد مسده في حينه سواه!!

والطلاق في الاسلام دواء لا داء، وفرصه يمكن بعدها استئناف الزوجية بود وابقاء، حين يراجع كلا الزوجين نفسه، ويرهف للعواقب حسه، ويبدي لشريكه اسفه، وقد وضع الإسلام للطلاق شروطاً لا يقع معها على الناس إلا في النزر اليسير؛ وآيات سورة البقرة- التي نستعرضها بعد قليل- وسورة الطلاق والاحاديث النبوية وكتب الفقه، تحلو حكمة هذا الدين، وتجعل الطلاق من مفاخره.. كما قرر ذلك المنصفون من غير المسلمين!!

أ - فالرجل يراجع زوجته متى شاء في العدة، وان جاء الطلاق بلفظ الثلاث. ويسر الإسلام يكشفه الإمام ابن تمية وابن القيم والزيدية والإثنا عشرية في عدم اعتبارهم لما يدور بكثرة على ألسنة الحمصي من نقل « لا اقل كذا.. ولا يقصد كذا وان فعلت كذا وهو لا يقصد الطلاق ».

ب - والمطلق يردها اليه من الطلاق الثاني- ما دامت في عدتها- ويردها بعده بعقدٍ ومهرٍ جديدين. قال تعالى « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا ان يخافا الا يقيما حدود

(١) من بحث لفضيلته في كتاب « الاسلام اليوم وغداً » صفحة ٢٣١.

(٢) الحديث، « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » الشوكاني جـ ٦ صفحة ٢٢٠.

الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون. فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون »[١].

جـ - اي اذا اوقع عليها الطلاق الثالث، فقد بانت منه بينونة كبرى « لا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » نكاحاً مبتوت الصلة عن نكاحها الأول، لا يراعي فيه اي ارتباط!

قال الإمام الشوكاني في جـ ٦ ص ١٤٠ من نيل الاوطار « والنبي ﷺ إنما شرط في عودها إلى الأول مجرد ذوق العسيلة التي حلت بالنص « حتى يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته »[٢] وعسيلتها هي ماؤهما!!

٩ - اخطاء

واخطاء الناس في هذا النكاح لا تتناهى، فمنهم من يصطنع فيه زواجاً شكلياً لا يتجاوز مجرد العقد دون ان يتلقى من عقدوا بينهما، ثم يكره الرجل بعد ذلك على الطلاق، ومنهم من يخطو خطوة وراء ذلك فيأذن للرجل بالخلوة بالمرأة شريطة ألا يقربها، وقد يجمعون بينهما في ملأ من قوم المرأة، وما اكثر ما تخيب هذه الضمانات كلها، وتأتي النتيجة بما لا يُحِب الأهل حين تذوق المرأة عسيلة هذا الذي اصطنعوه، ويطيب لها ان تستمر حياتها معه وان رغم الأهل!

ويكفي هذا الزواج الذي لم يأت على اساس الإسلام ان الناس يستبشعونه، ويسمونه في بعض البلاد « التجحيش » والنبي ﷺ يقول فيه « ألا اخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال هو المحلل. لعن الله المحلل والمحلل له »[٣] ويقول ابو حفص رضوان الله عليه « لا اوتى بمحلل او محلل له إلا رجمتها »[٤]

(١) البقرة: ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) بلوغ المرام لابن حجر صفحة ٢٠٠.

(٣) نيل الأوطار جـ ٦ صفحة ١٣٨ - ١٣٩.

(٤) اغاثة اللهفان لابن القيم جـ ١ صفحة ٢٧١ طبعة انصار السنة.

وبذلك اخذت المذاهب الإسلامية التي اعتبرت مثل هذا النكاح زنا، توجب فيه الحد من الرجم والجلد ».

والقول الفصل في هذا النكاح ان يمضي على طبيعته، يدوم او يتفرقا منه بطلاق، او بموت الزوج الأخير، فاذا اعتدت المرأة منه، امكن ان تعود إلى الأول بزواج جديد «فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله... »

١٠ - حتى يكون زواجاً ميموناً:

لقد سأل سائل قائلاً: تم عقد زواجي بولي وشاهدين وكنت في حال جنابة وبي بقية من «شراب» فهل صح عقد زواجي؟

ونقول له: إن الذي عقد عقد زواجه بولي وشاهدين على فتاة ليست من محارمه بحال لا نسباً ولا رضاعاً ولا تحريماً مؤقتاً، قد وقع عقده صحيحاً شرعياً، لكن الذي ذكره من حال جنابته حال العقد، وتناوله لمشروب كحولي لم يغير أيسر قدر من وعيّه وادراكه لكل ما حوله يثير الأسى ويضاعف الألم، فالرجل من بلدة لها عراقتها في جاهليتها، ولها شرفها وأصالتها منذ عرفت الإسلام على عهد رسول الله ﷺ حين كتب للملوك وأمراء الأمصار فاستجابت للدين العظيم خير استجابة، والذين يزورون دار آثارها ومتحفها التابع لوزارة التربية فيها يرون شواهد كثيرة تصنع وملامح عرفناها عن قرب في جوانب من هذا البلد العربي الكريم، تاريخاً حياً، وتضاعف الأمل في مستقبل مشرق بشرط اصطحاب الإسلام، والتزام منهجه في شتى الأقوال والأعمال والأحوال والله من وراء القصد. إن هذا «الحدث» عجيب غاية العجب في حاضرة لا يستعصى فيها على أحد أن يرفع حدثه، ويزيل جنابته، التي تقهر جانب الطين فيها معنى الصفو والاستقرار النفسي الذي يجده المسلم بعد أن يزيل حدثه لأول وهلة إن استطاع، وفي الفرصة الأولى التي تتاح له. وهذه الجنابة هل هي أثر احتلام، أم نهاية انفعال بمجالسة عروسه على نحو ما يحدث من لقاء لم يأخذ فيه السائل وامثاله بتوجيه الإسلام الذي لا يأذن للعروسين بالخلوة حتى يتم العقد، وكل ما يحل له قبل العقد هو النظر الذي قال فيه الرسول ﷺ للمغيرة بن شعبة رضي

الله عنه « انظر اليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أي يؤلف بينهما من وقوع الأدقة على الأدمة أي الجلدة الباطنة على البشرة وهي الجلدة الظاهرة، وفي التعميم المبالغة في الائتلاف، لأن الخلوة بالمخطوبة لا يؤمن فيها اقتراف الحرام، ووجود المحرم مع الخطيبين صمام أمن، وعنصر سلامة من الإثم.

أخرج الإمام أحمد بسنده عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها فإن ثالثها الشيطان ».

ودلالة قول النبي ﷺ « ذو محرم منها » جلية في أن هذا الشرط ضروري لأن أهلها أحرص ما يكونون على أن يبقى للفتاة شرفها وكرامتها حتى تزف لرجلها، وقد لا تكون حوافظ هذه الصيانة متوفرة إذا لم يك المحرم من أهلها. وحين تكون الجناية نتيجة مباشرة آثمة، تكون أدعى للإنكار، وأوجب للملام، وعلى المسلم أن يعف عن الحرام، حتى يعف أهله، وأن لا يستبيح غير المباح، كيلا يواجه قصاص الحياة، وعقاب الله، وقد صح من حديث رسول الله ﷺ « عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ».

وهذا الشراب الكحولي الذي تعاطاه السائل، كان ينبغي أن يكون موجب رفض لخطبته، فالذي يهدر عقله، ويهدم صحته، ويمتهن بالشراب كرامته، ويبعثر في غير وجه صحيح ماله، كيف تطيب أنفس أولياء أمور الفتيات بإئتمانه على كريماتهم وقريباتهم؟!..

إن الإسلام يوجب اختيار ذى الدين من الرجال، وذوات الدين من النساء، والنبي ﷺ يقول: « تخيروا لنطفكم.. » أخرجه ابن ماجة من حديث أم المؤمنين عائشة وأنس رضي الله عنهما. ويقول: « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » الترمذي من عدة طرق عن أبي هريرة وغيره.

والإسلام لا يضائل من قدر الغنى ولا الجمال ولا الحسب، فنعما هي إن جاءت في ركب الدين، وإلا ففيه غنية وكفاية من مال قد يتبدد وجمال قد يذوى وينفد وحسب خير منه التقوى « إن أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم

خبير » الحجرات /١٣ والنبي ﷺ يقول « تنكح المرأة لأربع لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » وفي رواية « فعليك بذات الدين » متفق عليه من رواية أبي هريرة والكلمة النبوية « فاظفر » تعني أن ذات الدين من أنفس ما يؤثر وأعز ما يحرص الأسوياء على احرازه..

(١) وأقتطف في هذا المجال زهرات من بحث ضاف للإمام أبي حامد الغزالي في فريدته « احياء علوم الدين » قال: « الاحتياط في حقها - أي الفتاة - أهم، لأنها رقيقة بالنكاح لا مخلص لها، والزوج قادر على الطلاق بكل حال.

ولعل الإمام الغزالي ينظر إلى ما روى عمرو بن الأحوص الجُشَيمي رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال: « ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك - يريد غير الاستمتاع وحفظ الزوج في نفسها وماله - « وعوان » أي أسيرات جمع عانية بالعين المهملة، فهي عانية أي أسيرة وهو عان أي أسير وقد شبه الرسول ﷺ المرأة في دخولها تحت حكم زوجها بالأسير والإسلام يوصي بالرفق بالأسرى فعلاً، فكيف بشريكة الحياة ورفيقة الدرب وشقائق الرجال؟! وذكر الإمام الغزالي من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها « الزواج رقّ فلينظر أحدكم أين يضع كريمته؟!

ثم أورد حديثاً يقول فيه النبي ﷺ « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » وذكر من سنده أنه عند الشعبي بسند صحيح. ثم قال الغزالي « ومهما زوج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شارب خمر فقد جنى على دينه، وتعرض لسخط الله لما قطع من الرحم وسوء الاختيار. وذكر قول رجل للحسن بن علي: « إن لي بنتاً فمن ترى أن أزوجها له؟! فقال زوجها ممن يتقي الله فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها ».

وقد حفظت الكلمة لحكيم، وعُزيت إلى أبي حفص عمر رضي الله عنه من قول رجل « يخطب ابنتي الكثيرون فممن أزوجها »؟!! وقد قال ابن تيمية رحمه الله « من كان مصراً على الفسق لا ينبغي أن يُزوّج ».

إن عقد الزواج قد تم بأركانه وشروط صحته، فالولي شاهد، والشاهدان

عدول، والايجاب والقبول اشتهرا، وارتفعت موانع الزواج من الرجل المسلم، والمرأة التي لا تحرّم. لكن الذي أسلفت أسفى له ما صرح به الخاطب والزوج الذي يستعد للزفاف وعروسه عما قليل من تناول الشراب الكحولي!!!

إن هذه الأقذار التي حرمها الإسلام، المسكرات والمخدرات. منذ نزل قوله تعالى «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون» المائدة/.

وفي تقديم الخمر هنا على أمهات الرذائل، ومنها الشرك متمثلاً في الأنصاب وهي ذبائحهم عليها باسم آلهتهم في أعيادهم، شهادة بشناعة الخمر، واستحقاقه للذهاب بأكبر قسط من قوله تعالى «رجس من عمل الشيطان» وأنه يوقع العداوة بين الناس، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ولولا أن السائل اعترف بكمال وعيه لما جرى في مجلس العقد، وأسهم بتمام ادراكه في الايجاب والقبول لكان خليقاً أن يفوّت عليه هذا الزواج، كما أوقع عليه بعض العلماء الطلاق في مثل هذه الأحوال عقوبة له وردعا لغيره. قال الحنفية: الخمر مضيعة للمال، مفسدة للعقل، مجلبة للاحتقار والسخرية، وكل أمر من هذه الأمور يوجب على العقلاء تركه والابتعاد عنه، فكيف اذا كان تركه هو الدين، واجتناب مجلسه هو بعض الذي يفهم من قوله تعالى «فاجتنبوه». وقديماً قال الشاعر في الجاهلية:

«شربت الخمر حتى ضلّ عقلي كـــذاك الخمر تفعـــل بالعقول .

وقد قال بعضهم وقد دعى إلى شراب:

«لا والله لا أشرب ما يشرب عقلي»

وقد قال جعفر الطيار رضي الله عنه «العاقل يتكلف ليزيد عقله فأنا لا أكتسب شيئاً يزيل عقلي»

وورد أنه كان يتحرز من الخمر في الجاهلية حتى حرمها الإسلام.. وأود وأنا أرى في سؤال السائل صحوة ضمير، ويقظة وجدان ورغبة في تقوى وايمان أن يستغفر ربه مما كان، وأن يعزم من الآن أن يكون مع الله يأتمر بأوامره،

وينتهي عن زواجره، حتى يواجه الزفاف بطهر وصلاح، فيكون مبارك الغدوات والسروحات في حياة زوجية يظللها الإسلام، وترعاها عين الله الذي لا بلاغ إلى خير إلا به سبحانه، وباتباع سبيل المؤمنين كما بينه سيدنا محمد صلوات الله عليه، والهدى هدى الله.

١١ - الرسول يعظم النكير في الطلاق..

فيقول صلوات الله عليه «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه عرش الرحمن»[١] ويقول «وما زال جبريل يوصيني بالمرأة حتى ظننت انه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبينة»[٢] ويقول «لعن الله كل ذوَّاق مطلاق»[٣] ويقول «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما باس فحرام عليها رائحة الجنة»[٤]

وفي هذه النصوص ما يحرك الضمائر للابقاء على الزوجية، والامساك فيها بمعروف جهد الطاقة، وفيها ما يخرس السنة ترجف بالاسلام في تشريع الطلاق!! وقد حمل اليَّ احد اولادي - وانا اكتب الآن في بيروت - خطاباً من سيدة قالت انها «طالبة علم تسمع خطبة الجمعة اسبوعياً» وألخص كلامي فيما يلي:

حضرة... فلان «وذكرت اسمي».

سلام عليكم... اكتب اليكم راجية ان يلهمكم الله تحقيق رجائي عن «المرأة المطلقة» في خطبة الجمعة أن الشاب المسلم يرفض الزواج من المرأة المطلقة من اجل حرصها على شرفها وكرامتها، انه ينظر اليها نظرة ناقصة وكأنه يقول: «لا اريد ان اشرب من وعاء سبقني على الشرب منه احد»!.. لا يقدر اخلاقها ومحيطها، بل يقدم عليها الفتاة اللعوب التي تلفت نظر الرجال في المجتمعات المختلطة المنحطة..

ان المجتمع اليوم لا ينصف المرأة المطلقة، التي اختارت طريق الشرف فطلقها الرجل، واراد المجتمع أن تنحرف بعد ذلك عن الطريق المستقيم، وألفت

---

(١) كشف الغمة جـ ٢ صفحة ٩٥.

(٢) المصدر المذكور صفحة ٩٦ بلفظ لا تطلقوا النساء الا من ريبة.

(٣) المصدر السابق بلفظ «... ان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات».

(٤) الشوكاني جـ ٦ صيحة ٢٢٠.

نظركم الى ان الطلاق قد يصدر في حالة تهور او حكم سريع ، لا يقدر ما وراء المرأة من مسئولية اولاد ومشاكل نفسية..

وتحدثت عن «تعدد الزوجات» وقالت انه مصيبة على الاولاد لا على آبائهم. وتساءلت: في أي كتاب سماوي تحرم الأم من رؤية اولادها، ويحرمون من رؤية امهم؟! لماذا لا تضع المحاكم حداً لهذه الوسيلة البشعة التي يقهر بها بعض الرجال زوجاتهم، ويقهرون ابناءهم بحرمانهم من عاطفة الامومة...

املي ان لا تخيب رجائي.. امضاء...

وسأحقق رجاء «طالبة العلم» في خطبة الجمعة ان شاء الله، وارد الابصار والبصائر- مرة اخرى- الى اقوال رسول الله في الطلاق، واعجب كيف ينصرف طلاب الزواج عن «المرأة المطلقة» غير ناظرين الى سمعتها وشرفها واستقامتها وانها قد تكون مظلومة في طلاقها، فما اكثر ما يريد الازواج من زوجاتهم غير ما يريده الله، فاذا آثرن رضى الله كانت الفرقة وكان الطلاق، ولقد قلت مرة في احد دروس النساء.. ان الاسلام حينما اراد للمسلمة اللباس الكريم والثياب الساترة، انما استهدف كرامتها فقالت لي سيدة من اسرة معروفة «وماذا نفعل؟! اننا نود ان نلبس ونخرج حين نخرج كما يريد الاسلام ولكن ازواجنا يكرهوننا على غير ذلك؟! وكان الأزواج معني يسمعون!!

وليست كل «مطلقة» سيئة الخلق، ولا حفية بانصراف الرجال عنها، فلقد تزوج الرسول من نساء كن زوجات وتزوج من زينب مطلقة زيد بن حارثة، وهن جميعاً امهات المؤمنين، وتزوج الصحابة من مطلقات، وفي المجتمع زوجات كريمات لكرام، وكن قبل ذلك زوجات لغيرهم.. ولماذا شرع الله العدة- عدة المطلقة والمتوفي عنها زوجها- لاستبراء رحمها من زوجها، ان لم يكن ذلك للاعداد لزواج جديد؟!

وارجو ان لا يكون عذر المطلق انه لم يجد شريكة تخلصه ودها، وتوفر له هناءته جهدها، وان لا تكون «المطلقة» من العاملات اللواتي يعدن الى منازلهن بقلوب متعبة وجوارح لاغبة، واعصاب ثائرة لا يؤدين معها لرجل او ولد عملاً!! ولقد اسلفت لك ان المرأة التي تخالف عن امر زوجها في العمل ومبارحة

المنزل لا تستوجب نفقة، ولا تثريب على زوجها ان فارقها بعد ان نصح فلم يفلح وامر فلم يطع، والمرأة تبوء عند ذلك - وحدها - بوزر الاولاد وما يلاقون من ضياع، وما يحرمون من حنان لا تصنعه الخادمات ولا رياض الأطفال.

وسنتناول «تعدد الزوجات» في موضعه من هذا الكتاب، فلنعد - الى حين - للحديث مع جاهلي حكمة تشريع الطلاق في الاسلام..

يقول الشيخ محمود شلتوت «وسيجد المصلحون فيه - أي في نظام الطلاق في الاسلام - متى حسن النظر والاختيار؟ الوقاية الكافية من ظاهرة كثرة الطلاق، التي يزعم البعض - بحسب ما يذكرون من ارقام - انها كثيرة تهدد حياة الأسر، وليس للأسر ما يهددها في ظل الفقه الاسلامي الواسع، الا التزمت والجمود على مذاهب معينة، تتخذ ديناً يلتزم، وقانوناً يتحاكم اليه الناس فيما بينهم، واذا تم ذلك فسوف لا نجد للطلاق كثرة يتخذها بعض المتحدثين في شئون الأسرة اساساً لمحاولة تغيير شرع الله في انتزاع حق الطلاق من الزوج الذي بيده عقدة النكاح، وتسليط القاضي عليه، بالتحقيق والدفاع والاستشهاد، وما الى ذلك من شئون التقاضي التي تأباها الحياة الزوجية القائمة على اساس المودة والرحمة والمحبة والتي من شأنها ان تكثر المكايد وخلق التهم في جوها مما يربو ضرره في الأسر على ضرر الطلاق وكثرته!!

«ان اصلاح الاسر لا بد فيه من مراعاة الوصايا الدينية فيما يتعلق بتكوينها وسلامتها، بعد تكونها من الشقاق بين الزوجين، وبتخير مذاهب اليسر في وقوع الطلاق بالنظر الى الفاظه، وبالنظر الى الحالة التي يكون عليها الزوجان وتحديد الدائرة الضيقة التي يقع فيها الطلاق البغيض عند الله، والذي جعله الله ضرورة اختيار او انقاذ من حالة طارئة يرجع بها الزوجان الى حالة السكن والمودة، وطيب العيش وهناءته».[1]

ويقول الاستاذ الكبير السيد عبد الحميد الخطيب:

«تقول الانباء الواردة من اوروبا ان اكثر حوادث القتل والانتحار بين الازواج هناك ترجع الى تحريم الطلاق، فلا يجد الزوج امامه وسيلة للانفصال،

(١) الاسلام عقيدة وشريعة صفحة ١٦٧.

الا انتحار ، ولذلك لم ير الباحثون الاجتماعيون هناك وسيلة لحل هذه المشكلة الا بإباحة الطلاق ، ولقد اباحته فعلاً بعض الدول الغربية كامريكا ... »[1]

« وهذه روسيا ابتدأت تعمل في الزواج والطلاق بكل حرية حسب قواعد بعض التشريع الاسلامي »[2].

ويقول الكاتب الفرنسي المسلم اتيين دينيه في كتابه « محمد رسول الله »:

« على ان الكنيسة قد اساءت كذلك في مسألة الطلاق ، كما اساءت في امر التوحيد في الزوجة وذلك بمخالفتها ايضاً لقوانين الطبيعة ».

وهل اشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبراً ، وقد خاب ظنهما في الزواج ، ولم يدركا السعادة التي طلباها من وراء ذلك ، هل أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا ليقضيا بقية ايامهما في عذاب ونكد وشقاء ؟! كذلك اذا كان احدهما عاقراً او كان غير كفء لزميله ، هل يحرم الآخر من ان يبني لنفسه بآخر ، وان يقيم له عائلة من جديد »؟![3].

فماذا ينقمون من الاسلام من الطلاق الذي جعله الله آخر الدواء ، حين تفقد الأسرة انسجام ركينها ، تفاهم طرفيها ، ويكون لكل منهما - بعد انعدام السلام العائلي - شأن يغنيه ، وهوى يضله ولا يهديه؟! « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[4].

إن الاسلام سمح بر بشقائق الرجال فلا يقع عليهن طلاق في حال حيض يضيق فيه صدرها وتقل رغبة الزوج فيها ، ولا يطلقها في طهر وقد واقعها فيه .. **كما يرى ذلك الإمام ابن تيمية (وفقهاء الشيعة).**

---

(١) تفسير الخطيب الملكي جـ ٤ صفحة ٧٧ .

(٢) المقارنات التشريعية بين القوانين الوضعية المدنية والتشريع الاسلامي للاستاذ حسين عبد الله علي حسين جـ ١ صفحة ١٨٣ .

(٣) كتاب « محمد رسول الله » ذيل صفحة ٢٣٨ ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والاستاذ محمد عبد الحليم محمود .

(٤) سورة النور - ٤٠ .

من حَوافِظ الأُسرَة

١ - أدب الله للصحابة أدب لنا!

دعا الاسلام الى صيانة الأسرة، ورد عوادي التداعي عنها، فأوجب الغيرة عليها، والحيلولة دون اختلاط الرجال والنساء فيها، حتىّ نأخذ في ذلك بالأدَب الذي رضيّه الله للمؤمنين، حين كانت تدعوهم الضرورة الى مخاطبة نساء النبي ﷺ في قوله «واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن...»[١]

وكلما تعددت نذر الاختلاط، وتفاقم شره، وشاعت فوضاه، زادنا ذلك ايماناً بقول المعصوم صلوات الله عليه «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»[٢].

ومن عجب ان يطلق شيطان الاختلاط افراخه على طريق الدعاة الى التصون والاحتشام، ليشككوا في هذا الحديث وامثاله، ويبشروا بفوائد الاختلاط، الذي يكبح- في زعمهم- جماح الشهوات، ويكسر ثوران الغرائز الدنيا، ويمحو فوارق الجنسين، حتى يصيرا شيئاً واحداً، في دور العلم، ومجالس اللهو، ومجامع الناس، والواقع- في شرق الدنيا وغربها- يكذب هذه الفلسفة ويملأ انوف اشياعها بالرغام!!

ونحن لا نسرف في الريبة حين نطالب للاعراض والحرمات في الاسرة ببعض

(١) الاحزاب- ٥٣.
(٢) المنذري جـ ٣ صفحة ٣٨.

ما نرصد لأموالنا وأعمالنا من يقظة واعتبار وصيانة ، فكل شيء في الدنيا يروح ويغدو ، ونجد منه البديل والخلف ، الا الشرف ، فانه اذا ثلم ثلمة ، اتصل عاره ، وتوارثه الأبناء والاحفاد عن السلف!!

٢ - غيرة العرب:

ولقد كان العرب - وما يزالون - أحفظ الناس للأنساب ، واحرصهم على الأهل والحرم ، وكانوا مضرب الامثال في غيرتهم عليها ومن اقوالهم التي ترددها الأجيال « كل امة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ».

وكانوا يغارون على الخيل ، ويتوعدون من تحدثه نفسه بالغارة عليها ، بحرب تتكلم فيها السيوف ، ويسهم الأهل والعشيرة فيها ، وقد طلب احد ملوكهم من عبيدة بن ربيعة التميمي فرساً تسمى « سكاب » فمنعها منه . وقال:

ابيت اللعن ، إن سكاب علق	نفيس لا يعـــار ولا يبـــاع
مفـــداة ، مكرَّمـــة علينـــا	يُجَاع لها العيال ولا تجاع
فلا تطمع - أبيت اللعن - فيها	ومنعكهـــا بشيء يستطاع
وكفِّي تستقـــل بحمـــل سيفي	وبي ممن تهضمـــني امتنـــاع
وحولي من بني معروف شيب	وشبـــان الى الهيجـــا سراع
اذا فزعوا ، فأمرهُم جميـــع	وإن لاقوا ، فأيديهم شعـــاع

ويصف المعرى « الديك » بالغيرة والدفاع عن الدجاج فيقول:

وفيك - اذا ما ضيَّع النكس - غيرة تصان بها المستصحبات الكرائم!(١)

وحين قال سعد بن معاذ رضي الله عنه « لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح » أنكر منه الصحابة ذلك وشكوه الى الرسول فقال صلوات الله عليه « اتعجبون من غيرة سعد انا والله أغير منه ، والله أغير مني »(٢).

وكانت اسماء بنت ابي بكر زوجة للزبير بن العوام - رضي الله عنهم - تزوجها وهو فقير ، فعملت معه في الحقل ، وكانت تحمل النوى على رأسها ،

---

(١) النكس: الضعيف: يريد الرجل المبع للحرم.

(٢) ارشاد الساري جـ ٨ ص ١٢٢ - ١٢٣.

لتعلف به بعيرها، فرآها الرسول وهي على هذه الحال يوماً، فأراد ان يركبها خلفه على بعيره فرغبت في ذلك، ثم ذكرت غيرة زوجها، فاعتذرت للرسول، وحدثت بذلك زوجها بعد ذلك، فقال «والله لحملك النوى على رأسك، أهون علي من ركوبك مع رسول الله ﷺ» ولم ينكر عليه الرسول مقالته، لما يعلم من غيرته رضي الله عنه!![1].

ويقول علي كرم الله وجهه الرجل الكامل من أخذ من الديك ثلاثة اشياء: سخاؤه، وشجاعته، وغيرته.

ومن الغراب ثلاثة اشياء. بكوره في طلب حوائجه، وشدة حذره، وستر سفاده»[2] وما اعظم توافق غيرة الديك، وستر الغراب سفاده!!

وروى صديق بيروتي امين: انه وجد احدى دجاجاته في حظيرة غير حظيرتها - يوماً - فحملها ليردها الى مكانها ولكنه شاهد عجباً!! رأى «الديك» في الحظيرة التي غادرتها ثائراً يأبى ان تعود، ويبطش بها بعنف، وحاول الصديق ان يثنيه فما افلح فغاب بالدجاجة فترة ثم عاد، فوجد الديك ما زال مصراً يأبى عليها ان تساكنه، وعاد بها ثم رجع اليه مرة ثالثة ومعه دجاجات آخر، فلم يثر الديك ولم يأب عليهن مساكنته، وظن الصديق أنه يستطيع أن يعود بالدجاجة إلى حظيرتها بعد أن هدأت الثورة وسكنت العاصفة، فلما عاد بها، عادت ثورة الغيور المذكور على الدجاجة التي تركت حظيرته!!

وقال لي شاهد من الأصدقاء أن اطراف هذه الطريقة على قيد خطوات افمن يرتاب ويريد أن يطمئن بهذه الحقيقة قلبه! فهل يعني ذلك أناس يفضون على انحراف ذويهم؟! إن الزبير يغار على اسماء من رسول الله!. والديك يغار على الدجاجة، ومن البهائم العجماوات ما يغار على انثاه، ويغنى دونها، وفي صحيح البخاري قال عمر بن ميمون الأورى «رأيت في الجاهلية قرداً زنا بقردة فاجتمع القرود عليها فرجموها حتى ماتا!!»[3]

---

(١) كشف الغمة للشعراني جـ ٢ صفحة ٨٣. رواه مسلم

(٢) السفاد: الجماع.

(٣) الف باء للبلوى جـ ٢ صفحة ٣٩٤.

وفي فصل «اداب المعاشرة» من كتاب النكاح في «الاحياء» يعرض الامام الغزالي حوافظ الاسلام للأسرة في أمور تلزم الرجل وأخرى تلزم المرأة، وذكر «الغيرة» وأوجب الاعتدال فيها، وركز على غيرة الرجل، وأحسب أن «الغيرة» تنال المرأة كذلك وتفعل بها ما يبدل أمن الأسرة ونعيمها جحيماً، وأرض العنان في هذا السياق لقلمه في محاولة الاقناع بهذا الأدب الضروري لسلامة الأسرة، بأن لا يبالغ في اساءة الظن وتحسس البواطن وتلمُّس الزلات قال العراقي «حديث نهى رسول الله ﷺ أن نتتبع عورات النساء، عند الطبراني في الأوسط من حديث جابر، والحديث عند مسلم بلفظ «نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتطلب بعثراتهم وعند البخاري «النهي عن الطروق ليلاً».

وغيرة الرجل على أهله من غير ريبة علة يُخشى استفحالها، ويكون أقل آثارها أن تعطى المرأة الفرصة فتفهم ما لم يكن لها من حساب.

وحسبنا أن نعود فتذكر ما قاله الامام الغزالي «الاعتدال في الغرة وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الامور التي تُخشى غوائلها، ولا يبالغ في اساءة الظن والتعنت وتحسس البواطن.

إن كثيرين يسمحون بالتغاضي عن أمور في بيوتهم، ثم لا يلبث أن يكون الذي سمحوا به وتغاضوا عنه، سلوكاً وعرفاً وتقاليد في مجتمع الغافلين المضيعين ولعل الامام الغزالي يبرز هذا في قوله

والطريق المغنى عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال إلى آخر ما قال مما لا ينبغي أن نأخذه كله.. فهل في سدِّ الكوى وتسكير النوافذ واحكام اغلاق الأبواب السلامة إن لم نتوسل الى ذلك بالتذكير والوعظ والتربية الدينية؟!!

٣- الاسلام يسد منابع الفتنة!

وما ابعد نظر الاسلام في ثورته على الاختلاط، ودعوته الى الحذر، وسد ذرائع الشر، فالطبيعة البشرية كالطبيعة العامة سواء بسواء، اذا هي ثارت حطمت حواجز الآداب، وآذنت بفساد كبير، ومن اجل ذلك عالج الاسلام

منابع الفتنة، وثغور السوء، فأوجب على المرأة الاحتشام في ثوبها - اذا واجهت الناس - فلا يكون شفيفاً لاصقا، ولا كاشفاً من طول ما قصرته - عما امر الله أن يستر منها. قال تعالى «يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً» الاحزاب، وفي باب «نهي المرأة ان تلبس ما يحكي بدنها» قال الامام الشوكاني:

«عن اسامة بن زيد قال: كساني رسول الله ﷺ قبطية كثيفة - نوع من فاخر الحرير - كانت مما اهدي له من دحية الكلبي، فكسوتها إمرأتي. فقال رسول الله مرة: مالك لا تلبس القبطية؟ فقلت يا رسول الله كسوتها امرأتي فقال: مرها ان تجعل تحتها غلالة - اي قميصاً - فاني اخاف ان يصف حجم عظامها» قال الشوكاني: والحديث يدل على انه يجب على المرأة أن تستر بدنها بثوب لا يصفه[1] وقد لعن الرسول المتشبهات بالوجال من النساء بلف عمامة او عصابة او غيرها !!![2]

وجمهور العلماء على أن بدن المرأة كله عورة، ولكننا نرى الخير في حديث أسماء على ما فيه من مقال!

وقد حرك الاسلام الضمائر وهو يحصي من لا حرج عليهن في مخالطتهم «ان تبدو شيئاً او تخفوه فان الله كان بكل شيء علياً، لا جناح عليهن في آبائهن ولا ابنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا ابناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت ايمانهن واتقين الله ان الله كان على كل شيء شهيداً» الاحزاب ٥٤ - ٥٥

واوجب على الرجل والمرأة غض البصر، وقدمه على حفظ الفروج في آيتين متتاليتين «لأن النظر بريد الزنا» وقال تعالى «قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن - أي يغطين صدورهن بغطاء

---

(١) نيل الاوطار جـ ٢ صفحة ١١٦.

(٢) نيل الاوطار جـ ٢ صفحة ١١٧.

رؤوسهن - ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن او آباء بعولتهن او ابنهائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بني اخوانهن او بني اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولي الاربة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بازجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون »[١].

قال علي كرم الله وجهه « أردف النبي ﷺ، الفضل بن العباس ثم أتى الجمرة فرماها، فاستقبلته جارية شابة من خثعم فسألته عن مسألة فأفتاها، ولوى عنق الفضل، فقال له العباس، لم تلوي عنق ابن عمك يا رسول الله؟ قال: « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليها »[٢].

ويقول ابن عباس في قوله تعالى: « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » هو الخاتم والكحل والخضاب والطوق والقرطان[٣].

وفي حديث مع الاستاذ الجليل محمد جميل بيهم قال: « كيف اباح القرآن في قوله تعالى: « او ما ملكت ايمانهن » نظر هؤلاء الى النساء؟! وانتهى بحثنا عند جواز ان يكون هؤلاء من الاماء، ووجدت الامام النفسي يقول:

« او ما ملكت ايمانهن » اي امائهن، ولا يحل لعبدها أن ينظر الى هذه المواضع منها، خصياً كان او عنيناً او فحلاً، وقال سعيد بن المسيب « لا تغرنكم سورة النور فانها في الاماء دون الذكور ».

وعن عائشة انها اباحت النظر اليها لعبدها »[٤].

وقد اورد الامام الشوكاني قول عائشة هذا وقال « والجمهور على أن المملوك كالاجنبي بدليل صحة تزوجها اياه بعد عتقه » وحمل الشيخ ابو حامد هذا الحديث على ان العبد كان صغيراً، لاطلاق لفظ الغلام، ولأنه واقعة حال »[٥].

(١) النور ٣٠ - ٣١.
(٢) كشف الغمة جـ ٢ صفحة ٥٧.
(٣) المصدر السابق صفحة ٥٨.
(٤) تفسير النسفي جـ ٣ صفحة ١٠٨.
(٥) نيل الاوطار جـ ٦ صفحة ١١٥.

وقال الامام الشعراني «وكان السلف يكرهون ان ينظر العبد الى شعر سيدته، وكأنهم عدوا الشعر من الزينة التي لا تبديها لعبدها»[1].

ورحم الله ابا حفصٍ عمر فهو يقول «علموا نساءكم سورة النور»[2] وكم فيها لهن من خير!!

وفرض الاسلام حرمة البيوت حين اوجب الاستئذان عليها قبل الدخول. قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فان لم تجدوا فيها احداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم»[3] وهي الحصانة التي جعلها الله لبيوت رسوله «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم...»[4] وقد روى البخاري ومسلم ان رسول الله ﷺ قال «من اطلع في بيت قوم بغير اذنهم فقد حل لهم ان يفقئوا عينه»[5].

***

واوجب استئذان مما ليكنا وصغارنا اذا ارادوا الدخول علينا في ثلاث اوقات فقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم..»[6]

وسأل بعضهم النبي: هل يستأذن على امه؟ قال: نعم. فقال الرجل: كيف

---

(١) كشف الغمة جـ ٢ صفحة ٥٧.
(٢) الف با جـ ١ ص ٢٤١.
(٣) النور ٢٧- ٢٨.
(٤) الاحزاب- ٥٣.
(٥) المنذري جـ ٣، صفحة ٤٣٥.
(٦) النور ٥٨- ٥٩.

وانا معها في البيت وانا خادمها؟! فقال صلوات الله عليه: أتحب ان تراها عريانة »؟! قال: لا. فأكد صلوات الله عليه وجوب الاستئذان عليها »[1].

ولم يغفل الاسلام حديث المرأة، ولكنه وضح للمؤمنات صورته وحدوده، وهو يؤدب امهات المؤمنين بقوله: « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً » قولاً معروفاً لا يفتح باب الأمل للذئاب المتربصة- بكل مكان- بالحملان، او بحبائل الشيطان!!

ونحن نشترط لحديث الأجنبية مع ذلك أن يكون في اضيق الحدود..

٤ - الاسلام يحترم الضرورات!

والاسلام مع ذلك العلاج الفذ يحترم الضرورات، فهو يدعو المرأة الى الاستقرار- جهدها- في مملكتها الخاصة، والعمل على اسعاد رعيتها ما امكنها ذلك، وهي كما قال الرسول « اقرب ما تكون المرأة من رحمة ربها وهي في قعر بيتها »[2].

فان لم يكن من مبارحة بيتها بد، فليكن ذلك في نور من قوله تعالى: « ولا يتَبَرّجنّ تبرج الجاهلية الأولى.. »[3] وقول الرسول: « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية »[4].

وقد استأنس الفقهاء في ذلك بما تعطيه الآية والحديث ومواقف نجملها فيما يلي:

١ - نسوة قلن للرسول: نريد ان نخرج الى الحروب مع ازواجنا لنحمل مرضاهم ونسقي ظمآهم.. فأجابهن.

٢ - نسوة قلن يا رسول الله: ان بعولتنا يمنعننا المساجد، فنادى ﷺ في الناس « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ».

(١) كشف الغمة جـ ٢ صفحة ٥٨.
(٢) المنذري جـ ١ صفحة ٢٢٧.
(٣) الاحزاب- ٣٣.
(٤) المنذري جـ ٣ صفحة ٨٤- ٨٥.

٣- نسوة قلن يا رسول الله: نريد ان نشهد الأعياد مع الرجال. فنادى: دعوا العواتق وذوات الخدور يشهدن العيد ».

هذا الرفق النبوي كان بمن يعرفن ما أراد لهن الاسلام من تصون وكمال!!

ولقد كان صلوات الله عليه يدعو المؤمنات الى قراءة سورة النور، ففيها وفي سورة الاحزاب من شرائع الخير للنساء ما يريح، مما يكظم الأنفاس، ويؤذي الحواس، وتضيق به الصدور اليوم، من عرى وتهتك واستهتار، لست ادري ماذا كان يقول الامام علي لو رآه قبل ان يقول « بلغني ان نساءكم يخرجن الى الاسواق ألا قبح الله رجلاً مؤمناً لا يكون غيوراً ».

وماذا كان يقول ابن مسعود قبل ان يقول: « أقبح اللؤم بالرجل الا يكون غيوراً، أما يستحي احدكم ان تخرج امرأته لتزاحم الناس في الاسواق والجامع »؟!

لقد خرجت المرأة الى الاسواق، وشهدت حلبات الرقص والسباق، والتفت فيها الساق بالساق، ورنحها السكر وزكمت الأنوف منها روائح العطر والخمر، وخان النظر، وقدح الشر والشرر، ورحم الله ابن القيم اذ يقول « ان النظرة تستتبع الخطرة والخطرة تستتبع الفكرة، والفكرة تستتبع الخطيئة »! وشتان ما بين ما قال شوقي رحمه الله نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء وبين آداب الحضارة الغربية « نظرة فلقاء فجنين ».

واين بعض نسائنا من احتشام غيرهن؟! ان الدول التي كفرت بالأديان تؤمن بكثير من الأخلاق!!

يقول الاستاذ محمد جميل بيهم: « نجد المسلمة في احدى الجمهوريات الواقعة شرقي بحر قزوين لا تزال محافظة على كثير من التقاليد الشرقية، ما عدا خريجات المدارس والمعاهد، ويضرب مثلاً بما شاهده في مدن اوزبكستان.. ثم يقول: « ومن علائم هذه المحافظة على الأزياء والتقاليد في بعض الاوساط، انك لا ترى على الاكثر رسوم النائبات المسلمات اللواتي يمثلن جمهوريات الاتحاد السوفييتي في مجلس القوميات العالي بموسكو، الا وترى رداء الرأس يتدلى من رؤوسهن حتى اكتافهن!!

ثم ضرب مثل المرأة الروسية التي لا تعني بالأناقة والتبرج والأصباغ وجر الذيول- كما قال العربي القديم- وكما يحدث في الغرب » أ هـ[1].

ولعله يعظ بذلك من لا عمل لهن من اشباه الطواويس، الا أن يفسرن قوله تعالى: « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »!! مع رفعهن لأصواتهن في غير احتشام في القطار والسيارة والترام، وفي الشارع والسوق وملتقى الأقوام.

٥- في غيبة الدين!!

تنحط المجتمعات الى درك الاثم، وتسقط في حمأة الانسانية حين يغيب الدين على الصورة التي سمعها عالم لبناني فاضل قال: كنت اركب سيارة عامة، والى جواري عدد من « أشباه الرجال ولا رجال، وسمعت احدهم يقول للآخر: سهرت الليلة مع فلان وفلان، وأكلنا وشربنا وتبادلنا نساءنا وذكر فاحشة الزنا والعياذ بالله!!

وقال لي تلاميذي في إحدى مدارس بيروت: انهم يعرفون شباناً يتبادلون الأخوات في سهرات ورحلات!

وهمس في اذني تلميذ وانا منصرف من صفهم يوماً: هل علي جناح ان عابثت فتاة تبيحني من نفسها ما دون الجماع؟! وكأنما أحس الفتى الأثر السيء الذي حاولت اخفاءه في اطواء نفسي. فراح يقول: ان الفتاة راضية، وانه ينفس بذلك عن نفسه من عناء الدراسة. الى آخر ما قال!!

وقلت له: ان عمله هذا يحرمه الاسلام، وان هذه الفتاة « الراضية » ليست ملك نفسها، واذا كان يثور لها- حين تصدمها سيارة مثلاً- الاهل والعشيرة، فكيف وهي تلصق بجبينهم عاراً يتوارثه الابناء عن الآباء، وان لفها هي البلى، واسدلت عليها ستور النسيان!

وانت ايها الشاب: أترضى ان تبيح احدى قريباتك نفسها لفتى كما استبحت هذه الفتاة؟ إذا رضيت بذلك فلست من كرامة المسلمين وغيرتهم في شيء، واذا

---

(١) اسرار ما وراء الستار صفحة ١١٠- ١١٤.

ابيت فأنت تأخذ من الناس ما لا تعطيهم من نفسك «واول راض سنة من يسيرها »!!

ان الاسلام يا فتى يفرض عليك وعلى هذه- التي لم تقع في حبائلك الا بعد وعود كذاب، وحيل زورها لك الشيطان وفتح قلبها واذنها عليها- ان لا تلتقيا في خلوة، فالاختلاط بعيداً عن الاهل يوقظ الهوى ويستثير الشهوة- وان تبتعدا عن الكتب المحمومة والافلام المسمومة، والجرائد التي تتملق غرائز الشباب بالصورة المنكرة والعبارة الماكرة، وان يقبل كلا كما على ما ينفعه حتى لا يكون الاسترسال في الافكار سبيل الشيطان اليكما، وخذا لنفسيكما حظاً من العلاج النبوي «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » والله يصلحني وإياكما!!

وهش الفتى لذلك الكلام، او **هكذا ظهر لي**، والهدى هدى الله!

ان آداب الاسلام هي التي تعصم المرأة من الاعين الزائغة، والالسنة الماضغة ومن الشباك التي يضعها على طريق الناس من لا يتقي الله. وحين تقع رقيقة الدين- والثياب- فريسة طيعة في فخاخ الغواة، تمضي المؤمنة ميمونة النقيبة، تمد الدنيا بالخير والبركة والقدوة الطيبة، فلقد خطب امير المؤمنين عمر، الى علي- رضي الله عنهما- كريمته ام كلثوم، فذكر الامام صغرها وقال، ابعث بها اليك فان رضيتها فهي امرأتك، فلما رآها عمر كشف عن ساقها، فقالت: لولا انك امير المؤمنين لصككت وجهك!!

وما ابلغ دلالة هذه الكلمة التي نود ان تملأ اسماع الذين يعترضون طريق الغافلات المؤمنات لغير الغرض الرفيع الذي جاشت به نفس عمر!

وتروي كتب الادب قصة ابنة الخس، وكانت كريمة على قومها، وشغفها حب فتى، وكان بينهما امر.. قال ابو عمرو. سئلت ابنة الخس: لم زنيت وانت سيدة قومك؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد- اي مساوءة الرجل من قريب- [1]

---

(١) الف باء للبلوي جـ ٢ صفحة ٧٦.

٦ - فاطمة بنت محمد تضع علاجاً!

ان المرأة تهوي، ويعجبها من الرجل - كما يعجبه منها - امور، ومن حقها ان تحول دون تردد الرجال عليها، وترددها عليهم، حتى تتشح بوشاح سابغ من الدين.

سأل الرسول بضعته فاطمة.. اي شيء خير للمرأة؟ قالت: ان لا ترى رجلاً وان لا يراها رجل، فضمها الى صدره وقال ذرية بعضها من بعض او بضعة انت مني يا فاطمة.[١]

وقال صلوات الله عليه «باعدوا بين انفاس الرجال والنساء فانه اذا كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي ليس له دواء»[٢] وقال عمر رضي الله عنه لقوم رآهم يتناضلون «انتسئوا عن البيوت - اي ابعدوا عنها - فان للرجال كلاماً لا يصلح ان يسمعه النساء! وقال علي كرم الله وجهه «ان النساء لحم على وضم الا ما ذب عنه[٣]... فهل يتم على ذلك الاساس تزاور الناس؟ فيأنس الرجال بالرجال والنساء بالنساء؟ ام تفتح الابواب لكل طارق ويقضي وقته في الالعاب المسلية مع الزوجات والفتيات، حتى يعود الرجال، او لا يعودوا «والدنيا بخير» كما يقولون!!

لقد استأذن عمرو بن العاص على فاطمة - رضي الله عنها - فأذنت له، فسأل: ثم علي؟ قالوا: لا. فرجع. ثم استأذن عليها مرة اخرى، فسأل كذلك، فقالوا نعم. فقال له علي: ما منعك ان تدخل حين لم تجدني ههنا؟! قال: ان رسول الله ﷺ نهانا ان ندخل على المغيبات.[٤]

وعن عقبة بن عامر ان رسول الله قال «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الانصار. أفرأيت الحم؟ قال «الحم الموت»[٥]

---

(١) الف باء للبلوي جـ ٢ صفحة ٧٦. من حديث علي في البزار والدارقطني.

(٢) الف باء للبلوي جـ ٢ صفحة ٧٦.

(٣) الف باء للبلوي جـ ٢ صفحة ٧٦.

(٤) ورد النهي في كشف الغمة جـ ٢ صفحة ٥٥ في خطبة للرسول بشأن ابي بكر وزوجته.

(٥) المنذري جـ ٣ صفحة ٣٨.

والحم: ابو الزوج ومن يدلى به كالعم والاخ وابن العم، واقارب المرآة كذلك!!

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى «النظرة سهم مسمومة من سهام ابليس من تركها من مخافتي، ابدلته ايماناً يجد حلاوته في قلبه»[١]

ويقول الرسول صلوات الله عليه «إياكم وفضول النظر فانه يبذر الهوى ويولد الغفلة»[٢] ورحم الله شيخ المعرة فهو يقول في هذا المعنى-

لا يأمنن على النساء اخ اخا ما في الرجال على النساء امين
ان الامين، وان تعفف جهده يومـــاً، تراه بنظرة سيخون!

وكأنما نظر ابو العلاء الى الغيب من وراء ستر رقيق، فضحايا الاختلاط تسود صفحات الصحف والمجلات، وتوجب ان نطيل تأمل حوافظ الاسرة التي قدمتها لك من قرآن يتلى؛ واحاديث تؤثر، وواقع فيه للعقلاء ذكر ومعتبر «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القي السمع وهو شهيد».[٣]

(١) المصدر السابق جـ. صفحة ٣٤.
(٢) شرح السيلقية للامام يحيى في شرح الحديث الرابع والعشرين.. اشار لذلك نيل الاوطار جـ ٦ صفحة ٤١٢.
(٣) ق- ٣٧.



من خصائص الاسلام

من خصائص الاسلام التي لم يُسبق بها، تحريم الزواج بالرضاع قال تعالى: «وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» النساء وأخرج الامام البخاري في النكاح «باب أمهاتكم اللاتي أرضعنكم»

وذكر الامام ابن كثير في تفسيره «وامهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» وقال: «كما يحرم عليك أمك التي ولدتك كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك».

وساق الامام مسلم في الرضاع «باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة». ما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة.

وهذا الحكم متفق عليه بين الأئمة، وهذا الحديث، وحديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «إئذني لأفلح أخي أبي القعيس فإنه عمك» «وكانت امرأته أرضعت عائشة رضي الله عنها».

هذان الحديثان يبرزان ما قال الامام ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد» «إن المرضعة والزوج - صاحب اللبن - قد صارا أبوين للطفل، وصار الطفل ولداً لهما، فانتشرت الحرمة من هذه الجهات الثلاثة»..

«فأولاد الطفل وان نزلوا أولاد ولدهما»

وأولاد كل واحد من المرضعة والزوج من الآخر، ومن غيره، اخوته وأخواته من الجهات الثلاثة..

وأولاد أحدهما من الآخر إخوته وأخواته لأبيه، وأمه، وأولاد الزوج من غيرها إخوته وأخواته من أبيه، وأولاد المرضعة من غيره إخوته وأخواته لأمه، وصار آباؤها أجداده وجداته، وصار أخوة المرضعة واخواتها أخواله وخالاته، وأخوة صاحب اللبن وأخواته أعمامه وعماته ولا يتعدى التحريم إلى غير المرتضع، فيحل لاخوته أن يتزوجوا من أرضعت أخاهم وأولادها وأولادهم وأصولها، وأولاد صاحب اللبن..

ولقد ثبت حكم تحريم لبن الفحل عند الصحابة، واستقر الأمر على التحريم به وأفتت عائشة أن لبن الفحل يثبت الحرمة، وقد أخرج الامام البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما، سئل عن رجل كان له امرأتان، أرضعت احداهما جارية، وأرضعت الأخرى غلاماً، أيحل أن ينكح الغلام الجارية؟ فقال ابن عباس: لا، اللقاح واحد» وأخرجه مالك والترمذي.

قال الامام النووي في كتابه «روضة الطالبين» حـ ٩ ص ١٥ فيمن يحرم بالرضاع تحريم الرضاع يتعلق بالمرضعة والفحل الذي له اللبن والطفل الرضيع فهم الأصول في الباب ثم تنتشر الحرمة فهم إلى غيرهم.

أما المرضعة فتنتشر الحرمة منها إلى آبائها من النسب والرضاع، فهم أجداد الرضيع، فإن كان الرضيع أنثى، حرم عليهم نكاحها، وإلى أمهاتها من النسب والرضاع، فهن جدات للرضيع، فيحرم عليه نكاحهن، إن كان ذكراً وإلى أولادها من النسب والرضاع فهم اخوته واخواته وإلى إخوتها وأخواتها من النسب والرضاع، فهم أخواله وخالاته.. ويكون أولاد أولادها أولاد إخوة وأولاد أخوات الرضيع وأولاد أخواتها لأنهم أولاد اخواله وخالاته.

وأما الفحل- صاحب اللبن- فكذلك تنتشر الحرمة منه إلى ابائه وأمهاته فهم أجداد الرضيع وجداته، والى أولاده فهم أخوة الرضيع وأخواته، وإلى اخوته وأخواته فهم أعمام الرضيع وعماته.

واما المرتضع، فتنتشر الحرمة منه إلى أولاده من الرضاع أو النسب، فهم أحفاد المرضعة أو الفحل، ولا تنتشر إلى آبائه وامهاته واخوته وأخواته، فيجوز لأبيه وأخيه أن ينكحا المرضعة وبناتها».

وانما يحرم لبن الفحل ما يحرم اذا لم يكن هذا اللبن في حالة الزنى قال الامام النووي في الكتاب الآنف الذكر « إنما تثبت الحرمة بين الرضيع والفحل إذا كان منسوباً الى الفحل بأن ينتسب اليه الولد الذي نزل عليه اللبن، أما اللبن النازل على ولد الزنى فلا حرمة له، فلا يحرم على الزاني أن ينكح الصغيرة المرتضعة من ذلك اللبن ».

والمسلمة التي رضعت وأخوها من امرأة رجل، يكون أولاد الرجل من زوجة أخرى اخوة المرأة وأخيها وأخواتها كذلك بنين وبنات، فلا المسلمة تحل لذكورهم ولا أخوها يحل لها اناثهن، لأن لبن الفحل حصل لمرأتين اللتين رضعت المسلمة وأخوها من احداها كالمرأة الواحدة في حكم أن أولادهن يحرم زواجكما منهم..

والإمام محمد أبو زهرة رحمه الله يقول في كتابه « تنظيم الاسلام للمجتمع » « والأمر الذي لاحظه الاسلام في التحريم بسبب الرضاعة، أن الرضاعة يتكون منها جسم الطفل، فكما أنه يتغذى من دم أمه وهو في بطنها، يتغذى أيضاً من لبن أمه الرضاعية وهو في حجرها، فهو جزء منها، وكما أن أمه التي ولدته تحرم عليه واخواتها خالاته وأولادها اخوانه، كذلك أمه الرضاعية تحرم عليه وأخواتها خالاته، وأولادها اخوته وأخواته ».

.. ألا ليت الناس يفهمون إلى أي مدى وضع الله الحوافظ والضمانات لصيانة المجتمع المسلم من دواعي اضطرابه؟!.

ومن نافلة القول ان الرضاعة التي يترتب عليها الاحكام إنما هي التي كانت في سن الصغر، التي تنبت اللحم وتنشر العظم وتفتق الأمعاء أي في الحولين كما قال الامام ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » البقرة /٢٢٣

وعبارته « هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال (لمن أراد أن يتم الرضاعة) وذهب اكثر الائمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقها لم يحرم »

وساق شواهد ذلك من السنة المطهرة، وعليه الجمهور، فلا رضاع بعد فصال..

إنه الاسلام، يضع القواعد، ويبرز الحدود، ويترك الأسوياء على بينة من الله وهدى.

تعدُّد الزوجَات

١ - لم يبتدعه الاسلام:

لم يبتدع الاسلام تعدد الزوجات، فلقد تمت به النعمة على الناس، وهم لا يقفون في الزواج عند حد، تبعاً لامم خلت وأديان تتابعت، فأباحته الرسالة الخاتمة بقوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع»[١]

ولكنه كما وقف به في هذه الحدود، وضع له بعض القيود، فقال تعالى «فان خفتم الا تعدلوا فواحدة»[٢]

واختلف الناس في العدل الذي نفاه الله بقوله «ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم..»[٣] ففهمه بعضهم على المساواة الكاملة بين النساء، ولذلك بادر يقول ان الآية سدت الباب، وحظرت التعدد ولم ترع الضرورات التي تفرضه لمصلحة الرجال والنساء على السواء!

وفهمه آخرون في ضوء «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة»[٣] وهو يرجح الاباحة التي تؤيدها السنة، وعمل الرسول وصحبه، يقول صلوات الله عليه: من تزوج اثنتين فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[٤] وانما يريد الرسول العدل في النفقة والسكنى والقسم في الليالي، وقد سئل صلوات الله عليه عن حبه لعائشة اكثر من بقية نسائه فقال: «اللهم هذا قسمي فيما املك فلا

(١) النساء: ٣٠.
(٢) النساء: ٣٠.
(٣) النساء: ١٢٩.
(٤) كشف الغمة جـ ٢ صفحة ٨٥

تؤاخذني فيما تملك ولا املك »[1] وهو ميل القلب... ولقد كان لغيلان بن سلمة عشر نساء فقال له الرسول « امسك عليك اربعاً » القسطلاني جـ ٨ ص ٣١ .

٢ - حكمة الاباحة!

ولقد يكون للتعدد اضرار ، يذكرون منها : تفضيل بعض النسوة على بعض ، وتعادي ابنائهن ، وتخالف اسرهن مما يتنافى مع المودة والرحمة ، وهي اضرار لا تكاد تذكر امام فوائد التعدد حين يجيء على شرط الاسلام ، ولا يكون المراد منه مجرد الانسياق وراء نزوات جنسية ان كان الاسلام يقدر اصلها ، فانه يوجب تنظيمها ويدعو الى التعقل في تلبية داعيها بمثل قول الرسول : « اتق الله فانه نور عينيك ومخ ساقيك » وأين من الأعتدال في ذلك قول أبي الاسود **الدؤلي** « يحسب المرء أن يُجنَّ مرة كل عام » وهو ليس جنونا وقد شرعه الله وسيلة طاهرة لبقاء النوع بآدابه في دين الله .

ان الاسلام يستهدف في أباحة التعدد ، توسيع فرصه المصاهرة ، ووشائج النسب بين المسلمين ، ورعاية فطرة الرجل وحاجاته الجنسية حين لا تستطيع المرأة تلبيتها في ظروف حملها ووضعها وحيضها ، وفي فرص مرض قد يطول عهده بها ، ويستهدف الاسلام به اكثار النسل الذي شرع الزواج من اجله ، واتاحة فرصة للزوج كي ينجب من غير هذه العقيم التي لم يشأ الله ان يرزقه ولداً منها ، واعرف رجلاً - اسمه على اسمي - في بلد من بلاد الفيوم في مصر لم يرزق اولاداً من زوجته ، فألحت عليه - وقد عيل صبرها - حتى تزوج ، ولم تلبث عروسه غير قليل حتى حملت ثم ولدت غلاماً ، واحتضنته الزوجة الاولى ، ولم يمض زمن حتى حملت هي الاخرى ، واستدار عام فاذا هي ام غلام ولله حكمته التي تدق على العقول والافهام!!

هذه بعض فوائد التعدد . ومنها ان الرجال من القلة بحيث يوازي عددهم نصف عدد النساء ، لما يتعرضون له من القتل في الحروب ، وفي الحديث : « . ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد »[2]

---

(١) المصدر السابق صفحة ١٥ .

(٢) صحيح البخاري جـ ٦ صفحة ١٥١ طبعة بولاق .

ولما يتعرضون له من الموت في ايام السلم من اجهاد العمل وتحمل مشاق الحياة، والنساء لا يستغنين عن العيش في اكناف الرجال أفيكون من الخير أن يشرع الاسلام التعدد وزواج الحلائل؟ أم يدع النساء فرائس الزنا وطرائد المخادنة؟!

٣- المنصفون يرون النور الذي خفي بيننا على ابصار:

ان السيد عبد الحميد الخطيب يورد كلاماً نافعاً عن التعدد في اليهودية والنصرانية قديماً وحديثاً، وعن وجوده في بعض الدول كتشيكوسلوفاكيا، وعن وجود جمعيات نسوية في المانيا وايطاليا تدعو- الآن- الى التعدد، ويقول:

ومما يذكره سماحة الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين ان كبار المسئولين في المانيا كانوا قد زاروه هو وبعض اخوانه من المسلمين في الايام الاخيرة للحكومة الهتلرية- اثناء وجودهم في المانيا- وقالوا لهم: لقد جئنا اليكم لتعاونونا بشريعتكم الاسلامية العظيمة التي ثبت لنا انها اعظم شريعة تحقق سعادة البشرية. اننا وضعنا مشروع قانون باباحة تعدد الزوجات، فانه يوجد عندنا ثلاث ملايين ارملة، رملتهم الحرب العظمى الاولى، هذا بخلاف غيرهن، واننا مقبلون على حرب لا ندري كم ستقضي على شبابنا ورجالنا؟! ووضعت حكومة هتلر مشروع قانون باباحة تعدد الزوجات، وصدرته بمذكرة ايضاحية تضمنت بحثاً مستفيضاً في الدفاع عن نظام تعدد الزوجات، ولكن الظروف العسكرية حالت بين الحكومة وصدور هذا القانون، ولكنها لم تحل بعد دون تكوين جمعيات نسوية تطالب بتعدد الزوجات!!

ثم قال السيد الخطيب «لقد نقلت روتر في ٨ ابريل ١٩٥٨ خبراً من لندن يقول: ان اربعة من كبار القسس بزعامة اسقف كانتربري- وهو من اكبر رجال الكنيسة البروتستنتية- قد اجتمعوا مع بعض الباحثين الاجتماعيين في لندن واصدروا قراراً دافع عن نظام تعدد الزوجات، وطالبوا باباحته للمسيحيين من اجل المصلحة العامة، ومصلحة النساء انفسهن، الامر الذي عالجه الاسلام من قبل مئات السنين، وقد سن له من النظم ما يكفل السعادة والخير العام للجميع».

ثم قال: فما بالهم يعيبون على الاسلام ما شرع من التعدد؟! وما للمرأة

المسلمة ان تطالب في وقتنا الحاضر بمنع تعدد الزوجات، وفي استطاعة كل امرأة لا ترضى به ان لا تتزوج بمتزوج، وليس هناك قوة في الارض تستطيع ان ترغمها عليه، وفي استطاعتها ايضاً ان تطلب الطلاق من رجلها اذا تزوج عليها، وتجاب الى طلبها، ثم هي تتحمل تبعة ما يترتب على ذلك »(١)

ويقول ايتين دينية «الجزائري المسلم».

«الواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر انحاء العالم، وسوف يظل موجوداً ما وجد العالم، مهما تشددت القوانين في تحريمه، ولكن المسألة الوحيدة، هي معرفة ما اذا كان من الافضل ان يشرع هذا المبدأ ويحدد، ام ان يظل نوعاً من النفاق المتستر، لا شيء يقف امامه، ويحد من جماحه؟!

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين - وذكر نفراً منهم - ان تعدد الزوجات عند المسلمين - وهم يعترفون بهذا المبدأ - اقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون انهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة، وليس ذلك بالامر الغريب على الفطرة البشرية، فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم في هذا».

ثم عاد يتساءل «هل في زوال تعدد الزوجات فائدة اخلاقية؟!

«ان هذا امر مشكوك فيه، فالدعارة تندر في اكثر الاقطار الاسلامية، وبغير التعدد سوف تتفشى فيها، وتنتشر آثارها المخزية، وكذلك سوف يظهر في بلاد الاسلام داء لم تعرفه من قبل ذلك هو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة، وقد ظهر ذلك فيها بنسبة مفزعة وذلك عقب الحروب(٢)

ويقول: «على أن نظرية التوحيد في الزوجة - وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً - تنطوي تحتها سيئات متعددة، ظهرت على الاخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر، جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة والعوانس من النساء، والابناء غير الشرعيين.

---

(١) تفسير الخطيب المكي جـ ٥ صفحة ٧٥- ٧٨.

(٢) كتاب «محمد رسول الله» صفحة ٢٠٧- ٢٠٩.

وان هذه الامراض الاجتماعية ذات السيئات الاخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الاسلامية تمام التطبيق، وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية وضرب المثل بقرية جزائرية اسمها « ميزاب ».[1]

٤- اما بعد.. فان اصواتاً تنبعث حيناً بعد حين معترضة على تعدد الزوجات وغيره من شرائع الله، ولو عقل هؤلاء حكمة الله فيا شرع، ما ابتغوا عنها حولاً، ولا ارادوا بها بدلاً، ولكنه الجهل وترديد ما يقول أعداء الاسلام الذين لم ينفذوا منه الى مثل ما نفذ اليه جوستاف لوبون فقال: «ان تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الاسلام، من افضل الانظمة واوفاها بأدب الأمة التي تذهب اليه وتعتصم به، واوثقها للأسرة عقداً، واشدها لآصرته أزراً، وسبيله ان تكون المرأة المسلمة أسعد حالاً واوجه شأناً واحق باحترام الرجل من اختها الغربية ».

ومن حسن الحظ ان كلام هؤلاء غير واقعي، فأين التعدد؟ ان نسبته لا تكاد تبلغ ٠٣/٠ ؟! فهل تساءل اولئك ان كانوا منصفين عن ضحايا الخلائل؟! ومهمتهن في رفع نسبة اولاد الزنا هنا وهناك؟!

(١) هامش كتاب « محمد رسول الله » ص ٢٣٧- ٢٣٨.

تحديد النسل

١ - الابناء من جلائل النعم..

الابناء والذرية من أنعم الله الكبرى التي يَمْتَنُّ بها على عباده « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ... »

وهما امنية الانبياء والمرسلين ودعوة المؤمنين، فابراهيم عليه السلام يقول: « ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ... »[١] « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي.. »[٢]. وزكريا يفزع الى ربه « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء »[٣] والمؤمنون يدعون ربهم بكرة وعشيا « ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين... »[٤] ومواضع هذه المنة ظاهرة في كتاب الله، فاذا عدنا من هذه الرحلة الى السنة النبوية المطهرة وجدناها تضع الأساس الصالح للأسرة الطيبة في قول الرسول: « تناكحوا تناسلوا تكثروا فالي مباه بكم الامم يوم القيامة »[٥].

« وهو توجه نبوي يستجيب له الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه، والذين يعلمون ان الآباء والابناء خلفاء عن الله في عمارة هذا الكون العظيم.

(١) سورة ابراهيم ٣٧.
(٢) ابراهيم ٣٩ وما بعدها.
(٣) آل عمران- ٣٨.
(٤) الفرقان- ٧٤.
(٥) الجامع الصغير جـ ١ صفحة ١١٥.

على ان الله جلت حكمته قد شرع الزواج لحكم واسرار، على رأسها حكمة التناسل والانجاب، ابقاء للجنس البشري، وجعل من فطرته التي فطر عليها الرجل والمرأة باعثاً مستحثاً على هذا الاصل.

والامام الغزالي- رائد علوم الاجتماع والاخلاق- يضرب في ذلك مثلاً، فيقول في الاحياء:

« سيد اعطى عبده بذراً، وآلات حراثه، وأرضاً صالحة للزراعة، ووكل به رقيباً يستحثه، فان تراخى العبد في الحرث والزرع، ونحى ذلك الوكيل الدافع الملح، فقد استوجب غضب سيده وابعاده.. والله تعالى خلق الزوجين الذكر والانثى، وزود كلا منهما بخواصه وجعل الشهوة تدعو المرسل والمستقبل الى اظهار حكمة الله في كثرة النسل كما قال الرسول:

والذين يمنعون النسل- كالذين لا يتزوجون- كلاهما معطل لسنة الله التي قد خلت في عباده، مفوت للغرض الآلهي الذي كتبه الله بخط رباني على اجهزتنا البشرية « .. ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[٢] قاطع للحبل الذي تواصل به الناس من عهد آدم، وسيصلهم أبد الدهر!!

والاولاد زينة الحياة الدنيا- كما قال الله- وهم- ان نحن أحسنا تذكيرهم بالله، واعدادهم للحياة- في موازين حسناتنا يوم القيامة، ولقد كان سلف هذه الامة يحبون ان يكثر عيالهم، وكان الخليفة عمر الورع العادل يكثر التزوج ويقول « والله ما اتزوج الا ابتغاء كثرة الولد »! وكان الرجل لا يعظم في الجاهلية حتى يكون أباً لعشرة أولاد يحملون السلاح، ويحمون الذمار.. وقصة عبد الله وافتدائه بعد أن اكتمل لأبيه عبد المطلب عشرة أولاد، قصة سائرة في الناس!!

٢- في حدود الضرورات

والاسلام لا يقر تحديد النسل كمبدأ، وقاعدة عامة لا يسع الناس المحيد عنها، ولكنه يبحيه في حدود الضرورات، وإنك لتجد الله تعالى قد جبل المرأة

---

(١) طه- ٥٠.

على الحيض والنفاس وهي فترات لا تتأهل المرأة فيها لوقاع الزوج، وذلك اعداد النهي هو أشبه شيء بالتوجيه إلى تنظيم النسل لا تحديده ومنعه اللهم إلا أن يكون ضرورة تسلم بها الزوجة من مكاره يقينية ومخاطر لا ريب فيها...

وما دام الناس يتفاوتون في واقع الحياة قوة وضعفاً، وغنى وفقراً، فان الاسلام.. وهو الدين الذي يعتبر ظروف الناس- لا يرهق الزوجة من امرها عسرا- ولا الزوج كذلك- حين تلح بأحدهما علة او يفدح داء، ومبدأه الراشد في ذلك «ما جعل عليكم في الدين من حرج»[1] «ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة»[2].

فهو يبيح التحكم في النسل، وتحديده، بل ومنعه عند الداعية القاهرة، وهو يجيزه من اجل الاولاد الصغار الذين يعرضهم للاهمال حمل امهاتهم بعد شهور قليلة من ولادتهم!! وقد جاء رجل، الى رسول الله صلوات الله عليه فقال: اني اعزل عن امرأتي.. فقال له النبي: ولم تفعل ذلك؟! فقال الرجل: اشفق على ولدها- او اولادها- فقال النبي: لو كان ضاراً ضر فارس والروم[3].

والعزل الذي اشار اليه الحديث طريقة في منع الحمل وتنظيمه، وقد استحدث الطب الحديث وسائل تدني من الغاية، وما أكثر ما يأتي معها ما كتب الله من اولاد، وقد واجهنا ذلك عن كَثَبٍ، ولا معقب لحكم الله![4]

والاسلام يجيز العزل وتنظيم الحمل ومنعه، للمرأة التي تلجئها الحياة للعمل، فيستصعب عليها القيام به مع الحمل. روى جابر (ض) «ان رجلاً اتى النبي (ص) فقال: ان لي جارية هي خادمتنا، وسانيتنا في النخل- ساقية الماء

---

(١) الحج- ٧٨.
(٢) البقرة ١٩٠.
(٣) كشف الغمة جـ ٢ صفحة ٧٨.
(٤) كتبت بحثا مستقلا اسأل الله أن يعين على ظهوره في موضوع «الاسلام وتحديد النّسل» بطلب من رياسة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٥ م وعسى الله أن يعين على نشره وللعلامة الودودي كتاب «مشكلة تحديد النسل وهو من اجود ما قرأت.

من البئر - وانا اطوف عليها واكره ان تحمل، فقال: اعزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما قدر لها »[1].

وللفقهاء خلاف في العزل عن الحرة والأمة، فللرجل ان يعزل عن الامة قولاً واحداً، ويعزل عن الزوجة الحرة برضاها - عند الاكثرين - ولا يشترط الشافعي رضاها، ما دام الزوج يرى في العزل مصلحة..

وكان اولى بالدعاة الى فتح باب تحديد النسل على مصراعيه باسم ضآلة دخل الفرد، وانحطاط المستوى الاجتماعي، والفقر الذي بحت بالشكوى منه حلوق، ان يعملوا على النهوض باقتصاديات البلاد، واستغلال القوى المعطلة فيها قبل أن يروحوا بملام حافظ ابراهيم.

أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على ارض من الذهب ؟!!

★★★

ويا عجباً إن الذين يزينون إلينا « تحديد النسل » وتقذفون إلينا بالحبوب والأدوية والآلات التي تعين على تحقيق رغبة الأقوياء في ضآلة عدد المسلمين بخاصة، ولو إنهم مدّوا الدول النامية بأثمان هذه العقاقير والوسائل والنفقات الباهظة التي يصيب منها غير المسلمين نصيب الأسد مادياً ومعنوياً إذ أنهم يعملون بجدية في ميادين تحديد النسل ويدعون قومهم غير المسلمين - إلى تكثير النّسل فيما بينهم ليتحقق بخطط أن يكون عددهم كذا وكذا من السنوات.

ان الذين ينفقون في هذا السبيل بلا حساب، يقولون أمر الدعاية لأطفال الأنابيب والمسألة ممكن أن تكون حقيقة علمية، لكن الحياة في الحيوان المنوي والتأهل للإخصاب في البويضة من عمل الله. لا من عمل هؤلاء ثم ما حاجتنا إلى « طفل الأنبوب » إلا أن يكون على نحو ما ذكرت من أبوين معلومين ويا للترف العلمي الذي يفتح أبواب الشر على مصاريعها.

٣ - قلة الاقوات خرافة

ان ذخائر ارضنا الطيبة تتكشف أمام المنقبين عنها رويداً رويداً، وما تزال المساحات الشاسعة من الأراضي البور ترد الطرف في صحاري مصر

(١) كشف الغمة جـ ٢ ص ٧٨.

وجوانب سوريا وجبال لبنان وسهوله، وهذا النيل العزيز في الجمهورية العربية المتحدة يتلقف البحر الأبيض من مياهه العزيزة كل عام ما لو ضاعفنا عليه الأيدي، وعملنا على الاستفادة منه بحماس الداعين الي تحديد النسل- كما جاءهم من اوروبا التي تعمل في بعض اقطارها على زيادة النسل الآن- لأحلنا فقرنا غنى، وملأنا أعطاف الأرض الطيبة بالخير والبركة والحياة..

يقول ا. كريسي موريسون في معرض التدليل على أن العلم يهدم خرافة قلة الأقوات، وعدم كفاية المأكولات لبني الانسان كلما تراخى الزمان..

«ان النتائج الخلقية التي تنجم عن الاضطرار الى نقص عدد سكان الأرض، كي يبقى بعضهم على قيد الحياة هي افظع من ان يتصورها الانسان، وقد أمكن تفادي هذه المأساة في نفس اللحظة التي كان يمكن توقعها فيها »[1].

ولكن الذين لا يريدون ان يعملوا، لا يحبون ان يهيئوا بصمتهم فرص العمل للذين تدعوهم عقيدتهم للعمل، وتعتبره ثمرة الايمان الذي لا يبالي الله بالة بسواه، وتعتبره سبيل النصر، وطريق العزة في الدنيا والآخرة «من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[2] «والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[3].

ولو اننا استجبنا لهؤلاء، لكنا الامة الصغيرة بين الامم التي تقاس عظمتها بثرواتها وافرادها على السواء!! فالأفراد في الامم ثروة تشكل جيش الانتاج الداخلي، والجيش الساهر للاعداء المتربصين بنا عن يمين وشمال!

وكنا- أخيراً- لقمة سائغة تستطيع اسرائيل- التي تكثر عددها وتغرى بالهجرة اليها- أن تزدردها في عشية او ضحاها، ويأبى الله ذلك والمؤمنون الذين يفهمون منة الله في قوله: «والله جعل لكم من انفسكم ازواجاً وجعل لكم من

(١) كتاب «العلم يدعو للايمان» ص ٧٨.
(٢) النحل ٩٧.
(٣) سورة العصر.

ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون »[1]؟!

والأمة الوارثة تعلم أن دينها يوجب عليها الفطنة واليقظة وأن لا تنخدع بكيان اسرائيل التي ما عرفت عبر الحياة لبني عهدا ولا لأحد ودّاً. وأن لا تغرى بما يزخرفه الصارخون يدعون « تحديد النسل » فأنها داء لا دواء كما قال أحد العلماء ومن كان له عين فليبصر ما حوله ومن حوله!! ومرة أخرى، فإن من الحماقة أن يدعو أقوام الى « تحديد النسل وأن يباهى آخرون بطفل الأنبوب » وهن قصاصات تدل على جهل الناس بأن الله صد وحده الخلاف وأنه شرع الزواج حتى لا تختل الأنساب وتنقطع الأرحام.

(١) النحل ٧٢.

« بين الشيخ والخوري »

ليس عجيبا أن يتناول الأستاذ رفيق الخوري كتابي « الاسلام والأسرة » بالنقد، كما فعل في عدد ٦٣٥ من مجلة « الأحد » فالنقد البصير بناء وتنوير، ودفع رفيق الى الكمال!!.. وإنما العجيب أن يحرف صاحبنا الكلم عن مواضعه فيما كتب، وان ينسى ان أمانة القلم الذي أقسم الله به، وشرف الكلمة التي قامت بها السموات والأرض، والتجرد من الأهواء الخاصة من أول ما ينبغي أن يوصف به الذين يتطاولون للحكم على أعمال الآخرين، وبخاصة إذا كانت مقدسات لا ينقصها الدليل على أنها من وحي الله الذي يعلم من خلق، ومن شرائعه التي ترتفع بالحياة عما يريده الغواة، وتعلو بالإنسان إلى منازل الكرامة التي كتبها له الله..

.. وتسويد صفحات - كيفما اتفق - في مجلة أو كتاب، ليس أمرا صعب المنال على طلاب الخبز والحطام من أيسر طريق، وحملة الأقلام قد يكونون دعاة شرور وآثام، حين يخطون بها ما يفوق سبر الاصلاح ويغيِّر وجه الحق، وهم - بهذه الصفة - كالذين قال الله فيهم « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ وان هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »..

فليتصور الاستاذ الخوري - كما تصور في مقاله - أن يجلس في المقاعد الخلفية في سيارة أو سينما، فذلك مكانه، وهو أحق به وأهله، وسواء على الحق بعد ذلك أن يبصر الطريق أو تشتبه عليه وجوه النظر، فما هو بأول من رمى قلعة

الاسلام بحجر، ولا أول من ظن أنه يستطيع أن يخفي بكفه وجه الشمس أو طلعة القمر.. وليس من العسير أن تسخر من غيرك، أو تستهزىء بسواك، أو تظنه كذبا وغرورا- انك على شيء من القلم، وحظ من الفهم. ولكنَّ كرام الناس لا يسخر بعضهم من بعض، ولا يزيدهم الفقه والادراك إلا تواضعا للناس، وانصافا للفضيلة، واستبشارا بأشعة النور التي يرسلها الاسلام بعد الأديان السماوية الكريمة على مسالك الحياة!!

.. والأستاذ الخوري كاتب هادىء الطبع، وديع النفس، خفيض الصوت، تأذن له وهو يتحدث من فرط رقة حديثه فن الأدب والحياة، ولكنني عجبت- مرة أخرى- لأنه ابتدع لي مقاله عن «الاسلام والأسرة» منهجا في النقد غير سوي، وما أحسب أحدا يقره على نقد مفاهيم وقيم لا يدركها بوجدانه الخاص، وثقافته التي لا تؤهله لمناقشة مقررات دينية أبدية خالدة أرسى قواعدها الله الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى، وجعلها صالحة للحياة منذ أوحاها إلى رسوله وإلى قيام الساعة..

والطريف في أمر الاستاذ الخوري الذي يرمق الناس من المقاعد الخلفية في سيارة أو سينما، أنه تقمص- بجدارة- شخصية الخوري سمعان- الذي ضربه مثلا- وأنه حمل مثله الشيطان الجريح على ظهره- شيطان توخى الأخلاق، وخلخلة المبادىء، وتقبُّل الأفكار الوافدة التي لم يصلح عليها أمر من استوردت منهم- ليأكل به خبزه، مع الشياطين الآخرين الذين تضيق صدورهم بحرص الاسلام وسهر أهله على الطهر والفضيلة، والذين تغلي مراجل أحقادهم حتى تفيض سوادا يكون مدادا دائما لأقلام الذين يقولون «إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»

هؤلاء يتواطئون مع وطاويط الليل في بعولاتهم الصحفية، ونواديهم التي يبيض فيها الشر ويفرخ، على تحطيم قيود الآداب التي لا بد منها للحياة الراشدة، فالحياة في نظرهم صحراء قاحلة إذا لم تفد فيها المرأة عارية من الدين ومن الثياب كذلك، واذا لم تبد هينة لينة لا ترد يد لأمس، ولا تستعصي على انسان- استغفر الله- على شيطان يحيا لشهواته، وان كان بعد ذلك الطوفان...!

.. ان الاسلام الذي يقول كتابه « **اوفوا** الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين.. » إنما يعبر بذلك عن النبع الأصيل الذي صدرت عنه الأديان السماوية، وهو في ذلك وفي غيره يوائم الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويتفق والأخلاق الفاضلة التي لا تخلو من بعضها أمة في شرق الدنيا أو غربها.. فكيف لم يأخذ الأستاذ الخوري نفسه بهذا الأدب، وهو يتناول الأبواب التي جعلها موضوع حديثه عن كتابي؟!

ولعل تعليقه على ما قلت في « التربية الجنسية » هو من اقرب ما كتب الى الانصاف، لولا قوله « ولكن.. ألم يكن من الضروري أن يفرق الشيخ بين الكتب الجنسية الرخيصة التي تتملق الغرائز ويأباها الذوق الرفيع، وبين الكتب العلمية التي تبحث في الجنس...، ولقد فعلت، ولكن ما حيلتني فيمن يصدرون أحكامهم على أقوال لم يأخذوا منها غير خطفات لا تعين على حكم صحيح؟! وإلا ففيم تساؤله « ما حصر هذه المعلومات في نطاق الشرائع السماوية؟! وفيم تجاهله أنني قلت في ص ١٣٢ « لقد قرأت الكثير من الكتب التي تستهدف شرح أجهزة الجنس للرجال والنساء بصورة علمية مجردة عن الفحش وسوء القصيدة ووديت- كي يبلغ بها الناس كريم ما أراد كتابها- أن نعيد الايمان إلى مكانه من قلوبنا، وان نعلي قدر الدين في جميع اتجاهاتنا وان نعلم اننا بدون الفضائل التي جاء بها الاسلام سنكون كمن يبني على الرمل..... »!!

.. ويقول الاستاذ الخوري « أنني أحجم على الطرق العلمية لتحديد النسل، وأنني أوردت في الموضوع رأيا غريبا ولكنه لطيف ثم يدع المجال لصاحب الكاريكاتير ليعطي الفرصة للذين يحبون أن يتأكدوا كيف يفكر ويحس ويشعر أدعياء المعرفة والفن!

وليت الكاتب والقارىء يعودان إلى قراءة « تحديد النسل » من كتابي ليستبينا أينا على هدى ومن هو في ضلال مبين؟!

.. وأود- يا قارئي العزيز- أن تعود إلى قراءة ما صدرت به بحث « عمل المرأة » فسترى أنني أتصفت- باسم الاسلام- المرأة التي تعمل إن حرمت

الكافل، أو احتاجت الحياة نفسها إلى ما تحسن من عمل، لا يحسنه مثلها الرجل..

وأشهد- وليسمع الأستاذ الخوري- انني قلت في ص ٣٤ «وانها لظاهرة شديدة الخطورة تلك التي تتفتح فيها الأبواب للمرأة، وتوصد في وجه أخيها الرجل، حين تتماثل وسائلها التي لا تتماثل إلا في النزر اليسير» وقلت

«وما نغمط بذلك الفرائد اللواتي فتحن أبواب المجد بثقافتهن وتصونهن عن مظاهر التبذل، وبيننا ممن يرفعن رؤسنا إعزازا وإكباراً كثيرات سيذهبن بمزيد الثقة ما دمن يؤمننَّ بإخلاص الذين يذكرونهن لوصايا الاسلام وتعاليمه بكل حال!!» واذا كان ذلك لا يرضى الذين ينتدبون أنفسهم للنواح على ما ويقول الكاتب «وتقدمية الشريعة الاسلامية هي النقطة الاولى التي يعارضها الشيخ معوض بإلحاح دون أن يدري!

«والتقدمية قد تصبح رجعية إذا لم تستمر في تفتحها الدائم على تطور الحياة والزمن، وإذا لم تستلهم هذا الواقع الجديد فتنسجم معه، وتخلق مقاييس صالحة له..»

وهذا كلام مفرق في الخطأ- فأنا حريص على جلاء وجهة نظر شريعة الله التي جعلها شريعة حياة لا تقعد بالناس عن خير، ولا تردهم عن صلاح، ولكنها تكبح جماحهم، وتهذب أرواحهم، وتذكرهم بانسانيتهم دائما، وتردهم إلى مثل قول الكتاب الخالد «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون......»

ثم أي تطور يا أستاذ رفيق تبشر به وتدعو اليه وتريد أن تسحبه على أحكام الله؟ ولو أنك حاولت أن تزيد أو تنقص أوتتخايل على الدستور اللبناني لأوخذت على ذلك بلا هوادة! إن الذين «يطورون» آداب الاختلاط، وآداب الثياب لا ينتبون أن يطوروا الصلاة والصيام والصدق والأمانة وحب الوطن بما لا تبقى معه عقيدة، ولا تدوم فضيلة، ولا يأمن من أعدائه وطن..

أي تطور تدعو اليه؟! لعلك تريد مزيدا من العرى والاختلاط، لا على

البلاج وفي الكازينو والسهرات التي يقهقه فيها الشيطان حتى الصباح، ولكن مزيدا من ذلك في دور العلم ومجالس الحكم يسمونه « حقوق المرأة » فعاصم يرجوه الى تقرير مدير ديوان الموظفين في انتاج المرأة العاملة!! وعاصم يراجعون قرار هيئة البريد بوقف تعيين الثبات فيها ابتداء من اليوم لما قالت الاخبار في ١٩٦١/٧/٢ لهبوط انتاجهن بصون تهدد مصلحة العمل!! وزحمة الحياة، لأن عبير الغرب لا يطيقون الحرمان مما استفاض هناك.. واسمع- ان مستشار ابي الاستاذ محمد أسد يقول في كتابه «الاسلام على مفترق الطرق» الذي ترجمه الدكتور فروخ ص ٧٥

« نحن نعتقد، والتطور الحديث في الغرب يثبت هذا الاعتقاد أيضا، بأن الأخلاق في الاسلام وخصوصا في ادراكها للسلوك الاجتماعي والشخصي وللعدل والحرية إنما هي اكثر وأحسن كمالا من المدنية الغربية »..

ويغالط الأستاذ الخوري وهو يعلق على موقف الاسلام من العمل في كتابي فيقول « وهل نستطيع اليوم أن نطالب المستعمرين في افريقيا أن يعاملوا العبيد كما طلب الاسلام السادة أن يعاملوا عبيدهم ونظل تقدميين »؟!

.. شيئاً من الصمود واليقظة قبل أن تجرى أقلامكم- أيها الكتاب- بمثل هذا الكلام الذي تفوح منه روائح الغيبوبة، واذا كان ولأول للتقدمية فولاؤنا لله دائما وان تظلون ثم.. ما بك وما للناس الذين تشدهم عقيدتهم دوما إلى العصر الاسلامي الأول؟! أنت حر في أن تتحدث كما يحلو لك عن البابا وغيره، **أما نحن فسنظل مسلمين، وإن تمزقت صدور الذين يودون ما لا يكون من** انسلاخنا عن الاسلام مهما استعان أعداؤه على ذلك بوسائل ووسائل، ايمانا بدين قال الله فيه « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » واقتناعا بمثل قول محمد أسد ص ٤٩

« أما أن يخطو المسلمون إلى أبعد من ذلك- أي أخذ بعض العلوم المجردة والعلوم التجريبية من الغرب- وأن يقلدوا المدنية الغربية في روحها وأسلوب حياتها وفي تنظيمها الاجتماعي فهو المستحيل إلا اذا سدّدت ضربة قاضية إلى

الاسلام كدولة الهية وكدين عملي » ولا قبل لأحد بتسديد هذه الضربة لدين كتب الله الخلود!

.... وأين طالبت المرأة بالعودة إلى الحريم؟! اركان ذلك حين أجملت رأيي في عمل المرأة وتركت لغيري فرصة الاعراب عن آرائهم في ذلك؟! وقد يكون من المفيد أن أذكر أن صديقا مسيحيا قال لصديق لنا «انني آخذ على الشيخ معوش أنه جامل المرأة كثيراً.. فقلت له: كلا والله ما أعطيتها شيئا لم يعطه الاسلام لها، ولا منعتها حقا خوله إياها.. ومن أنا حتى أفتات على الاسلام وأقول ما لم يقل.؟!

.. ويورد الأستاذ الخوري رأيا نقلته عن الأستاذ سيد قطب عن عمل المرأة في الخارج ثم يعقب قائلا « وسيتبادر الى ذهنك نورا أن السيد سيد قطب غريب عن علم اسمه الاقتصاد السياسي »

فهل يكون غريبا من لم يدرس هذا العلم في جامعة دمشق وإن كان قد درسه وغيره في أميركا وفي الاسلام الذي سبق مكتشفي هذا العلم الى مقرراته بأجيال واجيال؟!! وامض من ردى على الاستاذ الخوري ههنا عند هذا الحد.

حقوق مقدسة

١ - بر الوالدين

بر الوالدين من الفروض المؤكدة، وعقوقهما من الكبائر، وحق الآباء في الاحسان مما يؤكده العقل، وتحتمه المروءة- فضلاً عن وازع الدين- وقد مضت الحياة من ازلها، وستبقى الى ابدها، وهي تحض عليه وتدعو اليه، لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها! ولانه حق رفعه- جل شأنه- الى مستوى حق عبادته، وقرنه بها في اكثر من موضع من كتابه الكريم قال تعالى في آية الحقوق العشرة «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخوراً» وقال «وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً إما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما أُف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً..»[٢]

قال الامام النسفي في تفسيره لهذه الآيات من سورة الاسراء «وقد بالغ سبحانه في التوصية بها حيث افتتحها بان شفع الاحسان اليهما بتوحيده ثم ضيق الامر في مراعاتها حتى لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر، ومع احوال لا يكاد يصبر الانسان معها»[٣] وفهم عطاء رضي

(١) النساء: ٣٦. وقد تناولت الآيات بالبسط كتابي «قبس من الاسلام».
(٢) الاسراء: ٢٣- ٢٤.
(٣) تفسير النسفي حـ ٢ صفحة ٢٤٠ طبعة الحلبي.

الله عنه من النهي عن كلمة « أُف » قوله « ولا تنفض يديك على والديك « ولا تنهرهما ، باغلاظ القول لهما »[1] وابن كثير رحمه الله يقول فلا تسمعهما قولا سيئا حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء يقول صاحب « الظلال » رحمه الله في قوله تعالى فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ، ألاَّ يَنِدَّ من الولد ما يدل على الضجر والضّيق ، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب ». ورحم الله من قال لو كان هناك واحدا قل من « أف نهى الله عنه وحذر منها ».

ولقد جعل الله شكر الشاكرين لأنعمه لا يتم على خير وجوهه حتى يمازجه شكر الوالدين فقال « ان اشكر لي ولوالديك الي المصير »[2] فدين الوالدين لا يوفيه شكر ولا يحصيه ذكر ، فطالما تعبوا من اجلنا ، وكافحوا لإسعادنا ، وسهروا الليالي- ونحن صغار- حول مهادنا يغمر نفوسهم بالرضى ان تلين المضاجع لجنوبنا ، ويثير قلقهم ان ينبو بنا الفراش ، او تبدو علينا مظاهر القلق ، ولا يجد النوم الى جفونهم سبيلاً حتى يستولي علينا الكرى ويغلبنا سلطانه الرحيم ، وكما جاعوا لنشبع ، وجادوا بالشيء احوج ما يكونون اليه ليضاعفوا غبطتنا ويزيدوا بهجتنا؟! وكم دربونا على ما ينبغي للحياة من حيلة ووسيلة بين المصانع والمتاجر والمدارس وفرحوا بما نصيب من أنعم الله واعتبروها من انعم تعالى عليهم؟

٢ – الأم : ومهما نسينا فما ينبغي ان ننسى هذه الأم ، التي حملتنا تسعة اشهر ، نتقلب بين احشائها في ظلمات ثلاث « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فاني تصرفون »[3] فتقرُّ حركتنا هنالك عينها ، وتهفو نفسها الى اللحظة التي تحفها فيها المخاطر ، وتختلجها فيها من شتى جوانبها الآلام ، وهي تدفعنا الى فسحة الحياة ونور الوجود !!

(١) الف با حـ ٢ صفحة ٤١٠
(٢) لقمان : ١٤ .
(٣) الزمر : ٦ .

هذه الام التي ارضعتنا الاشهر ذوات العدد، رحيقاً خالصاً من درها، دون ان تمن بخير او تظن بمعروف، وهي- مع هذا وغيره- دوحة الاسرة الكبيرة، وفردوسها الذي نتفيأ ظلاله في جميع مراحل حياتنا، آمنين من مزعجات الايام وهجيرها اللافح، والأب في ميادينه العامة، يعمل جاهداً في طلب الرزق، وتحصيل قوت هذه الاسرة التي هو كافلها ورجلها المؤمل!!

ان اي بر لا يؤدي لوالدينا حق الشكر، ولا يوفيها بعض الاجر، بل قصارى ما يبلغ اجتهادنا في ذلك لا يكون غير اعتراف بالجميل، للذين يزكو عندهم الاحساس الكريم، والشعور بان قليل ما نبذل لهم، ويسير ما نقدم اليهم، إنما هو كثير جزيل!

ولقد جاء رجل الى رسول الله يستأذنه في الخروج للغزو، فسأله: هل من والديك احد حي؟ قال: كلاهما. فقال- صلوات الله عليه- ففيهما فجاهد. اي ابلغ جهدك في برهما والاحسان اليهما فذلك يقوم لك عند الله مقام الجهاد في سبيله »[١]

وحين سأل صحابي رسول الله « من احق الناس بحسن صحابتي؟ قال: امك. قال ثم من؟ قال امك. قال ثم من؟ قال امك. قال ثم من؟ قال ابوك. »[٢]

فأشار النبي بالصديق الذي لا يغش، ولا يخدع، ولا يخون، ولا يغضب الا حين ينضب معين الصبر، وهو مع غضبه لا يسمح لعزائم السوء ان تجد الى قلبه سبيلاً. انه الام التي يقول لسان حالها:

أدعو عليـــــه، وقلـــــبي يقول. يـــــا رب: لا. لا!!

والحديث- وأشباهه من مثل قول النبي « الجنة تحت اقدام الامهات-[٣] يلفت الانظار الى صور جميلة رائعة تبرز في القرآن مزيد ما استهدفت له الام من شدائد ومشاق، وما وهبت من عواطف كريمة في مراحل حياتنا، قال تعالى

---

(١) المنذري جـ ٣ ص ٥١٤.

(٢) صحيح البخاري جـ ٨ ص ٢ طبعة بولاق.

(٣) المنذري جـ ٣ ص ٣١٦ بلفظ « ان الجنة عند رجليها » ابن ماجة والنسائي.

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن.. »[1] وقال « ووصينا الانسان بوالديه احساناً حملته امه كرهاً ووضعته كرهاً » ثم تجلو لنا الآية صورة فذة لابن بار، فيقول تعالى « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحاً ترضاه واصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين، اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في اصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » ثم تتابع الآيات في بيان ولد عاق لوالديه وما يقول، وما يقال له وما يبوء - آخرة الامر - به « والذي قال لوالديه أُفٍ لكما اتعدانني ان أُخْرَجَ وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين. اولئك الذين حقَّ عليهم القولُ في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين »[2]

وفي السُنَّة ان علقمة كان يعاني سكرات الموت، واصحابه يلقنونه الشهادة، فلا ينطلق بها لسانه، فأخبروا الرسول بخبره فسأل أمه عنه، فذكرت صومه وصلاته وعبادته، فقال ما عن هذا سألتك، ولكن كيف بره بك؟ فقالت يا رسول الله إنِّي عليه ساخطة واجدة، فقال ﷺ لأصحابه، غضب امه عليه عقد لسانه عن لا إله إلا الله. ايتوني بحطب أحرقه - وكان الرسول يريد أن يحرك فيها عاطفة الاحسان والغفران - فقالت: ابني وحشاشة قلبي تحرقه يا رسول الله؟ فبين لها ان النار مثواه إلا ان ترضى عنه، فأشهدت الله ورسوله من فورها انها **عفت عنه، فعاد الصحابة الى علقمة فسمعوه يفيض بالشهادتين لسانه!!.»[3] وقال الرسول « الحمد لله الذي انقذه بي من النار ».**

ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة.

إن البويضة بمجرد تلقحها بالخلية المنوية تسعى للإلتصاق بجدار الرحم.

---

(١) لقمان: ١٤

(٢) الاحقاق: ١٥ - ١٨.

(٣) ذيل تفسير الكشاف للزمخشري في تفسير سورة الاسراء والف با جـ ٢ ص ٣٥٥.

وهي مرودة بخاصية أكالة تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأم الى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات، وتمتصه لتحيا به وتنمو وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتصّ لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول وفي فترة تكون عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم، فتفتقر إلى الجير، ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم، ليقوم به هيكل هذا الصغير، وهذا كله قليل من كثير!!

٣ - الاب:-

واذا كانت الام قد ذكرت بخاصة بعد دخولها في عموم آيات البر، فان الآباء ملحوظو القدر في حق الاحسان والطاعة، فهم المخاطبون بالمسئولية عن الاسرة ورعاية شأن الأمهات والأولاد، وقد قال الحسن: « حق الوالد اعظم وبرُّ الوالدة ألزم ».

شكا رجل الى النبي ﷺ أباه، فقال انه اخذ مالي، فدعا به النبي فاذا هو شيخ يتوكأ على عصاه وكان الرجل قد آلمته شكوى ابنه فخاطب نفسه بكلام لم تنفرج عنه شفتاه، ولم تسمعه اذناه، ونزل جبريل الى الرسول يأمره ان يسأل الرجل عما حدث به نفسه قبل ان ينظر في شكوى ابنه، فلما سأله قال الرجل: والله لا يزيدنا الله بك الا إيماناً وتصديقاً. لقد قلت: اناجي ابني:

غذوتك مولوداً ومنتك يافعاً تعلُّ بما اجني عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم ابت لسقمك الا شاكياً اتململ
كأني انا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني، فعيناي تهمل
فلما بلغت السنَّ والغاية التي اليها مدى ما كنت فيك اؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة كأنك انت المنعم المتفضل

حتى قال

فليتك اذ لم ترع حق ابوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل!

واغرورقت عينا الرسول بالدمع، وقال الرجل:

« ان ابني كان ضعيفاً وانا قوي ، وفقيراً وانا غني ، فكنت لا امنعه شيئاً من مالي ، واليوم انا ضعيف وهو قوي ، وانا فقير وهو غني ، وهو يبخل علي بماله . فبكى الرسول وقال « ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى » ثم قال للولد « انت ومالك لأبيك »[1]

وصنيع الأبناء بالآباء غرس يؤتى أكله غداً ، عسلاً رضاباً ، او علقماً وصاباً ، حين يجزينا ابناؤنا بما عملنا ، والرسول صلوات الله عليه يقول « بروا آباءكم تبركم ابناؤكم »[2] وفي واقع الحياة شاهد ذلك ودليله فانظر في نفسك وفيما حولك !

ولن يرضى الله عن الابناء ، ولن ترتفع عباداتهم فوق رؤسهم شبراً ، حتى يرتفعوا بانفسهم عن مهاوي الجحود والقسوة والخلاف عن امر الوالدين فرضي الله في رضاهما وسخطه في سخطهما » ، وقد رأى ابو هريرة رجلاً ومعه آخر ، فسأله عنه ، فقال : هو أبي ، قال ابو هريرة : فلا تمشي امامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تدعه باسمه ، ولا تستسب له » اي لا تعرضه للسب بسب الآخرين » والرسول يقول « ان من اكبر الكبائر ان يلعن الرجل والديه قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال يسب الرجل ابا الرجل ، فيسب اباه ويسب امه »[3] وعقوقهما من موجبات اللعنة - وهي اشد ما عنون الله به على غضبه - وفي السنة المطهرة شواهد ذلك . .

٤ - البر شيء هين :-

وهو اهون ما يكون اذا اسديناه للوالدين ، اللذين يعظم عندهما اليسير ، ويثلج صدريهما - في الحياة - البذل الممكن ، وينعش روحيهما - وهما في جوار الله - ان نود من كانا يودان ، ونبرَّ من كانا يحبان ، ونصل ارحاماً وصلانا بها « واتقوا الله الذي تساؤلون به والارحام . . »

---

(١) في الكشاف وذيله في تفسير سورة الاسراء ، وهو عند الضبران من الصغير !! وحديث « انت ومالك لأبيك » في الشوكاني جـ ٦ ص ١١ .

(٢) المنذري جـ ٣ ص ٣١٧

(٣) المنذري جـ ٣ هامش ص ٣٢٢ .

قال مالك بن ربيعة. بينا نحن عند رسول الله - ﷺ - فجاءه رجل من بني مسلمة فقال: يا رسول الله هل بقي من بر ابوي شيء ابرهما به بعد وفاتهما »؟! قال نعم. الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما، واكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما »[1]

وقد تحفى عبد الله بن عمر في بعض اسفاره برجل لقيه فاعطاه قلنسوته وعرض عليه بعيره او فرسه. وكان يتروح عليهما، فسأله غلامه في هذا. فقال « ان هذا كان وداً لعمر واني سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان ابرَّ البر صلة الرجل اهلَ ود ابيه بعد ما تولى »[2]

وحق الوالدين في البر لا يرفعه شيء، ولا يمنع منه اختلاف دين، فهو حتم لزام في حدود الاصل العام « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[3] قالت اسماء بنت ابي بكر.. قدمت امي وهي مشركة، فاستفتيت رسول الله فقلت: ان امي قدمت وهي راغبة. قال صلي امك » قال ابن عيينة فأنزل الله فيها « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين.. الآيات »[4] وقيل انه نزل في سعد بن مالك وموقفه من امه التي آلت على نفسها الا تأكل او تشرب او تستظل حتى تموت او يرجع سعد الى الشرك بعد ان هداه الله للايمان فقال « لو ان لها مئة نفس تموت نفساً نفساً ما رجعت الى الشرك » فنزل قوله تعالى « وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من اناب إلي، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » **فأوجب برهما وان لزما الشرك.. فكيف بهما وهما على الايمان والحق؟!**

٥ - بردة اتقياء!

ولقد حفل تاريخ الاسلام بصور رائعة لابرار بوالديهم، فكان علي زين

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حديث رواه احمد والحاكم.

(٤) الف با حـ ٢ صفحة ٤١٠ والآيات من سورة الممتحنة ٨ - ٩. وانظر كيف التفسير وأسباب النزول -

العابدين- على ما استفاض من انباء بره بامه- يتحامى ان يأكل معها في اناء واحد، ويقول: «اخاف ان تمتد يدي الى ما سبقت اليه عينها، فاكون قد عققتها»!

واقرأ الصحيفة السجادية للامام زين العابدين في فصل «دعاؤه لأبويه عليهم السلام» او فصل «الولد البار» من رسالة مفاهيم انسانية «للعالم الجليل الشيخ محمد جواد مغنية، فالرسالتان فائقتان في هذا السياق قال الشيخ محمد جواد بعد ان اثبت كلمة للامام جعفر «ومن الذي يقرأ قول الامام- زين العابدين» اللهم اجعلني اهابهما هيبة السلطان العسوف وابرهما بر الام الرؤوف، واجعل طاعتي لوالدي، وبري بهما اقر لعيني من رقدة الوسنان، واثلج لصدري من شربة الظمآن، حتى اوثر على هواي هواهما، واقدم على رضاي رضاهما، واستكثر برهما بي وان قل واستقل بري بهما وان كثر» ثم يتابع الشيخ جواد بعد تعليق نفيس، اثبات كلام الامام «اللهم وما تعدياً عليَّ فيه من قول، او اسرفا علي فيه من فعل، او ضيعاه من حق، او قصرا بي عنه من واجب، فقد وهبته لهما، وجدت به عليهما ورغبت اليك في وضع تبعته عنهما، فاني لا اتهمهما على نفسي، ولا استبطئهما في بري، ولا اكره ما تولياه من امري، يا رب، فما اوجب حقاً علي، واقدم احساناً الي، واعظم منة لدي من ان اقاصهما بعدل او اجازيهما على مثل...

اين اذن يا الهي طول شغلهما بتربيتي، واين شدة تعبهما في حراستي؟!

واين اقتارهما على انفسهما للتوسعة علي. هيهات ما يستوفيان مني حقهما ولا ادرك ما يجب علي لهما، ولا انا قاض وظيفة خدمتهما..»[1]

واحتسب احد الصالحين ابنه، فلما سئل كيف كان بره بك؟ قال: ما مشيت نهاراً إلا مشى خلفي، ولا ليلاً الا مشى امامي، ولا علا سطح بيت وانا فيه»! وان في ذلك لعبرة لفتيات يرين من المدنية والتطور، ان يسرن امام الامهات ويسبقن الى الجلوس في المركبات، ويقدمن بين ايديهن آراء وافكاراً قد تكون اقل شأناً مما محصت التجارب وصفي الزمن.

(١) الصحيفة ١٣٨ وما بعدها- ومفاهيم انسانية ٦٥ وما بعدها.

وان فيها لعبرة لبعض الابناء الذين يعقون آباءهم، ويكرهون ان ينتسبوا اليهم امام اصدقائهم وعارفيهم، لان الآباء ممن لم تسلط عليهم الأضواء وليس لهم سطوة الحكام ولا عزة العلماء، ولا شهرة اصحاب الاعمال، ولا جاه اولي المال. وحسب هؤلاء شرف الابوة لو عقل الابناء!!

ولا انسى في هذا المجال حكمة تسمية «احدى الزهراوين» بسورة البقرة! فتلك التسمية- ومقاصد السورة كثيرة جامعة- تمجيد لبر الوالدين، وبيان لجميل صنع الله بالبارين.. قال الامام النسفي: «انه كان في بني اسرائيل شيخ صالح له عجلة، فأتى بها الغيضة وقال: اللهم اني استودعتكها لأبني حتى يكبر- وكان باراً بوالديه- فشبت البقرة وكانت من احسن البقر واسمنه، فساوموا فيها اليتيم وامه، حتى اشتروها بملء مسكها- جلدها- ذهبا، وكانت البقرة اذ ذاك بثلاثة دنانير...»[1]

ويرحم الله شوقي اذ يقول في تكريم الابوين!

انظر الكون وقل في وصفه	كل هذا اصله من ابوين
فاذا ما قيل: ما اصلهما	قل هما الرحمة في مرحمتين؟!
فقدا الجنة في ايجادنا	ونعمنا منهما في جنتين
وهما العُذرُ اذا ما اغضبا	وهما الصفح لنا مسترضيين
ليت شعري اي حي لم يَدِن	للذي دانا به، مبتدئين
وقف الله بنا حيث هما	وأمات الرسل إلا «الوالدين»!

٦- وبعد، فمن كان يدعو الى بر الوالدين في «عيد الام» أو عيد الأسرة فان الاسلام - منذ أول العهد به - قد جعل برهما محض ديننا وأرشد اعمالنا ومضت وصاياه بذلك- في القرآن والسنة- ادباً متبعاً، ونهجاً راشداً أضفى عليه الصالحون بسلوكهم ما يؤكد دور بر الوالدين في رخاء الاسرة، التي تؤلف ومثيلاتها امة مجَّدها الله بقوله «كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..»[2] وأين ما أعطى الله بالاسلام مما

(١) تفسير النسفي جـ ١ ص ٤٤.
(٢) آل عمران- ١١٠.

تعطيه المؤسسات الدولية في يوم كل عام وهي مؤسسات دول الحضارة التي يجل أثرها المادي، وإن خفت وضاءل منه إنعدام القيم السماوية وروح وحي الله فيها، وحديث الأسرة في تلك الدول يدعو تقطع الأوصال فيه إلى الرثاء والتفجع، والحمد لله على أن الأسرة في الاسلام لبنة صلبة متماسكة في بنيان يشد بعضه بعضا وهو يصنع المجتمع المسلم-

صلة الرحم وتكافل الأسرة

١ - في سبيل هناءة الأسرة:

دعم الاسلام هناءة الاسرة، فأحكم وثاقها بمن تربطها بهم قربى، وشد ازرها بما اوجب من تراحم الاخوة والاخوات، وبني العمومة والعمات ومن يليهم، فليس ارضى لله من صلة الرحم التي امر أن توصل، وبر الاهل والعشيرة، الذين يزكو عندهم اسداء المعروف، وليس اجلب لسخط الله من اهدار هذه الحقوق التي يوغر اهدارها الصدور، ويثير العداوة، ويؤرِّث الاحقاد، ويجعل الاسرة المتعاطفة متدابرة متخالفة..

ورعاية اولي الارحام، والتوسعة عليهم، بما لا يشق اسداؤه اليهم، هو عصام هذه الاسرة من التفكك، وزمامها من الانحلال والزوال، وهو دواء أنفس ان غفلت عن مغزى قول طرفة بن العبد الجاهلي:

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة   على القلب من وقع الحسام المهند

فما ينبغي ان تغفل عن صورة الرحم الفذة في قول المعصوم صلوات الله عليه «ان الله تعالى خلق الخلق حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال نعم. اما ترضين ان اصل من وصلك، واقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك. ثم قال رسول الله ﷺ. أقرأوا ان شئتم «فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم»[١]

(١) المنذري جـ ٣ ص ٣٣٨ - ٣٣٩. والآية من سورة محمد ٢٢ - ٢٣ والحديث متفق عليه عن أبي

لقد شق الله للرحم اسماً من اسميه الرحمن الرحيم، ومن رحمته التي وسعت البر والفاجر في هذه الحياة، وجعلها خالصة للمؤمنين يوم نلقاه، ليعظم حقها على العقلاء، الذين يفهمون ان الحياة لا يمكن ان تصفو بغير تراحم الاقرباء، وتعاون الاحياء. ذلك وحي الحياة، وحديث الواقع قبل ان يكون وحي السماء وحديث النبوة، ووصايا الآباء للأبناء!!

٢ - اقاربنا اعضاء في جسم المجتمع!

وان في افراد كل اسرة من الجفوة، والشطط عن صراط الله، قدراً مما شكا منه احد صحابة الرسول فيما روى ابو هريرة «ان رجلاً قال: يا رسول الله ان لي قرابة أصلهم ويقطعوني، واحسن اليهم ويسيئون الي، واحلم عليهم ويجهلون علي، فقال: ان كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل- الرماد الحار- ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[١]

ومن معاني هذا التوجيه النبوي، ان لهؤلاء الجاحدين حقوقاً على ذوي القلوب الكبيرة، فالاحسان الى المسيء من ادب الاسلام الذي يقول رسوله لعقبة بن عامر- وقد سأله: يا رسول الله اخبرني بفواصل الاعمال- فقال: يا عقبة. صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»[٢] ثم اليس هؤلاء اعضاء في جسم المجتمع الذي يمنى بتشويه فادح ان نحن بترناهم من قبل ان نبلو عذراً بمحاولة اصلاحهم. والعربي يقول:

وامنحه مالي، وودي، ونصرتي ... وان كان مطويَّ الضلوع على بغضي

ويقول مسكين الدارمي

أخاك أخاك ان من لا أخاً له ... كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم القوم- فاعلم- جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح؟!

= هريرة أخرجه الامام مسلم، والظهير العين والمل الرماد الحار ومراده ﷺ بذلك انهم لا ينتفعون بشيء من وجعلك حلمك واحسانك كما لا ينفع الرماد الحار من ظأ ارسفبة!!!

(١) المصدر السابق ص ٣٤١.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٢.

ويقول المقنع الكندي:

وان الذي بيني وبين بني ابي — وبين بني امي لمختلف جدا
فان اكلوا لحمي، وفرت لحومهم — وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا احمل الحقد القديم عليهم — وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا!

ومن قبل هؤلاء قال حاتم:

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى — وما منهما إلا سقانا به الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة — غنانا ولا ازري باحسابنا الفقر!

واين من هؤلاء الامجاد، ذلك الذي قيل فيه:
قيل فيه:

سريع الى ابن العم يلطم خده — وليس الى داعي الندي بسريع!

٣- صلة الرحم في كتاب الله:

قال الله تعالى «انما يتذكر اولو الالباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما امر الله به انه يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب... الآيات»[١]

وقال «والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار»[٢]

فانظر في أي سياق وضع الله الذين يصلون ارحامهم؟ ومع من سلك الجفاة القاطعين؟! ولا اراك تود ان تذكر بين الذين يفسدون في الارض، فيستوجبون لانفسهم لعنة الدنيا والآخرة، وانما تسارع لتكون بين اولي العقول الراجحة والقلوب المبصرة..

«فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم»[٣]

---
(١) سورة الرعد (١٩- ٢١).
(٢) سورة الرعد: ٢٦.
(٣) محمد: ٢٢- ٢٣.

وقال تعالى «وأولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله...»[1] قال الامام النسفي «كان المسلمون في صدر الاسلام يتوارثون بالولاية في الدين، وبالهجرة لا بالقرابة، ثم نسخ ذلك، وجعل التوارث بحق القرابة»[2]

٤ - الرسول المثل الاعلى في صلة رحمه:

ان القول في صلة الرحم ذو سعة.. لكني اجتزىء منه ببعض اطراف من تاريخ رسول الله وآله في ذلك، فهي قبس يضيء جوانب البحث، ويجمع القلوب والعقول على الاسوة الحسنة بالرسول في بره باهله وحدبه على مؤمنهم وكافرهم على السواء، ولعل في ذلك ذكرى للذاكرين..

كان العباس عم رسول الله بين اسرى بدر، مع عقيل بن ابن طالب، وغيره من ابناء اخوته وحلفائهم، فلما امسى الاسارى في الوثاق، بات النبي ليلته مسهداً فقال اصحابه، مالك يا رسول الله؟ قال سمعت انين العباس من وثاقه، فقاموا اليه فاطلقوه، فنام النبي بعدئذ، ثم لم يلبث ان اقتضاه فداءه، وفداء ابني اخويه، وحليف بني هاشم- عقبة بن عمرو- فالفداء حق المسلمين، وما كان صلوات الله عليه ليحابي في شيء منه احداً، وان كان عمه الذي توجع لأنينه.!!

ولقد كان اسلام حمزة براً منه بابن اخيه، يوم ان عاد من الصيد، فقالت له امرأة: ان ابا جهل آذى ابن اخيك وسب اباه، فذهب حمزة من فوره الى ابي جهل. فشجه وانّبه وقال «أتسب محمداً وانا على دينه اقول ما يقول»؟! وبهت عدو الله وعدو رسوله عند ذلك، وكان اسلام حمزة اوجع لقلبه وانكى من هذا الاذى المادي الذي اصاب جسمه، وبقي الرسول يذكر هذه المنة لعمه، حتى وقف على جثمانه حين استشهد في احد، وقال «يرحمك الله يا عم فلقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات».

وكان فتح خيبر وكأنه عيد من اعياد الاسلام فقد عاد يومئذ جعفر من الحبشة- فقال النبي «ما ادري بايها انا اشد فرحاً بفتح خيبر ام برجوع

(١) الاحزاب: ٦.

(٢) تفسير النسفي جـ ٣ ص ٢٢٦.

جعفر »؟! وتوالت الايام، ونعم جعفر بالشهادة في غزوة مؤتة، وضجت المدينة ببكاء الشهداء، وسمع الناس الى النبي وهو يقول «لكن جعفر لا بواكي له» ثم يلتفت الى اهله ويقول «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد نزل بهم ما يشغلهم »!!

يقول عبد الله بن جعفر «جاءنا النبي بعد ثلاث، من موت جعفر، فقال «لا تبكوا على اخي بعد اليوم، وادعوا اليَّ بني اخي» فجيء بنا، كأننا افراخ، فأمر الحالق فاصلح من شعرنا ثم داعبنا!!!

وكان النضر بن الحارث من أسرى بدر، فلما بلغ الرسول، امر بقتله، فطالما كذَّب النبي وافترى عليه- وهو يعرفه كنفسه- اليس هو القائل «لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ارضاكم قولاً، واصدقكم حديثاً فلما بدا في صدغيه عارض الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم انه كاذب؟ والله ما هو بكاذب والله ما هو بكاذب والله ما هو بكاذب» ثم لم يلبث ان بدا على طبيعته من الحقد والجهالة.. يقول الامام النسفي «كان النبي عليه السلام يقرأ القرآن، ويذكر اخبار القرون الماضية في قراءته فقال النضر بن الحارث لو شئت لقلت مثل هذا» وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة من حديث رستم واحاديث العجم.

فتزل قول الله تعالى «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين»... وقال له النبي: ويلك. هذا كلام الله، فرفع النضر رأسه الى السماء وقال: «ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم»[1]

وعلمت قتيلة بمصرع اخيها بعد بدر، فكتبت الى رسول الله:

أمحمدٌ ولدتك خير نجيبة ... في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت، وربما ... منَّ الفتى، وهو المغيظ المحنق
والنضر اقرب من قتلت قرابة ... واحقهم ان كان عتق يعتق

فرقَّ الرسول لقولها، وقال «لو بلغني شعرها قبل قتله لعفوت عنه».

---

(١) تفسير النسفي جـ ٢ ص ٧٨ آيات الانفال ٣١- ٣٢.

٥- كيف اينع غراس النبوة.

لقد اينع غراس النبوة، وآتى اكله، وجنت الحياة جناه، فترابط الافراد في الاسرة، وتعاونت الاسر على البر والتقوى، في مجتمع لم تعرف الحياة- ولن تعرف- مثل تواصله وتكافله وكان المسلمون- كما وصفهم نبيهم- تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم » او كما قال الله تعالى « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة »[١] وهو نعت لمشاعرهم مع كل مسلم، وإنه لأَجْمَعُ واوفى اذا نظرنا الى حالهم مع ذوي القربى، الذين ذكرهم الله بمالهم عندنا من حقوق في آية الحقوق العشرة (النساء- ٣٧) وآية البر « البقرة ١٧٧) وغيرها من آيات القرآن الكثيرة..

فهذا ابو عبيدة عامر بن الجراح يقول « وددت اني كنت كبشاً فذبحني اهلي، فأكلوا لحمي، وحَسَوْا مرقي »!

ولقد كان مسطح بن اثاثة بن خالة ابي بكر، فقيراً مملقاً، يعود عليه الصديق بفضل ماله، فلما شارك في حادث الإفك، منع عنه ابو بكر خيره وبره، وللرجل عذره الناهض- حتى بعد ان نزلت آيات النور في المبرأة الصديقة- ولكن الله عاتب ابا بكر، وحبب اليه ان يدفع بالتي هي احسن ابتغاء مرضاة ربه، فقال تعالى « ولا يأتل- لا يقصر- اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم »[٢].

وعاد ابو بكر الى بر من أساء اليه في اكرم اهله عليه!! ويا له من دين يدعو اهله الى ان يجدوا على الزلات ذيل الكارم!

٦- صلة الرحم مثمرة في الدنيا والآخرة

ان الرحم وشيجة آلهية، نافعة في الدنيا والآخرة، فالنبي يقول « من أحب ان ينسأ له في عمره وان يوسع عليه في رزقه، فليصل رحمه »[٣] وهي- بعد

(١) الحشر- ٩.
(٢) سورة النور- ٢٢.
(٣) متفق عليه وفي رياض الصالحين ص ١٤٥. عن انس رضي الله عنه

الايمان بالله- أبر ما يرجى يوم القيامة، قال تعالى مؤيساً الكافرين من رحمته: «لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم يوم القيامة يفصل بينكم...»[١] فليس عجيباً ان يكثر الرسول الوصاة بهذه الفضيلة فيقول: «بلوا ارحامكم ولو بالسلام»[٢] يقول البلوي: «صلوا أرحامكم بما أمكن، فان عدمتم، فأقل شيء يكون بالسلام، وهو بأن تزور ذا رحمك، فتسلم عليه، وتؤنسه بالقول، وتلين له الحديث وبمثل هذا يستمال الغريب، فكيف بالقريب، والنبي ﷺ يقول: «الا ادلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم»[٣].

فهل نرعى الرحم- افراداً وجماعات وشعوباً- فنرغم غمرات الحياة التي تحيق بامتنا على التبدد والزوال، ونشعر الذين يجالدون الاستعمار- في بعض اقطارنا- انهم ليسوا وحدهم في معترك الأحداث، وانما يهتم بأمرهم المسلمون بكل مكان «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» «وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية» كما قال صلوات الله عليه وهلا ارعوى من فتنتهم المذاهب **الوافدة** عن أن نتناجى بالاسلام، ونتناجى بالأخوة الانسانية وبوجود الدار وحق الجوار؟!

٧- من التاريخ..

كان عبد الملك بن مروان في سمره- ذات ليلة- مع ولده واهله وخاصته، فقال لهم: ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل في الشعر، وليفضل من رأي تفضيله فأنشدوا وفضلوا، فقال بعضهم امرؤ القيس، وقال بعضهم النابغة، وقال بعضهم الأعشى، فلما فرغوا قال: أشعر- والله- من هؤلاء جميعاً عندي الذي يقول:

وذي رحم قلمت اظفار ضغنه	بحلمي عنه، وهو ليس له حلم
يحاول رغمي لا يحاول غيره	وكالموت عندي ان يحل به الرغم
اذا سمته وصل القرابة سامني	قطيعتها تلك السفاهة والاثم

(١) الممتحنة- ٣.

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضى ص ٨٤

(٣) الف با جـ ١ ص ٤١١ عن أبي هريرة اخرجه مسلم وابو داود والترمذي.

الى آخر الأبيات «في أمالي القالي جـ ٢ ص ١٠٣– ١٠٥» فقيل له يا أمير المؤمنين، من قائل هذه الأبيات؟ قال معن بن أوس المزني!!

ولقد قيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري جاءوا اليه بولده مقتولاً، قد قتله ابن عم له، وكان قيس محتبياً– يجلس القرفصاء– فوالله ما حل حبوته ولا قطع حديثه فلما انتهى منه التفت الى ابن عمه– وهو في وثاقه فقال له: يا بني نقصت عددك واوهنت ركنك وفتت عضدك وأشمت عدوك وأسأت بقومك، وامر بنيه، ان يحملوا دية اخيهم الى امه– وكانت غريبة– مواساة لها وترضية، وأمر بدفن ابنه واطلاق ابن اخيه وأنشد:

اقول للنفس تأساء وتعزية ... احدى يدي اصابتني ولم ترد

كلاهما خلف عن فقد صاحبه ... هذا اخي حين ادعوه، وذا ولدي

وقيل للاحنف– بم سدت قومك؟ فقال! لو كان قومي يعافون الماء ما شربته!

ولله وحده الفضل والمنة «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً[1].

(١) صدر سورة النساء.

المسنون بين الأسرة والمجتمع



١ - دور الأسرة في رعاية المسنين

١ - عناصر الأسرة:

الأسرة في الإسلام يؤلفها زوج وزوجة التقيا على أساس من كتاب الله وسنة رسوله، بعد ارتفاع الموانع الشرعية، وتحقق الدوافع الضرورية للارتباط بحبل الزوجية الحاني، واقامة فردوس الأسرة المسلمة التي يجعلها الله شاهدا من شواهد حكمته وقدرته ورحمته في قوله تعالى:

« ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » الروم ٢١ ولقد اولى الاسلام الاسرة من العناية بها ما تستحقه باعتبارها اللبنة الاولى في صرح المجتمع، وأنها الوسيلة الالهية الشريفة للتناسل وبقاء الجنس البشري، الذي لا يثمره مجتمع الرجال وحدهم، أو مجتمع النساء وحدهن، الا أن يتزاوج الرجل والمرأة كما تزاوج آدم وحواء التي خلقها الله من ضلع من اضلاع الكائن البشري الاول.. قال تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » النساء

وخلق حواء من آدم عليهما السلام، ومن ضلع من اضلاعه، ومن ألطف اجزاء هذا الجزء منه، يبرز مكانه المرأة، وحق الزوجة في الاحترام والاكرام، فهي والزوج رفيقا درب، وشريكا حياة، وهي من الرجل شقيقة « والنساء شقائق الرجال » والله تعالى يقول « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض » آل عمران /١٩٥

٢ - البناء الاجتماعي:

ان الأسرة هي حجر الاساس في البناء الاجتماعي الذي تؤلفه أسر، هي الطريق الوحيد لبقاء النوع الانساني، بنين وحفده، ثمرات للزوجية المشروعة التي لا تقوم على غير قاعدتها أسرة تترابط بكريم المشاعر وشريف الاحاسيس، ووحدة الهدف والامل..

وفي الأسرة يكبر الصغير، ويبلغ الكبير من العمر مداه، وينمو في هذه المغارس، الأسر الاسلامية، نبت الدين، ويتهادى أفراد الأسرة وصاياه وتوجيهاته فيما يؤدي الوالدان للأولاد من حقوق يشير اليها مثل قوله تعالى:

« يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم نارا... » التحريم / والنبي ﷺ يقول « أكرموا أولادكم واحسنوا ادبهم » ويقول « مروا أولادكم الصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع »

وفيما يوجب الاسلام على لسان رسوله ﷺ من حقوق للابناء على الآباء قبل أن يوجب للآباء على الابناء ما أوجب من بر واحسان في آيات تكشف هذا في عهود بني اسرائيل قال تعالى:

« واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » البقرة /٨٣.

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم... » النساء /٣٦.

والنبي ﷺ يوجب للولد على والده ما يجلوه قوله « رحم الله والدا اعان ولده على بره »..

٣ - من حوافظ الأسرة:

هذا الاحسان للوالدين، وهذه الرعاية للابناء، واتساع آفاق البر والخير لتستوعب ذوي القربى وغيرهم، يفتح الطريق للتكافل الذي يوجبه الاسلام. والذي يعتبر من حوافظ الأسرة، وركائز المجتمع الضرورية، والله تعالى يقول:

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » المائدة /٢

وهو تعاون يستثير موجبات الاسلام للخدم في الاسرة، ولجيران الاسرة فيقرر في الاذهان حقوق افراد الاسرة وبخاصة اذا كانوا من هؤلاء الذين هم أصولها، ولبناتها الاولى، والاعين التي تعاهدتها والسواعد التي أعلت صرحها، وحملت الى غراسها ريا موصولا من شريف الاحاسيس، وكريم المشاعر، التي تستمد قوتها واستمرارها من مثل قول الله تعالى:

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ربكم اعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا » « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا » الاسراء /٢٣- ٢٦
والمتأمل لقوله تعالى:

« وأما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا » ٢٨/

فان الآية تؤكد حق الاقارب في الوعد الجميل، والقول اللين حين لا يجد المؤمن من ماله ما يقضي به لهم حاجة، أو يسد عوزا، أو يدفع شدة.

٤ - دين انساني:

وهو حدب يرتبط في الذهن بما يوجبه قول الله تعالى: « وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا . . » لقمان ١٥/

من البر بالوالدين وان كانا كافرين، وابلاغهما من مقتضيات الحياة ما يدخل في الوسع والطاقة، دون أن تطيعهما في معصية الله والكفر به سبحانه- قال سعد بن مالك رضي الله عنه، انزلت في هذه الآية:

« وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الآية.

قال: كنت رجلا برا بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن هذا الدين أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمة!! فقلت لا تفعلي فاني لا ادع هذا الدين لشيء، فمكثت يوما وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوما آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت يوما وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد جهدت أكثر من ذي قبل.. فلما رأيت ذلك قلت: يا أمة تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا، ما تركت ديني هذا لشيء، فان شئت فكلي، وان شئت لا تأكلي، فأكلت.

انه الولاء للدين الذي اوجب بر الآباء وان كانوا مشركين في أمور الحياة».

٥ - حقوق مفروضة:

«هو الولاء للدين الذي وفي بيان أحكام الزواج والطلاق والميراث وأشار في عبارة كلية لاحكام النفقات، ولكنه أسلس زمام القول في أحكام الاسرة بخاصة لأنها وحدة البناء الانساني وأوجب النفقة على الاقارب فيما مر بك منذ قريب في قوله تعالى: «وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل»

والامام مالك رحمه الله يوجب على الآباء النفقة للاولاد، كما يوجبها للآباء يؤديها الابناء، ويفسح المذهب الشافعي الباب مدى آخر فيجعلها في الاصول على فروعهم، والفروع على أصولهم.

والاسلام يوجب النفقة للعاجز من الاقارب، اذا كان فقيرا فلا يجب للقاعد عن العمل وان كان فقيرا بل عليه ان يعمل، وان لا يرضى بسنة انسان وفي استطاعته تحصيل رزق الله بعرق جبينه وكده يمينه في دين يجعل العمل ثمرة الايمان، وقرينة في آيات وذات عدد أمر الله فيها المؤمنين ووصفهم وذكرهم في غير مناسبة»

ولا يشترط في انفاق الابناء على الآباء أن يكون الآباء غير قادرين على العمل، فحقهم على الابناء في النفقة مقرر بقدر وسع الابناء.. وفي نطاق الاسرة تجب النفقة على الاقارب لذوي قرابتهم العاجزين، فان هم فعلوا ذلك

استوجبوا عن رسول الله ﷺ في قوله:

« من أحب ان يفسأ له في عمره، وان يبارك له في رزقه، فليصل رحمه »

والقاضي يستطيع ان يقرع أقفية القادرين الذين يسر الله عليهم ثم لم يروا أصولهم وفروعهم، ولم يصلوا أرحامهم.. وقد اثنى الله تعالى على أولي الالباب فقال « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » الرعد /٢٩- ٣٤

ان من بين أولي الالباب ههنا تطبيل وجوه من وصلوا الارحام فأحسنوا اليهم والى الفقراء والمخاويج وحقهم في ذلك أوجب ان تمادى بهم العمر، وتراخت الحياة..

ان التكافل في الاسرة هو التعاون على البر والتقوى في المجتمع الصغير، وايجاب الاسلام للنفقة على ما مر بك الاشارة اليها، ومن مقتضياها ان يعين الغني الفقير، ويواسي القوى الضعيف، وان لا يقف ذلك عند حدود الاقوال، بل يتجاوزها الى المواساة العملية، والله يقول « لينفق ذو سعة من سعته.. »

والانفاق واحد من حقوق هي الرعاية الصحية وكل ما من شأنه أن يرفع في الكبار روحهم المعنوية.

٦- المسنون في الأسرة والسنة المطهرة:

تفيوء رياض السنة المطهرة ضروري، فان مكانة المسنين فيها عالية، ففي الصلاة لا بد أن ترعى ظروف الضعفاء فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

« اذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فان فيهم الضعيف والسقيم والكبير « وفي رواية ذو الحاجة » أخرجه الشيخان.

وكم آسي حين أسمع في اكثر من اذاعة عربية اغنية: « الثعلب فات فات... وفيها صغيرات يلازمن جدا لهن حتى يغني لهن « الثعلب » ويردد الصغيرات كلمات الجد الممتهن، وأجد أبا موسى الاشعري رضي الله عنه يروي قول رسول الله ﷺ « ان من اجل الله تعالى اكرام ذي الشيبة المسلم » اخرجه ابو داود باسناد جيد.

وروى ابن عبد البر بسنده ان رسول الله ﷺ قال «ليس منا من لم يرحم صغيرها، ويوقر كبيرنا».

وسبيل الذين يرجون رحمة الله ان يرحموا اخوانهم، فقد قال جرير عن عبد الله ان رسول الله ﷺ قال «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» متفق عليه.

فهل تزرع باحساننا الى كبار من بنينا ما نحصده غدا أحوج ما يكون الى الخير والبر؟ والنبي ﷺ يقول: «ما أكرم شاب شيخا لسنه، الا قيض الله له من يكرمه عند سنه» الترمذي عن أنس بن مالك.

والحديث صحيح المعنى وان كان في رواية ضعفاء..

٧ من أدب آبائنا:

..كانوا يقولون... ليتقدم الاصاغر الاكابر في ثلاث:

اذا ساروا ليلا

او خاضوا سيلا

أو واجهوا خيلا

وكان احدهم لا يعلو سقف بيت يعلم أن باه فيه.

وكانوا يقولون، ان عليا زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه كان من أبر الناس بأمه، وكان لا يأكل معها في اناء واحد فلما سئل في ذلك قال: أخاف ان تسبق يدي الى ما سيثبت اليه عينها فأكون قد عققتها»!!

٨- قدموا لأنفسكم:

وبعد: فان وضع الكبار في مواضعهم الكريمة في الاسر هو أعود بالخير عليهم وعلينا، فاذا كان حقهم الذي احرزوه، فانه يكون ادعى شيء الى احترام ناشئتنا لنا، ووجودنا أمام ابصارهم قدوة حسنة وأسوة طيبة.. وأول سنة من يسيرها!!

وما زلت اذكر قصة رمزية لها دلالتها في هذا السياق، وملخصها ان شيخا موسرا كتب لأبنه كل ماله، واطلق يده فيه ليفرح بحسن تصرفه، فانتهز الابن أول فرصة فجعل لوالده مكانا في قصره بعيدا غير مناسب، وكان لهذا الابن

طفل مشغوف بجده، والصغار يأنسون بالكبار الذين قد تكون فرحة وجودهم في البيت وملاحظتهم للصغار اكبر من فرص ابائهم..

لقد دخل الطفل يوما على جده فوجده يبكي، فسأله في ذلك، فقص الجد على الحفيد قصته بايجاز، واخبره انه طلب من ابنيه غطاء يقيه برد الشتاء فلم يجبه لما طلب وكان للجد غطاء بال.. فقال الطفل له، ساحضر لك يا جدي الغطاء، وخرج يدور في جوانب القصر الى المدى الذي رآه أبوه فسأله عن اهتمامه فأخبره انه يبحث عن مقص، فسأله لماذا فقال لأقسم غطاء جدي نصفين احتفظ بأحدهما ليكون لك غطاء يوم تكبر مثل جدي الذي اطلق يدك في ماله، ليفرح بك فبخلت عليه بغطاء وكانت عظة أتت الكبير من طفل صغير.

٩ - توصيات:

ان الاسرة ينبغي ان تبقى الواحة الجميلة التي يتفيأ المسنون ظلالها، ويقاسموا في خيرها، ويدركوا فيها اللمسة الحانية والبسمة الآسية، والكلمة الراضية، وان يتاح لهم في جوانبها ان يجدوا الاذان السميعة لكلماتهم وتوجيهاتهم التي هي حصاد عمر، وثمرة ممارسة طويلة للحياة.

وان من أنفع الوسائل لرعاية أمر المسنين في الاسرة ان يكون ذلك في:

١ - برنامج تربوي يقدم للناشئة العزيزة في مراحل التعليم المختلفة مستقى ومستمدا من آيات القرآن الكريم واحاديث النبي ﷺ، ومن سلوك اوائلنا وأساليب معاملاتهم للمسنين.

٢ - وأن يكون ذلك البرنامج على حال مناسب جهاز الاذاعة وجهاز التليفزيون في أوقات تتيح للناشئة الانتفاع بهذه الاعمال..

٣ - وأن ترفع الصحافة من دور هذا الواجب اكثر من اهتمامها بالمسرحيات والافلام والعاملين في الحقل الفني الذي يمكن أن يستغل هو لهذا الواجب الكبير- فالصحافة تغشى اليوم كل منزل وتكون في متناول الكبار والصغار بسهولة ودواما. وفي كذلك يمكن ان تكون نافعة في هذا المجال.

٤ - واخيرا فان أخشى ما أخشاه ان يكون هذا الاهتمام البادي بالمسنين في ندوات ومحاضرات ودراسات ونشرات استجابة موقوتة لدعوة عالمية، لا تلبث ان تنتهي وان تكون خبرا من الاخبار.

وان فهمنا الصحيح للاسلام يوجب استمرارية الاهتمام بالمسنين اهتمامنا بأن تقوم شئون دنيانا جميعا على منهج الله تعالى..

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل،

حق المسن على الدولة والمجتمع

(الشيخ معوض ابراهيم
رئيس قسم الوعظ - الأوقاف)

١ - المجتمع

المجتمع هو الاسرة الكبيرة التي تؤلفها أسرٌ تقوم أول أمرها على الرجل المكلف المسئول وعلى شريكه حياته التي تنهض بقدر كبير من المسئولية من بقاء الأسرة ونمائها قبل أن تغلبها على نفسها وعلى وظيفتها الأولى الواجبات الجديدة التي واجهتها وراء مملكتها الحقيقية ولا يكون المجتمع مجتمعاً أمثل إلا بعد أن يتآلف أفراده وجماعاته وإلا كان عرضة للأطماع وهدفاً للذين يتحزبون بدوافع السطو ودواعي التسلط وغريزه « الأنا » من أولئك الذين لا يرون في الوجود إلا أنفسهم ، لها كل الحق وليس بسواها عندها أي حق.

وشعور الأفراد والأسر والجماعات بالمسئولية عن الواجبات التي تلقى عليهم لأنفسهم ومن يليهم من الأفراد والأسر والجماعات والمجتمع الكبير هو مصدر شرف وشاهد قدر وقيمة عند الله الذي يقول « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » الأحقاف ١٨

وعند الناس الذين لا يسترق قلوبهم إلا الإحسان وكم أحسن من قال ويا صاحبي ، دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه ميزان الإيمان

والله تعالى يضع للمجتمع المسلم هذا الميزان « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ... « التوبة/ ٧١

والولاية هنا هي النُّعْرَة التي لا تكون ذات بال إلا وأنت تسارع فتكفكف

دمعة أو تخفف لوعة أو تواسي في شدة الى المدى الذي يشعر اخوانك بنعمة الأخوة، فما أمرّ أن نأمر بالمعروف ولا نفعله وننهى عن المنكر وتأتيه، ثم تكون صلاتنا رداً علينا ولا تقبل زكاتنا وإنما يتقبل الله من المتقين إن الأمر بالمعروف واتيانه وترك المنكرات وإقام الصلاة التي تحاذى فيها المناكب وتتناجى القلوب التي تصنع الزكاة فيها من الود والمحبة جسراً لا يؤثر فيه كر الغداة، ومر العشّ إنما هي الإطار الصحيح لتقوى الله وطاعة رسوله (ﷺ) وإذا كان من قيم الناس وراء الأمة الإسلامية «لا كان من عاش لنفسه فقط» فإن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ثم شبك بين أصابعه

والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عليه كربه من كربات يوم القيامة...

وفي نظرة سريعة لقوله (ﷺ). ولا تسلمه تتقرر حقيقة الشعور بحبال الدين جمعتنا وإياهم فرص زمان وأن يكون ذلك الشعور حالا إيجابيا فما عَسَى أن ينفع الآخرين التحسر والتأثر وفي مقدورنا أن نشد أزرهم وندفع بالمساندة المعنوية والعملية فأذنهم وعسرهم، أو ما يواجههم من ظلم ظالم، وعدوان متسلط غاشم، وإذا صح... ولا يصح في الأذهان أن يدع الإنسان السوى عضوا من أعضائه تفتك به العلة أو يستشرى به القدر فإن أخاك ينبغي أن ينزل من إهتمامك وحرصك على أمنه وعافيته وسعادته منزل عضو من أعضاء جسمك وقد أحسن الذي قال:

وإني وإيـــاه كعــين وأختهـا ... وأني وإيـــاه ككـــف ومعصم

والذي خلص من قول الله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا... (الحجرات/١٣)

الى الحكمة التي يجلوها قوله:

قد رسخت في القلب منك مودة ... كما رسخت في الراحتين الأنامل

٢ - **في المجتمع المتكافل:**

وفي المجتمع المتكافل تبدو مسئولية الرجل في بيته ومسئولية الزوجة وتبدو

مسئولية العامل ويضع الرسول (ﷺ) مسئولية ولي الأمر في الطليعة من هذه المسئوليات جميعا فيقول (ﷺ) فيما روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، قال ابن عمر «وحسبته قال «والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» متفق عليه.

إنها رعاية لا تقف عند حدود الذات وإنما تتجاوز المصالح الخاصة وهي رعاية تبدأ بالإمام الذي أوجب الإسلام له حق الطاعة والإحترام سبحانه وبرسوله (ﷺ) في ذلك فقال «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» النساء وكلمة منكم من الآية تعني المؤمنين الملتزمين بهدايات الله فلا طاعة لمخلوق من معصية الله أبداً ومن أجل ذلك وضع الرسول (ﷺ) الإمام العادل بمكانه وهو يقول فيما روى أبو هريرة سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل وشاب نشأ في طاعة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود اليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وإفترقا عليه. ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته إمرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

والحديث رواه غير أبي هريرة وهو عند مالك ومسلم والترمذي وأحمد والنسائي والبيهقي.

والإمام حين يعدل يغمر الحياة سلاماً وأمناً يغدو الناس وتمرحون في سعة ورخاء ويمن «والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»

٣ - القدوة الحسنة

إنهم يقتدون بأولى الأمر في الخير وإشاعة البر وإصطناع المعروف والحرص على التعرف على اولئك الذين أفنى عليهم الدهر فذلوا بعد عز وإفتقروا بعد

غنيّ ، وأقعدتهم عن العمل العلل وتراخى بهم الزمان وبلغوا من الكبر عتيا ولا عائل لهم ولا كافل وإن كان من أبنائهم من جمع مالاً وعدده فإنهم غرتهم اموالهم والهاهم التكاثر عن أوجب الواجبات وهو رعاية الأصول وبر الآباء وأولى القربى وقد كان الرسول (ﷺ) أجود بالخير من الريح المرسلة ، والتاريخ يروى من روائع البذل ونماذج السخاء لصحابة رسول الله (ﷺ) ما يشهد بأمر الرحمة المهداة فيهم وإذا كان الرمز قد فنى عن التعبير فقد إتفق أبو بكر ماله على الدعوة الإسلامية وجاء يوم الإعداد لغزوه العسره بكل ماله وجاء عمر بنصف ماله وترك نصفه الباقي لعياله وجاء عثمان بما أثار غيظه الرسول حتى قال « اللهم إرض عن عثمان فإني عنه راضٍ ، ما يضر عثمان ما فعل بعد اليوم ، وما بقى صحابي من آل بيت رسول الله أو غيرهم إلا بذل وأنفق وجاء بما يدخره الله لهم ويجزيهم جزل الجزاء .

والدول اليوم تضع في ميزانيات وزاراتها ما يسد حاجة الشعوب في التعليم والتطبيب وإعداد المرافق وتأمين البلاد وعن الشعوب ينبغي أن نتنافس في الإسهام في الخير وأن نولي المسنين- أباءنا وذوينا ومن يلينا من المسلمين وغيرهم ما هم أحق به وأهله من عناية ورعاية في بيوتنا قدر إستطاعتنا وأن لا نضاعف عليهم متغيرات الحياة بأفرادهم وإبعادهم عنا الى تلك الدور التي يجب أن تخلص لمن لا عائل لهم ولا كافل وأن لا نبخل بإمكان ولا وسيلة تجدد في نفوس هؤلاء أنهم آباء وإخوة وأن الله سائلنا عنهم- افراداً وجماعات ومسئولين في شتى المستويات « يوم تجزى كل نفس بما كسبت » فلنعد الجواب ليوم الحساب فالمجتمع كيان إنساني متواصل يقول النبي (ﷺ) ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمىّ ، أخرجه البخاري إن تظافر آحاد الأمة على الخير فيما بينها ضروري لتقوى غريزة منيعة خير أمة أخرجت للناس تتعاون فيما بينها وتعطي لضعيفها حقه في الرعاية والاحسان ويا ويل أمة لا تتبادل مشاعر الأخوة وتنسى أصولها .

نحو شيخوخة سعيدة

(١) مراحل الحياة

مراحل حياة الحس موصولة يسلم بعضها الى بعض ولادة فطفولة فشباباً فرجولة فكهولة إلى الأجل المعلوم.

ونهاياتها تقوم غالباً على أساس من بداياتها وقديماً قالوا: من شب على شيء شاب عليه. والانسان ذلك المجهول خلقه الله بيده من تراب ونفخ فيه من روحه فتصارعت فيه وما تزال عناصر الإرتفاع والتسامي ودواعي التدلي والسقوط. ولهذا كان في حاجَة ماسة إلى من يذكره بنفخة الله فيه وفطرته التي فطره الله عليها.

وكثيرون ينبغي أن يقوموا بهذا النصح والتذكير والتبصير للأنسان حتى لا تغلبه على نفسه جواذب الطين فيه والآباء قبل أي شيء مسئولون عن تعاهد الناشئة العزيزة في مراحل حياتهم بعامة، وفي المراحل الأولى بخاصة فإنهم حين يؤدون الواجب لهذه الناشئة رياحين البيوت ، وثمرات الأبوة والأمومة الصحيحة، يضيئون في طريقهم النور الذي يسقط عن الآباء المسئولية، ويصنع لهم عذراً، إن لم يستبصر الأبناء ويبصروا طريق الخير فيسلكوه وطريق الشر فيتجنبوه.

إن مسئولية الآباء عن الابناء تقترن بها مسئولية الأبناء عن أنفسهم حين يبلغون حد التكليف، فهم مسئولون عن القوى التي ركبها الله فيهم، وهم حين يصونون أنفسهم عن الإبتذال ويعطونها حقها في الطعام والشراب والهوايات المشروعة، في قصد واعتدال، ويتسلحون بالعلم، ويتوسلون بدواعي الكمال

النفس فيحترف منهم من يحترف ويتاجر من يتاجر ويتأهل غيرهم بمالا يكونون به غداً عبئاً على أحد أولئك يجدون أنفسهم في خريف الحياة ومراحل العمر المتأخرة مبعث اعزاز وتوفير لأنهم ما يزالون يسهمون في رفع مسيرة الحياة بالعمل المتاح، وحصيلة الممارسة الجادة للحياة يسدونها للأبناء والحفدة «والذين لا يعرفون قيمة الحياة لا يستحقونها» كما قيل.

(٢) الاسلام لا يشق على الناشئة

إن الاسلام لا يشق على الناشئة العزيزة فهو دين الله الذي يعلم من خلق. إنه لا يغفل حاجة الشباب إلى الحركة التي تقوى منهم الأوصال، وتظهر من خلالها الخصال وتنمو بها الخصائص المميزة في كيانهم، كما ينمو النبات.. وما أسعد الآباء وهم يرقبون برفق وايناس نشاط الجيل الصاعد وحركاته وغدوه ورواحه، ليصححوا ما يحتاج منها إلى تصحيح وليشجعوا على المزيد من الملامح الدالة على خير واصلاح.

إن الإسلام هو ذلك الدين الذي يقول كتابه «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه» الملك/١٥ ويقول تعالى «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون» الجمعة/١٠ فنرى المزج الرفيع بين الدين والدنيا، بين العبادة والحركة الفعالة في ابلاغ الحياة كمالها البشري بسواعد الذين هم مظهر حيوية الحياة.

وإن دواعي البقاء والنمو الانساني هي: الغذاء وتعاهد الصحة في الأبناء ومراقبة تصرفهم وأعمالهم، وترشيد أوقات فراغهم حتى لا تكون سوساً يأكل حياتهم ولكننا نمزج للجيل الصاعد بين الترويح عن النفس وتزويدها بكل اضافة نافعة رافعة من مستوى علمهم بالله تعالى، وبالكون، والحياة، والثقافة التي نقدمها اليهم صالحة من أي وعاء وجدناه. إن ناشئة تقوم على هذه الأسس تناط بها الآمال حين تبلغ مبلغ الرجال وتكون والعمر يتراخى بها سعيدة بوجودها باعثة على سعادة الآخرين بها. ورحم الله الصحابي الجليل أبا الدرداء إذ يقول: «لاستجم نفسي بشيء من اللهو لا تقوى بذلك فيما بعد على الحق»

وهي كلمة يبدو معناها في ضوء الاثر الشريف « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإنها إذا كلت عميت » والأثر الشريف «إن النفوس تمل كما تمل الأبدان فالتمسوا لها طرائف الحكم ». وشكر الآباء نعمة الخلف السوى والنسل الرضى يكون كما أسلفنا بتعاهدهم بما يصون فطرة الله فيهم ويروى غراس الايمان في خوافيهم، وتأهيلهم بالعلم مستمدا من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ. ومن كل رافد يثرى العلم ولا يخالف هدايات الله تعالى.

وبنظرة متأنية لمثل قول الله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.. » الأعراف/٣١- ٣٢، نجد بعض عناصر المنهج الرباني للحياة الطيبة التي تسلم إلى صحة حاضرة، ونشاط متجدد مسعد، ونجد الأصل الذي انطلق منه من قال: « إن من الناس من يحفر قبره بأسنانه » وقولهم « إن البطنة تذهب الفطنة ».

إن تنويه الله بالشباب في قصة أهل الكهف في السورة التي تحمل اسم الكهف الآيات (٠ - ٢٦) ومن خلالها نقرأ قوله تعالى: « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » ونقرأ قوله سبحانه فيمن آمنوا بموسى عليه السلام « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم » يونس /٨٣. وقوله تعالى حاكياً مقالة قوم إبراهيم حينا وجدوا اصنامهم جذاذا إلا كبيرا لهم « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » الأنبياء/٦٠.

إن ذلك كله ينبغي أن يكون في اعتبارنا واعتبار الشباب انفسهم حتى لا تستهلكهم الأهواء والهوايات، التي كثيراً ما ضيعت حق العقل في الصقل، وحق القلب في التزكية وحق الجسم في الحماية، مما يغيره أكلاً وشرباً وسهراً، وترددا على موارد الضياع، وضلالاً في أودية التمويه والخداع.

ورحم الله الامام علي بن أبي طالب فقد قال: « لاعب ولدك سبعاً وأدبه سبعا وصاحبه سبعاً ثم اترك حبله على غاربه » إنه يكون أهلاً للسيادة في مجتمعه وعنصراً سعيداً مسعداً في مقتبل أيامه.

وقد آن أن نكرر أن سبيلنا إلى شيخوخة سعيدة هو أن يراعي الشباب

أنفسهم ويتقوا فيها ربهم ويعرفوا تاريخ الشباب في عصور الاسلام، وفي تاريخ الامم ليأخذوا من أخلاقهم ما يوائم الدين وهداياته، ولا ينخدعوا بمقولة « عيشوا حياتكم » فليعيشوها راشدين بصراء بزمانهم وشأنهم، وتوجيهات دينهم، ليسعدوا ويسعدوا الذين يمضون على طريقهم عبر الحياة، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

للأبناء في ذممنا حُقوق

١ - أولادنا..

اولادنا هم اشطار قلوبنا، وفلذات أكبادنا، ورياحين دنيانا، وثمرات حياتنا، بهم تحيا المنازل، وتعمر الدور، وتغمر جوانبها بالغبطة والسرور، وهم - اينما كانوا - قرة عين للآباء، كل جهد في سبيلهم محبب، وكل عناء في تحصيل ارزاقهم يطيب ويعذب، نسهر ليناموا في رضى واستبشار، ونجوع ليشبعوا ما تعاقب الليل والنهار، ونحوطهم من مزالق الحياة بالمهج والارواح لأن حياتهم امتداد لحياتنا، ولأنهم حماة امجادنا، وحملة اسمائنا من بعدنا:

ومن قاس بالأبناء أي عطية ... لقد أخسر الميزان، وارتكب النُكْرآ
فأبناؤنا سلوى الحياة، وانهم ... لدى غدنا الموعود، من انفع الذكرى
نورثهم أمجادنا، ونعدهم ... لنحيا بهم - في عمرهم - مرة أخرى[1]

والأولاد - وان كانوا فتنة - كما قال الله - ومجبنة مبخلة محزنه مهرمة - كما ورد في الأثر، ان رعايتهم للون من أزكى الوان الطاعة، فلقد سأل موسى ربه: اي الاعمال أحب اليك؟ قال «إلطاف الصبيان فانهم فطرتي، واذا ماتوا ادخلتهم جنتي» ونحن بخير ما تخلقنا باخلاق الله، فقد وسع فضله البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والطائع والغادر، فنشرنا ألوية التعاطف فوق رؤوس ذرارينا ومن يلينا، مؤدين حق الانسانية التي وثق الله بنا عراها!!

---

(١) من شعر المؤلف..

٢ - درس من الحيوان..

وإذا كان الحيوان الأعجم، يرأم صغاره، ويحنو عليها، ويلحظها بموفور عنايته، ويتملكه فيض الشفقة، وهو يجوب البراري والقفار، ويجوس خلال الديار، في طلب قوتها، ثم يرجع الى مستقرها الذي وطأ لها جوانبه، بادي الرضى بحسوة ماء، أو يسير غذاء هو بعد ذلك ينهضها من اكنانها، ويدربها على ما ينبغي للحياة من حيلة ووسيلة... فما اكثر ما تضع عاطفة الابوة في اعناق الراشدين من حقوق..

٣ - الأبوة والأمومة من أشرف المهام..

ان الابناء ودائع ينبغي ان ترعى، وامانات لا يشتغل بملاذه وشهواته عنها، الا من فسدت فطرته، وخف دينه، واستوجب الجحود في خريف الحياة، حين يتطاول الى بر الأبناء - وهيهات - وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد الذي يقول «رحم الله والداً اعان ولده على بره».[١]

«ان الابوة والامومة هما اعظم تبعة تقع على كاهل الانسان».[٢] وابعد الناس عن شرف الابوة هؤلاء الذين يتصل ترددهم بين اعمالهم ومقاهيهم، فلا يلمون ببيوتهم الا حين تصرخ بهم بطونهم، أو يُلحُّ عليهم نوم ثقيل، دون ان يشرفوا على تصرفات الابناء، فيشدوا ازر العامل، ويشحذوا همة الخامل!!

وابعد الناس عن شرف الامومة، هذه التي تضيق بالبيت ذرعاً - وهو مهبط رحمة الله ورضاه - فتسرف في زيارات، لا تتعلق بها فائدة، ولا تدعو اليها ضرورة، ويَدَعْنَ اغلى كنوزهن - اولادهن - للخدم، يصنعونهم كما يريدون، وأين هؤلاء واولئك من الاجر الذي جعله الرسول للعاكف في بيته، على تربية اولاده، وإعدادهم للغد الطيب، بقدر اجر العاكف في المسجد.[٣]

٤ - بر الرسول بابنائه:

والرسول في هذا الجانب من حياته - كما هو في شتى جوانبه - عظيم حقاً.

---

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٠.

(٢) أ - كريسي موريسون: العلم يدعو للايمان ص ١٤٤ ترجمة الفلكي.

(٣) الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٣٢.

لقد كانت فاطمة تدخل عليه، فيقوم لها، ويأخذ بيدها، ويقبلها، ويجلسها في محله.[1]

وكان اذا اراد سفراً، جعلها آخر العهد به، ثم صلى ركعتين، ومضى. فاذا قدم من سفر، جعلها اول العهد به، بعد ان يبدأ بالمسجد فيصلي ركعتين.[2]

وكان يحمل امامة بنت زينب - ابنته - وهو يصلي الفريضة، فاذا سجد وضعها، واذا قام رفعها.[3]

وحدثت الصديقة بنت الصديق - انه أهديت لرسول الله هدية، فيها قلادة من جزْع، فقال لاهدينَّها الى احب اهلي اليّ، فقالت النساء: ذهبت بها ابنة ابي قحافة، ودهشوا حين دعا الرسول امامة فأعلق القلادة في عنقها «ابن سعد».

والرسول بذلك يعلي من قدر الأنثى. التي ظلت مقهورة مظلومة عبر الاجيال، تختلف الأنظار في مجرد انسانيتها، حتى جاء الإسلام فأكد عزتها، وانحى باللائمة على الذين كانوا يأدون البنات خوف العار، وقرنها في التكاليف الآلهية بأخيها الرجل!!

وكان - صلوات الله عليه - يحمل ابنه إبراهيم من بيت امه ماريه، الى بيت عائشة، ويقول: انظري اليه - يقصد شبهه به!!

وكان يتلطف بالحسن والحسين - رضوان الله عليهما - فيرفعهما على ظهره، ويسير بهما على يديه ورجليه - ابتغاء مسرتهما.

قال شداد بن الهاد «سجد رسول الله ﷺ سجدة اطالها، فقال الناس - عند انقضاء الصلاة - يا رسول الله، انك سجدت بين يدي صلاتك سجدة اطلتها، حتى ظننا انه قد حدث امر، أو أنه أتاك وحي. فقال عليه السلام، كل ذلك لم يكن، ولكن ابني هذا - الحسن أو الحسين - ارتحلني، فكرهت

---

(١) البخاري في الادب المفرد

(٢) المصدر نفسه.

(٣) البخاري جـ ٨ ص ٧ بولاق.

ان اعجله حتى يقضي حاجته.[1]

٥ - الطفولة المشردة ثمرة انانية الآباء والامهات:

ارتفعت عقائر المصلحين في بعض الاقطار، بالشكوى من الطفولة المشردة، وقرروا انها اكبر اسباب التخلف عن ركب الحياة - أنى وجدت - وفات هؤلاء اصل هذا الداء، ومصدر هذه العله، وليسا الا انانية بعض الآباء والامهات، وطغيانها على معنى الابوة والامومة فيهم، وكان الاحساس بتفاقم هذا الخطر منذ تنكبنا طريق الاسلام، وتجاهلنا وصاياه التي كفلت نظام الاسرة على خير وجوهه!

رأى الاقرع بن حابس - سيد قومه - رسول الله، وهو يقبل ابنيه الحسن والحسين، فقال: يا رسول الله، ان لي لعشرة اولاد، ما قبلت واحداً منهم، فقال - صلوات الله عليه - «وماذا افعل اذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك[2]

وما اكثر الأبناء الذين يتشردون من جفاء الرجال والنساء الذين قد يرون في قول الرسول «من كان له صبي فليتصاب له» لوناً قديماً من الوان الحياة، أو فرصة للتدليل الذي تذوب فيه شخصية الابناء، وقد يزداد عجبهم حين يعلمون ان الرسول كان يتسع افق بره بأبنائه، ويتجاوزهم، فيغسل وجه اسامة بن زيد في صباه، ويسميه الحِبِّ بن الحِبِّ[3] وكان يداعب ابناء اصحابه اذا حضروا، ويسأل عنهم اذا غابوا، لأنه النبي الانسان، الذي يقول فيه مولاه «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وأزواجه امهاتهم...»[4] وروى ابن سعد ان ام خالد بنت خالد بن سعيد قالت: اتيت رسول الله ﷺ فذهبت العب بخاتم النبوة فانتهرني ابي فقال الرسول: دعها ثم قال: أبلي وأخلقي يكررها ثلاثاً» وعمرت ما شاء الله ان تعمر!! فماذا عسى هؤلاء ان يقولوا، في قول بونابرت..

---

(١) المجازات النبوية ص ٢٨٨.

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٠٤.

(٣) انظر كتب الرجال.

(٤) الاحزاب: ٦.

« لا افهم الحياة بلا زواج ، ولا افهم الزواج بلا ابناء ، ولا أفهم الابوة والأمومة بلا حنان ، ولا أحب المرأة التي تريد ان تقوم في هذه الحياة بما يجب على الرجل وحده أن يقوم به - فالمرأة المسترجلة في رأيي كالرجل المخنث »!! وما عساهم يقولون في قول برناردشو!

« لست معلماً للأمهات ، ولا مدرباً للأطفال ، ولكني احتقر المرأة اذا تزوجت ، ولم تقم بواجبها ، كأم وزوجة في آن معاً!! وأمقت الرجال اذا تزوجوا ، ورزقوا ابناء ، وجعلوا حياة ابنائهم كالجحيم ، ان من لا يستطيع القيام بحق الأبوة والأمومة ، ينبغي له ، ان لا يكون أباً أو أماً ».

٦ - **دستور نبوي:**

وأين مقررات علوم النفس والتربية ، مما ترك سلفنا ، من صور التوجيه الصحيح ، في مثل قولهم « لاعب ولدك سبعاً وأدبه سبعاً وصاحبه سبعاً ثم اترك حبله على غاربه؟!

ان الشر لن يخلص الى ناشئتنا ان نحن وهبناهم من ذات انفسنا ، هذا الاهتمام ، والعود غضّ طري والنفوس قابلة للتشكيل!

وخذوا مجيد الخلائق من تراث الرسول ، فقلدوا بها اعناق بنيكم وزينوا بها نفوسهم ، فهي اجدى عليهم من المال المكنوز ، الذي يبدده الحمقى في يوم او بعض يوم ، ثم تبقي عليهم حسرات الجهالة ، وسوء التربية ما يقوا - وقد قال الرسول صلوات الله عليه « من حق الولد على الوالد ان يحسن اسمه وأدبه وكنيته ، وان يعفه اذا بلغ ، وان يعلمه كتاب الله والسباحة والرمى ».

وقد قرأ النبي قول الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »[1] ثم قال « الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي » ، وسابق النبي عائشة[2] وصارع ركانة - مصارع قريش - ، وأمر عمر أن لا يمنع الحبشة وهم يلعبون بحرابهم عند النبي ، ورأى نفراً من « اسلم » ينتضلون بالسوق فقال: ارموا يا بني اسماعيل فان اباكم كان رامياً ، ارموا ، وأنا مع بني فلان ، فأمسك

(١) الانفال: ٦٠.
(٢) كشف الغمة جـ ٢ ص ٨٩.

أحد الفريقين بأيديهم، فقال لهم الرسول: ما لكم لا ترمون؟ قالوا كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: ارموا وأنا معكم جميعاً ».

وصح ان النبي كان يسابق على ناقته العضباء - وكانت لا تُلْحَق - وقد سُبقت يوماً، فشق ذلك على المسلمين وقالوا: سبقت العضباء، فقال ﷺ: « ان حقاً على الله ان لا يرفع شيئاً من الدنيا الا وضعه ».

وكان يهتم بدوابه، ويمرغ فرسه في التراب، ثم يمسحه عنه بردائه، كما يفعل الرجل الحفي بأبنائه!!

ألا ترى الدستور النبوي الحافل بأسباب العزة؟! وماذا وراء الاسم الكريم، والكنية الطيبة، والأدب الصحيح، ومبادرة الزواج عند اكتمال الشباب، ونضج الغريزة، وامكان النهوض بتكاليف الاسرة الجديدة؟!

ولم يهمل الرسول الرياضة الروحية في هذه المرحلة في هذه المرحلة التي يواجه فيها المراهق انفعالات شتى، ولكنه جعلها على قدم واحدة مع الرياضة البدنية التي ضرب بنفسه فيها المثل كما علمت، وجعل السباحة والرمي، رمزاً لما وراءهما من الرياضات الرفيعة، التي لا تهذب - وحدها - الأرواح، ولا تكبح الجماح، ولا تثمر ما نرجو من صلاح، حتى يتندى عليها قطر كريم من كتاب الله وسنة رسوله، وأمثلة القدوة الطيبة في سلفنا الكريم، و « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » وقد مدحت ابنة الشيخ الكبير، موسى عليه السلام بقوة البدن وقوة الروح فقالت ما حكى الله عنها « ان خير من استأجرت القوي الأمين »[1]

٧ - بعض الشباب

وما أكثر ما يترامى الى الاسماع، من أنباء تفاهة بعض الأبناء، وانحرافهم عن طريق الصواب في كثير من وجوه الحياة، ومسئولية الآباء في ذلك، على درجة سواء، مع مسئولية الحكومات، التي تستطيع بهيبة القانون، وسطوة السلطان ان تلفت الرقاب الظالمة، وتذل المعاطس التي لا يعطفها عن الشر، غير

---

(١) القصص: ٢٦.

الغلبة والقهر ، « والأمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته » ويقول ذو النورين رضي الله عنه « إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » وصدق الله العظيم « وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ».(١)

وإذا كان الغرب يفاخر بأمثال هذه الألمانية، التي كانت ترتاد بأبنائها الخرائب، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فلما سألها الناس في ذلك. قالت: اني اعلم اولادي ماذا فعل الأعداء ببلادهم!

فان رصيدنا من ذلك كبير، يدعو الرجال والنساء الى ان يصلوا انفسهم بأوائلهم في مجال الإسوة... دفعت الخنساء ابناءها الأربعة الى الجهاد، وهي احوج ما تكون الى احدهم، بعد أن اضناها لاعج الحزن على أخيها صخر، وحنى ظهرها الدهر، فلما نعموا بالشهادة، وعاد الجيش الاسلامي ظافراً منتصراً قالت الخنساء: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، ولعل الله ان يجمعني بهم في مستقر رحمته ».(٢)

وهل ننسى في أعلى قمم الفخر نسيبة بنت كعب الأنصاريه؟! لقد كانت يوم أحد في فرصتها الفذة تنتضي سيفها - حين انكشف المسلمون وتناولتهم سيوف المشركين، ولم يبق غير نحو عشرة رجال يذودون عن رسول الله ويحولون دون الوصول اليه - وتصول حول رسول الله وتجول فتضرب يميناً وشمالاً، والصفوة الكرام من أصحاب رسول الله يرون منها صدق مضائها، حتى قال الرسول: « ما التفت يميناً ولا شمالاً الا وأنا أراها تقاتل دوني ».

هل ننسى نسيبة... وهي في أُحُدٍ ترى الدم يسيل من عضد ابنها فتسارع اليه وتعصب جرحه - والرسول ينظر - ثم تقول انهض بني فضارب القوم.. وجعل الرسول يقول: « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عماره »؟!

قالت: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني. فقال رسول الله: هذا ضارب ابنك. قالت: فاعترضت له، فضربت ساقه فبرك.(٣)

---

(١) الحديد ٢٥.
(٢) الاصابة جـ ٨ ص ٦٦ - ٦٧.
(٣) في اخبارها تفصيل جليل في سيرة ابن هشام وكتب السير والأدب.

ودفعت ذات النطاقين - اسماء بنت أبي بكر ولدها عبدالله بن الزبير الى الشهادة بعد ان دانت له العراق والحجاز واليمن ثماني سنين، وتمت له فيها امرة المؤمنين، ثم لم يلبث ان انتقص منه عبدالملك العراق، ورماه بالحجاج الذي لحق به حتى ألجأه الى مكة، واشتد أوار الحرب بينهما حتى دخل على امه يستلمها الرأي فيما يعد به الحجاج ويمني، او في مواصلة الجهاد، بكلامه المشهور، فقالت له: يا بني ان الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح في كلمات، وضاء كلها ايمان وتضحية ».[1]

وكان حلة بن أشيم في الغزو، ومعه ابن له فقال: أي بني تقدم فقاتل حتى احتسبك، فحمل يقاتل حتى قتل، ثم تقدم هو فقتل، فلما اجتمع النساء عند امرأته معاذة قالت: ان كنتن جئتن لتهنئتي فمرحباً بكن، وان كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن »[2]....

وحين قال رجل لهند بنت عتبة وهي تلاعب معاوية ابنها صغيراً: «لئن عاش ليسودن قومه » قالت هند « ثكلته ان لم يسد قومه وغير قومه ». وجاءت الأم تشهد بأن هند كانت يومئذ صادقة الفراسة، وكانت تقرأ في كتاب!!!

- أمثال دالة

وتتزاحم شوامخ من الامثال اجتزىء منها في هذا المجال بذلك المثال.

« عندما اضطربت احوال المغرب - منذ ثلاثة قرون - فكر وفد من قرية سلجماسة «في صحراء المغرب » في الذهاب الى الحجاز، لاستقدام حاكم للمغرب من نسل الرسول، ونزلوا في ميناء ينبع، وعرضوا الأمر على حاكمها مولاي شريف، وكان له ثلاثة اولاد وعند اختيار احدهم للذهاب الى المغرب، وجه سؤالاً الى كل منهم على انفراد.

قال: ماذا تفعل اذا اصابك خير أو شر من أحد؟!

قال الأول - اقابل الخير بالخير، والشر بالشر.

---

(١) بلاغات النساء ١٣٠ - ١٣٣ وكتب الرجال..

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي.

وقال الثاني - اقابل الخير بالخير وأدفع الشر بالخير.

وقال الثالث - اقابل الخير بالخير، وأتمادى في فعل الخير حتى يصبح المسيء صديقاً لي!!

عندئذ قال الوالد لابنه الثالث: أنت أصلح من يحمل الأمانة في المغرب، وأوفد ابنه الذي أسس اسرة العلويين في المغرب من ثلاثة قرون، وكان الملك محمد الخامس هو الحاكم السابع عشر من ابنائها ».[1]

ويضوع في هذه الايام شذى عبق يصل الفروع بالأصول فيقول الملك محمد الخامس في خطاب له على المنبر، في عيد الجلوس.

« .. أما أنت يا بني فاحمد الله الذي شرح للإيمان صدرك، ورفع بالأخلاق قدرك، ونشر بالتضحية في الخافقين ذكرك واياك وان تحيد عن صراط الاسلام القويم، او تتبع غير سبيل المؤمنين، فانه لا عدة في الشدائد كالإيمان، ولا حلية في المحافل كالتقوى، وأعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وتقرب منه بالأعمال الصالحة ذراعاً، يتقرب منك توفيقك باعاً، واجعل القرآن المصباح الذي تستضيء به اذا أدلهمت الدياجي، واشتبهت عليك السبل، وليكن لك في رسول الله وصالحي الخلفاء أسوة حسنة «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ».

« يا بني. أوصيك بالمغرب بلدك الكريم، ووطنك العظيم، مستقر الجدود والوالد، ومستودع الطارف والتالد، خميلتك التي ارتاضت بنسائمها رئتاك، وثملت من محاسنها مقلتاك، وتغنت بألحانها شفتاك، فحافظ على استقلاله، ودافع عن وحدته الجغرافية والتاريخية، ولا تتساهل في شيء منَ حريته، ولا تتنازل عن قلامة ظفر من تربته، واياك وان تقبل المساومة على امنه، وسلامة سكانه، واذا داهمته الأخطار، أو تهددته الأعداء، فكن اول المدافعين، وسر في طليعة المناضلين.... »[2]

---

(١) الاهرام ١٩٦٠/١/١٩ للمحرر السياسي الاستاذ زكريا نيل.

(٢) نشرت الصحف اللبنانية الخطاب كله في ١٩٦٠/١١/٢٨،
ونضَّر الله في الملأ الأعلى وجه محمد الخامس، ويعبر الأخلاق بعمق ايمان الاسلاف وسيرتهم التي أوردناها.

وما بعجيب ان يوصي الملك ولي عهده هذه الوصاة فقد سبقه زين العابدين في دعاء لأولاده، فقال رضي الله عنه:

« اللهم ومنّ عليّ ببقاء وُلْدي، وباصلاحهم لي، وبامتاعي بهم. إلهي امْدُدْ لي في أعمارهم، وزد لي في آجالهم، ورَبِّ لي صغيرهم، وقولي ضعيفهم، وأصلح لي ابدانهم وأديانهم وأخلاقهم، وعافهم في انفسهم، وفي جوارحهم، وفي كل ما عنيت به من امرهم، وأدرِرْ لي وعلى يدي ارزاقهم، واجعلهم ابرار اتقياء بصراء، سامعين مطيعين، لك ولأوليائك محبين، مناصحين، ولجميع اعدائك معاندين ومبغضين آمين، اللهم اشدد لهم عضدي، واقم به أودي وكثّر بهم عددي، وزين بهم محضري، واحي بهم ذكري واكفني بهم في غيبتي، واعنّي بهم على حاجتي واجعلهم لي محبين، وعليّ حدبين مقبلين لي مطيعين غير عاصين ولا عاقين ولا مخالفين، ولا خاطئين... الخ[1]

٨ - حب الأبناء عندنا وعندهم..

حب الأبناء حق الانسانية، ودين الأجداد عند الأحفاد، وهو سمة الأنبياء، وحلية المتقين. يقول النبي - ﷺ - « من كن له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن - أي شقائهن - وضرائهن - ما يسببنه من هموم ومتاعب - وسرائهن، أدخله الله الجنة برحمته اياهن. فقال رجل. واثنتان يا رسول الله؟ قال واثنتان قال رجل يا رسول الله وواحدة؟ قال وواحدة ».[2]

وقالت عائشة « دخلت عليَّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئا غير تمرة واحدة، فأعطيتها اياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال: (من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن، كن له ستراً من النار »[3].

لقد مضى المجتمع الاسلامي يستلهم هذا التوجيه النبوي، فكان الفقراء والضعفاء - وما يزالون - يجدون العزاء من شدة العيش، وضيق الرزق، في

(١) الصحيفة السجادية للامام علي زين العابدين ص ١٣٣ وما بعدها.
(٢) المنذري جـ ٣ ص ٦٨ - ٦٩.
(٣) ارشاد الساري جـ ٣ ص ٢٢ طبعة بولاق.

بسمة يفتر بها ثغر ابن، او كلمة حلوة ينطلق بها لسان بنت، أو امارة نجابة تبدو في تصرف احدها، فيذكرنا هذا الحاضر بكلمة الرجل الذي بشروه بمولود - وهو فقير - فقال «ريحانة اشمها ورزقها على الله»!!

يقول الاستاذ احمد الصاوي محمد: «ما هي قلوب هؤلاء الافرنج؟ هل قدت من صخر؟ كيف يتجرد قلب الأم - وخاصة الأم - من كل شعور، ومن كل عاطفة، ومن كل حنان؟!

اننا نرى حولنا من قومنا من يعيشون على الفجل والبصل والكراث، وأولادهم عندهم، قرة اعينهم، يموتون فداءهم اذا مسهم ضر!!

قدامي وقائع اوروبية من صميم الحياة، وليست من خيال القصص. سيدة «ليدي»! من أسرة كبيرة، تنبذ ابنتها - وعمرها اربع سنوات - وتدعها لمن يتبناها في بلاد بعيدة! ولماذا؟ ليس هو الفقر!! فهي غنية، ولكن الدلال والدلع، فهي تقول انها لا تحب بنتها، ولا تشعر نحوها بأية عاطفة! وعلى ذلك فمن الخير لها وللبنت، ان يتبناها المحروم من البنوة ومن يتوق لها!!

ولم يعد الأمر مقصوراً على هذا اللون من ترف الآباء والأمهات الأغنياء، بل تعداهم الى متوسطي الحال، فقد اعلنت امرأة تدعى أدناموريس وعمرها ٢٤ سنة، انها مستعدة لأن تهب طفلها - قبل ان يولد - لمن يطلبه، فجاءها نحو مئة طلب، واذا بست سيدات سيصبحن امهات، يكتبن اليها في يوم واحد، يطلبن منها عناوين الراغبين في تبني الأطفال، لأنهن مثلها في ظروفهن المالية، او ضيق مساكنهن لا يسمح باستقبال المولود الجديد. واحداهن لها ثلاثة اولاد ولا تريد الرابع الذي في الطريق، والثانية لها ولد واحد ولا تريد رقم ٢. وهن يؤثرن للتنازل عن اولادهن، مجرد الولادة بحيث لا ينظرن مجرد نظرة الى وجوههم، ولا يردن ان يعرفن أهو ذكر أم انثى، حتى لا يتعلقن به؟! ومع ذلك فان دخل كل بيت من هذه البيوت لا يقل عن خمسين جنيهاً مصرياً في الشهر... هذا هو الغرب اهـ[1]

أجل... هذا هو الغرب - ايها المفتونون بالغرب - ينظر للأسرة

(١) الاهرام في ١٩٥٨/٤/٢٦.

هذه النظرة، ويقيم دعائمها على هذه الأسس، ومهما قيل انها مسألة فردية، لا تشكل قاعدة عامة، فسيبقى الاسلام قمة عالية في دعم اركان الأسرة، لا بد للناس منه أن أرادوا السلام العام!!

* * *

والاسلام يكره الحب التافه الذي يذيب شخصية الأبناء، ويملأ اعطافهم بالرفاهية القاتلة، ويجعلهم كلاً على كواهل الأهل، ولكنه يؤثر الحب الباني، الذي يعدُّ لتحمل المسؤوليات..

ويوم جاءت فاطمة تطلب من الرسول- وهي بضعته وأم ابنيه- خادماً يعينها على بعض امر بيتها قال: اتقي الله يا فاطمة، لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع »!.

وفي رواية أبي داود « اتقي الله يا فاطمة، وادي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، فإذا أخذت مضجعك، فسبحي الله ثلاثاً وثلاثين، وأحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبري أربعاً وثلاثين، فهي خير لك من خادم » قالت « رضيت عن الله وعن رسوله ».

والرسول الذي كان يحب الحسن والحسين- كما عرفت- هو الذي أخرج من فميهما تمرتين من تمر الصدقة وقال « كخ كخ ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ».

وهو - صلوات الله عليه - يقول « علقوا السوط حيث يراه الأهل »[١] ويقول « مروا اولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع »[٢] والحكمة في الأمر، والتشويق فيه، وضرب القدوة من انفسنا بإقام الصلاة والمحافظة على ادائها هي امثل الوسائل لاستجابة ابنائنا للأمر، والا ففي العصا مقنع لمن لم تنفعهم الحكمة والموعظة الحسنة، ولا تثريب على الاسلام في الضرب هنا - وفيما اسلفنا من امر الزوجة، الا ممن يرون ان تجري الحياة

---

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٥٢.
(٢) الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٣٢.

على هواهم «ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن».[1].

يقول شيخ المعرة:

اضرب وليدك تأديباً على رشد ... ولا تقل هو طفل غير محتلم
فرب شق برأس جر منفعـــةً ... وقس على شق رأس السيف والقلم

فلا يرقي الى مستوى الرحمة بالابناء، غير القسوة حين لا يكون منها بد، كذلك فعل ابو بكر حين رأى أم المؤمنين عائشة - وهي في بيت رسول الله - في ثوب تجره، وفعل عمر مع ابنائه وخاصة اهله حين كان يأمر المسلمين بأمر، أو ينهاهم عن شر!!

وكذلك قال سعيد بن المسيب لأبي وداعة الذي زوجه ابنته:

فقسا ليزد جروا، ومن يك حازماً ... فليقس احياناً على من يرحم!

ومن التدليل الظالم ان نهمل مراقبة ما يقرأ الأولاد وما يعملون، وتعرُّف من يصحبون ويصادقون «فالمرء على دين خليله» كما يقول المعصوم - صلوات الله عليه - وهو «كالرقعة في ثوبك لا تصلحه الا اذا شابهته» كما يقولون!.

وقالوا:

عرّفـــني من تُصاحـــب ... اعرّفـــك من أنـــت.!

٩ - البنون على هوى الاباء:

يرث الأبناء عن الآباء الأخلاق، كما يرثون السمات والأشباه «والولد سر ابيه» كما قال الرسول عليه السلام، وللعامة في هذا المعنى امثال سائرة، وما أحوج الذين يرتابون في هذه المسلمات الى علاج ابصارهم وبصائرهم، فلقد كان زيد بن حارثة اسود غربيباً - شديد السواد - وكان اسامة بن زيد ابيض مقمراً، وطاب للذين يتفكهون باعراض الناس، ان يطعنوا في بنوة اسامة، وآلمت اقوالهم النبي، ولكن الله يمحو الباطل بالحق، كما يبدد ضياءُ الصبح سجف

(١) المؤمنون: ٧١.

الظلام، فبينا كان زيد وأسامة يغطان في نوم حالم، مَرَّ بهما مجزز المدلجي - وهو عراف مشهور - فطفق يقلب ارجلهم ويتفرسها ثم قال «ان هذه الأرجل بعضها اشبه ببعض من النجم بالنجم»[1] وقرت بهذا القول عينا رسول الله!! إن الوراثة أصيلة من مفهومات الاسلام قبل ان يثبتها العلم وتقررها المختبرات.

والوالدان هم المثل الأعلى لأبنائهم «قد يمنحان طفلها معبداً طبيعياً ليعيش فيه، أو قد يهبانه - مباءة - لا تصلح مكاناً لنفس خالدة»[2] ومن المنزل تكون الخطوة الأولى الى المجتمع، وما اشد ظلم الذين يكلفون ابناءهم طلب الرزق في مرحلة الاعداد والتوجيه، لأن تكليفهم مدرجة الى ترديهم فيما ينبغي ان يصانوا عنه، وفي الحديث «لا تكلفوا الأطفال الكسب فانكم ان كلفتموهم الكسب سرقوا».

اجل.. سرقوا واندفعوا في ضروب من التصرفات، تصغر الى جوارها **السرقة!. والجزم - وقد صرن وصاروا مشكلة المشكلات بعد أن بهر الأم بهرج الوظيفة لمجرد الوظيفة لا لحاجة الحياة والأحياء إلى عمل المرأة في غير ميدانها، وبعد أن** أترفت الأم فلم تنسى زينتها وجمالها وصديقاتها ولكنها نسيت طفلها وأولادها وتركتهم للسيلانية والهندية والكورية والعربية يصنعنهم على غرارهن لا دين، لا تقاليد، لا حنان يشبه - ولا أقول يماثل حنان الأم ولا أخلاق تعصم هذه الخادمة من التجاوب مع طالب هوى في الأسرة، ولا يعصم هذا الخادم من أن يكون رهن طلب هذه أو تلك...

إن التوجيهات الدينية منذ بكرة الصبا، امنع سياج لجيلنا الصاعد من زحوف الفوضى الخلقية التي يجلب بها علينا الأعداء من افلام تستهوى وتفسد، ومجلات فيها تلون الحرباء، وعادات سيئة تنتقل عدواها من غير ابطاء الى البنات والأبناء والذين لا يجدون منا هذه الرعاية، هم اليتامى الذين عناهم شوقي بك بقوله:

---

(١) نيل الاوطار جـ ٦ ص ٢٨٢.

(٢) أ - كريسي موريسون «العلم يدعو للإيمان ص ١٤٤.

ليس اليتيم من انتهى ابواه من هذي الحياة وخلفاه ذليلا
ان اليتيم هو الذي تلقى له أماً تخلت، أو أباً مشغولا!

١٠ - سوُّوا بين اولادكم:

والاسلام - كيلا تتكرر قصة يوسف واخوته - يوجب ان نسوي بين « اولادنا » حتى في القُبَلْ ».

عن النعمان بن بشير ان اباه اتى به النبي ﷺ فقال: اني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي وقالت امه اشهد على ذلك رسول الله. فقال صلوات الله عليه. أكلُ ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال لا، فقال اشهد على هذا غيري فاني لا اشهد على جور »[١]

ومن هذه الرواية للحديث اخذ الفقهاء - في شرح مسلم وغيره - جواز تفضيل الولد الفاضل الكسوب على غيره تشجيعاً له وحفزا على التمثُل به!!

ولقد كان العرب قبل الاسلام يقتلون اولادهم خشية إملاق حتى قال الله في كتابه « نحن نرزقكم واياكم »[٢] « ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم »[٣] وكانوا يئدون البنات خوف العار حتى انحى الله باللائمة عليهم فقال « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون واذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هُون ام يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون »[٤] وقال الذين يضيقون ذرعاً بالأنثى، وتتهلل اساريرهم بمولد اخيها «آباؤكم وابناؤكم لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعاً »[٥] ولله الحكمة البالغة حين جعل ذرية رسوله من ابناء ابنته فاطمة..

وكانْ لمعن بن اوس ثمان بنات. ويقول - ما احب ان لي بهن رجال - وفيهن يقول:

---

(١) متفق عليه وفي رياض الصالحين ص ٥٧٤.
(٢) الاسراء: ٣١.
(٣) الانعام: ١٥١.
(٤) النحل: ٥٧ - ٥٩.
(٥) النساء: ١١.

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا تُكْذَب نساء صوالح
وفيهن - والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنه ونوائح!![1]

ولقد مضت الأجيال وفيها بقية من مواريث الجاهلية في الضيق بالأنثى، حتى ليروى ان رجلاً اسمه ابو حمزة ولدت له زوجته عدداً من الاناث، فلما حملت مرة اخرى تهددها بالفراق ان ولدت بنتاً، ووضعت انثى، ونفذ الرجل وعيده، فكان يغدو ويروح على بيتٍ آخر، وسمع زوجته يوماً تنشد لصغيرتها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا.. يبيت في البيت الذي يلينا
عضبان ان لا نلد البنينا تالله ما ذلك في ايدينا
فنحن كالأرض لزارعينا ننبت ما قد غرسوه فينا!

فأثر هذا القول فيه، وعاد يستصفي زوجته وهو يقول: تالله ما ذلك في ايدينا - حتى وهب الكريم ما يحبون!!

ونحن نقول مع كثيرين أن العنت في شتى حالات أكثر من «لاقى من أخيها ارتباطاً بأبويها، واغتباطا بأمرها، والتودد إليها»..

١١ - حق الأنثى في العلم:

حق الأنثى في التعلم كفله الاسلام حين كفله للذكر، فهي داخلة في عموم قوله تعالى «قوا انفسكم وأهليكم ناراً» وقول النبي عليه السلام «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وقوله «الْزِمُوا اولادكم وأحسنوا ادبهم».

ولقد كانت الامهات المؤمنين مبلغات عن رسول الله، ومعلمات للرجال، يسألونهن ما لا يجدون عند الرجال «واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة... »[2]. وكانت في بيوت امهات المؤمنين أول جامعة نسائية متخصصة في امور النساء وإن قدمت للرجال بعض الأضواء.

وليس خبر نساء الاسلام في عصوره المختلفة، ودورهن في اداء رسالة العلم في جوانبه الكثيرة - فقهاً وطباً وأدباً - بخاف على احد، نضر الله ذكرى

---

(١) الامالي اللقالي جـ ٥ ص ١٠٣ - ١٠٥.
(٢) الاحزاب: ٢٤.

هؤلاء وهدى الى الاقتداء بهن شقائق الرجال؛ حتى لا يقلدن في غير طائل ولا يفسدن قطرة الله في انفسهم..

ومن الفقهاء من يوجب على المرأة التي لم يعلمها زوجها امور دينها ان تخرج لتعلمه! وبقدر هشاشتنا للفرص التي تتاح اليوم لتعليم الفتاة نهيب بالمسئولين في شتى أقطارنا ان يجعلوا للتربية الدينية مكانها المرموق بين مناهج الدراسة، ووقتها الكبير الذي يناسبها وان يؤكدوا للفتيان والفتيات في المراحل الكبرى ان نجاحهم مقيد بالجد في التربية الدينية، التي يقترن فيها القول والعمل، فلا تكون شكلية ولا قشوراً يُزجى بها الفراغ ولا شيء وراء ذلك!!

يقول الاستاذ الشيخ شلتوت «وجوب تضمين مناهج التعليم العام عامل الدين».

وإذا قد تبين ان طبيعة الانسان وموقف المبادىء الصحيحة من قواه المختلفة يقضيان بالأعتماد على العنصر الديني كأساس اول في التهذيب والتربية كان من الواجب المحتم على رجال التربية والاشراف على التوجيه الانساني ان يضمنوا التعليم العام عامل الدين كعنصر اول في تهذيب الفرد واعداده لأن يكون مواطناً صالحاً لنفسه ولجماعته، وكان خلو المناهج التعليمية اياً كانت صيغتها من هذا العنصر انحرافاً بالتعليم عن ان يكون وسيلة للتهذيب، الى ان يكون وسيلة لكسب المعرفة التي لا اثر لها في الانسان سوى القضاء على الجهالة، وكانت المدرسة التي يخلو منهاجها من الدين مدرسة لا تسوق التعليم وفق طبيعة الإنسان، وإنما تكوّن انساناً لا يريد كثيراً في معناه عن هذا الانسان الآلي الذي احدثته المدنية الحاضرة!! وقد دلتنا مشاهداتنا ان هذه المعرفة او هذه المدرسة لم يجز العالم منها الا الشقاء والدمار، وان العلم وحده صار اداة للتخريب والطغيان اكثر من ان يكون اداة للتعمير والعدل، وبهذا انقلبت الحياة جحيماً لا يحتمل!!

ثم قال «واذا كان من الواجب ان يتخذ الدين مادة اولى لاعداد الانسان فليس ذلك الانسان هو الطالب في مرحلة معينة فقط، وانما هو الطالب في أية مرحلة من مراحل التعليم، بل هو ذلكم المواطن الذي تتكون منه الجماعة - أينما

وجد والى أية طبقة انتسب وفي أي مكان كان واذن فالمدرسة التي يجب ان نطبق فيها هذا المنهج القويم هي العالم كله، في لغاته المختلفة، وأجناسه المتباينة وأقطاره المتباعدة ».

ثم قال« وأنا لن نظفر بهذا الروح الديني الخالص حتى يكون قد دخل في اعداده...

اولاً: فهم الدين فهماً صحيحاً، أخذاً من مصادره الاولى، دون الالتجاء الى التقيد برأي فرقة خاصة، او مذهب معين..

ثانياً: الوقوف على العقليات الحاضرة للجماعات، والالمام بنفسية الطبقات والفروق الفردية بين الذكر والأنثى والصغير والكبير...

ثالثاً: اتقان وسيلة التفاهم، وطرق التأثير على القلوب النَّادَّة...

رابعاً: وهو الأول في الاعتبار - تعهده بأخذ نفسه وقلبه على مقتضى الروح الديني الصحيح.

ويوم نظفر بهذا الدين الخالص، نستطيع ان نَغْزُوَ به كل ناحية من نواحي الأمة حتى تشع في الشعب كله الروح العالية وتصير الأمة كلها مطبوعة بطابعه، داعية الى الخير بأقوالها وأفعالها وأخلاقها ونظمها في الحياة[1]

* * *

لكن كثرة كاثرة من فتياننا وفتياتنا ورجالنا يسوغ عندهم كل كلام، الا حديث الشرف والعفاف، والتذكير بالله وهداه - وهو وحده - طوق النجاة من ضنك العيش وسوء المصير. قال تعالى « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة صنكا ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى... » الآيات طه ۲۲۳ - ۲۲۷ وما الدين الا رحمة من الله تتدارك من يخشونه اذا زلَّت منهم في الشهوات قدم، او زاغ امام الفتن منهم قلب.. وما كان الدين الا شكائم من اهواء يخبوبها العقل كما يخبو الشعاع ويهون العرض كأنه

(۱) من توجيهات الاسلام ص ١٤٩ - ١٥١.

سقط المتاع، ونمضي بها في لجج الحياة وكأننا الفلك التي لا يعصمها في العاصفة مجداف ولا شراع.

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى أفاقه من به سكران

الدين يميز الخبيث من الطيب ويفصل الحلال والحرام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدع للعقول المبصرة والأفكار النيّرة أموراً نعمل فيها الرأي جهدنا، ولا ننتظر فيها بينة من ربنا - يقول النبي ﷺ «ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»!!

أليس من العار أن تجهل فتياتنا الاسلام - وقد ضربن بسهم وافر في جوانب من المعرفة - ويجهله كذلك فتيان، في الوقت الذي تتوافد فيه على الأزهر - الساهر على تراث الإسلام وأقداس لغة القرآن، ومعقد آمال المسلمين والعرب في ذلك - تتوافد على الأزهر الشريف من سويسرة وألمانيا أمثال «دوسترنك»، السويسرية التي كانت تعمل في أحد مصانع الأدوية بزيوريخ ودرست الإسلام في الكتب الألمانية، وقررت اعتناق هذا الدين؟!!

«سألها شيخ الأزهر ما الذي أعجبها في الإسلام؟!

فردت: وضوح تعاليمه التي في مثل وضوح البللور، وتطوره، وأسلوبه في الحياة».

«وقال شيخ الأزهر لمرافقتها المفتشة بوزارة التربية.. حاولي أن تعلميها بقدر الإمكان، أن تغطي شعرها وتصلي!!

وذلك لا يكون بالكلام، بل بطريقة عملية بان تصلي أمامها!!»[1] وما أكثر المتكلمين والمتكلمات في الإسلام، ولكن الأعمال تجرد أقوالهم وتعرّيها من أية صلة بالإسلام، العلم الذي يوائم طبيعة كل جنس.

والإسلام أحنى صدراً، وأرفق بالمرأة من هذا الذي رأى فتاة تتعلم القراءة والكتابة فقال: أفعَى تُسقَى سماً!. وهو يمضي على طبيعته في تكريم المرأة،

(١) من كلمة لمحررة «مع المرأة» الأهرام ١٦/١١/١٩٦٠.

وتعليمها أكثر بكثير من الغزل والنسج والردن[1] كما قال أبو العلاء! ووجوه العلم النافع مفتحة الأبواب لكل طالب.

يقول الأستاذ البهي الخولي «إذا كانت الظروف تدعونا إلى أن يكون من الفتيات طبيبات أو مدرسات، فلا بأس بذلك، لأنا نستحسن أن يكون الطبيب الذي يعالج المرأة امرأة مثلها، والمدرس الذي يعلمها امرأة أيضاً، أما تعليم الحقوق والكيميا والهندسة فضرب من الترف لا يكون إلا على حساب المهمة الأصيلة التي أعدت لها الفتاة».

«ان شيئاً من هذه العلوم ليس محرماً على البنت في الإسلام، ولكن المصلحة قطعاً في أن تدرس غيره مما يعود عليها بالمنفعة في مهمتها الأصيلة، والمصلحة المشروعة قانون من قوانين الإسلام، يحل ما تحلها، ويحرم ما تحرمها، فإذا بلغنا من عمق الادراك ما نفقه به أهداف الطبيعة العميقة، استبان لنا صدق هذه التقريرات، والا فسنظل مربوطين بعجلة التقليد السطحي، حتى تغير أوربا ما بها فنغير ما بأنفسنا، وهذا ما لا نريده لأمتنا بحال من الأحوال»[2]

وبعد.. فما أشد حاجة الفتاة في دور العلم إلى الاحتشام، وإلى الانفراد عن الشباب فقد بلونا من الاختلاط ما أرجيء الحديث فيه لغير هذا الكتاب!

---

(١) ردن الأشياء: نضدها - وردنت المرأة: غزلت: من المنجد.
(٢) المرأة بين البيت والمجتمع للأستاذ البهي الخولي ص ١٠١ وما بعدها.

التَّبنّي في الأسرَة

جدل يثور

١ – يثور جدل طويل حيناً بعد حين حول التبني ويريد الذين يدعون اليه تحت عنوان «حائرة تبتغي وجه الله» وباسم «العواطف الانسانية» ان يجعلوه شرعاً يُرعَى وسنة تتبع، والاسلام يرفض هذا الأمر ويأباه، لأنه يجافي قواعده الأصيلة، فلقد شرع الزواج فيه لحفظ الانساب وحماية الأسر من الاختلاط، والتبني يلحق نسب اناس بغير آبائهم وذلك يخالف الحكمة في مشروعية الزواج!

٢ – ولقد واجه الاسلام التبني فيما واجه من امور الجاهلية، وأدرك الناس وهم ينزلون الابن المتبني منزلة ابنائهم، يرثهم ويرثونه، ويحرم عليهم ان يتزوجوا نساءهم من بعدهم كحرمة نساء ابنائهم عليهم، وتبنَّى الرسول زيد بن حارثة وأضْفى عليه ابوته في يوم ماجدٍ كان نهاية، ثمانية اعوام حيل بين زيد فيها وبين قومه، اذ ضل عن امه في بعض اسفارها فاستُرِقَّ، واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ووهبته للرسول بعد زواجه منها واعتقه صلوات الله عليه وصار مولاه! وجاء ابو زيد وعمه الى الرسول فعرضا عليه فداء ابنهما فقال لهما: هل لكما في خيرٍ من هذا؟ ادعوه وخيروه، فان اختاركم فهو لكم، وان اختارني فوالله ما انا بالذي اختار على من اختارني ابداً! فقالا: قد زدتنا على النَّصَفِ وأحسنت، فدعاه الرسول، فعرف اباه وعمه وخيَّره بين ان يذهب معهما او يبقى في صحبته. فقال زيد: ما اريدهما، وما انا الذي أختار عليك احداً، أنت مكان الأب والعم. فقالا له: ويحك، أتختار العبودية على

الحرية وعلى ابيك وأهل بيتك؟ قال زيد. نعم، ما رأيت من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختَارُ عليه احداً ابدا.. هنالك اخرجه الرسول الى حجر اسماعيل وأشهد من حضر.. «ان زيداً ابني يرثني وأرثه» فلما رأى ابوه وعمه ذلك طابت نفساهما وانصرفا الى قومهما مطمئنين!! ودُعي زيد منذ هذا اليوم زيد بن محمد حتى ابطل الله هذا التبني بقوله:

«وما جعل ادعياء كم أبناء كم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل أدعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم، وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً»[1]. ما كان محمد ابا أحد من رجالكم[2].

فدُعي زيدُ بن محمد زَيدَ بن حارثة، ولئن حُرِم شرف النسب لقد كان يُدعَى حِبَّ رسول الله وكان اسامة من بعده «الحَبَّ بن الحَبَّ»!

وضرب الله برسوله المثل في ابطال حرمة تزوج الرجل زوجة متبنَّاه، وكان زيد زوج زينب بنت جحش بنت عمة رسول الله، تزوجته على رغمها، ورغم أخيها بعد ان نزل قول الله: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم... الآية[3].

فكانت تدل بحسب، وتستطيل بنسب، وتتعالى بميزة اللون والحسن، وفزع زيد الى الرسول يستأمره في فراقها وكان رسول الله قد أوحِيَ اليه انه سيتزوجها من بعده ولكنه يخشى ان يتخذ المرجفون به هذا الزواج موضوعاً لاتهامه بأنه أوقع بين الزوجين. (وحاشاه أو إنه استحل الحرام حين تزوج امرأة متبناه- فكان يقول لزيد: «امسك عليك زوجك واتقي الله» حتى نزل قوله تعالى: «واذ تقول للذي انعم الله عليه - بالاسلام - وانعمت عليه - بالعتق والتبني - امسك عليك زوجك واتقي الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه

(١) الاحزاب ٤ - ٥.
(٢) الاحزاب ٣٦.
(٣) الاحزاب / ٤٠ وهي الآية التي تجيء في نهاية عرض القرآن لآيات زواج زيد من زينب رضي الله عنها.

وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان امر الله مفعولاً » « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم... »[1].

٣ - بهذا القول البيِّن حرم الاسلام التبني وما كان يترتب عليه في الجاهلية، وشرع لمثل «حائرة تبتغي وجه الله بتبني ولدٍ تحله قلبه وتحنو عليه جهدها وتغمره بعاطفة الأمومة وتعده لمستقبل كريم لا يؤلم قلبه فيه ما يعلمه من حقيقة انه مجهول الأب » ان تملأ هذه المرأة فراغ نفسها بتربية من شاءت، وان تروي شجرة الأمومة فيها بالاحسان والرعاية للقيط أو أكثر ولكن في حدود الاسلام « فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم »، واني لأعرف رجالاً في بعض البلدان العربية تبنوا بنات وملكوهن اموالهم وخالفوا الشرع في حرمان الأشقاء وذوي الحقوق منها، فلما كبر هؤلاء جفون من تبناهن، واستمعن الى حديث من صارحهن بأنهن متبنيات لا بنات!!

٤ - الرسول ينكره على فاعليه..

والرسول بعظم النكير على من انتسب الى غير ابيه أو تولى غير مواليه، فأخبر انه « لم يُرَحْ رائحة الجنة »[2] لما في ذلك من اختلاط الانساب الذي يفضي الى شر كبير..

« فان من نسب نفسه الى غير ما عرف به فقد قذف امه فيحَدُّ، ومن نسب ولداً لغير ابيه تصريحاً أو تلويحاً فانه يُحَدُّ »[3].

وجاهلية انصار التبني ليست من الجاهلية الاولى فحسب، ولكنها تقليد وترديد لما يشيع هنا وهناك من افكار لا يقرها الاسلام، واين من منطق الاسلام في رفض التبني حجج القانون الفرنسي والقانون الروماني في اباحته وشرعيته.

فالقانون الفرنسي يرى التبني وصفاً خاصاً لغَرَض تكوين عائلة، والحصول

(١) الاحزاب ٣٧ - ٣٨ - ٤٠.

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ - ٧٤/٧٣.

(٣) المقارنات التشريعية جـ ١ ص ٢٥٠.

على متعة التبني التقليدية ممن لا ولد له، ولا ينتظر ان يكون له ولد..

وهو في هذا القانون اقسام ثلاثة:

١ - تبنٍ عادي ٢ - تبنٍ جزائي ٣ - تبنٍ في الوصية

ووضع القانون الفرنسي شروطاً في التبني بعضها يتصل بالمتبنَّى كبلوغه، وعدم تبني آخر له، ورضي والديه ان لم يكن ولد زنى!!

وبعضها في المتبنَّي كان يكون قد تجاوز عمره الخمسين سنة، وان يزيد على المتبنى خمسة عشر عاماً، وان ترضى به زوجته ان كان متزوجاً، وان يكون حسن السمعة، وان لا تقل مدة تبني الطفل عن ست سنوات.

القانون الروماني والتبني..

يهتم به كالقانون الفرنسي ويشترط في طرَفيْهِ شروطاً مثله، ويدخل المتبني ضمن عائلة المتبني، ويحرمه من ميراث اهله بالولادة.

ولا يشترط القانون الفرنسي في التبني الجزائي شروط السن وفرق السن في التبني الدائم بل يجوز فيه ان يكون الشخص الذي يكافأ على معروف اسداه للمتبني اصغر سناً أو مقارباً لسن المتبني ويشترط في تبني الوصية الذي يوصي به شخص في وصيته لصالح قاصر خوفاً من موته والولد قاصر لم يبلغ حد الرجولة، وشروطه هي شروط التبني الدائم الا انه يخالفه في:

١ - ان يكون المتبني قاصراً

٢ - لا يلزم الحصول على رضى الزوج الآخر..

ونتائج هذا التبني بأقسامه الثلاثة:

أولاً: يعطي الولد المتبنّى الحق في حمل اسم المتبني، واضافته الى اسمه، فيتناقله ابناؤه بعده.

ثانياً: لا زواج بين المتبَنَّى والمتبنَّى، ولا بين المتبنّي واولاد وزوجة المتبنَّى، ولا بين المتبنَّى وأولاد زوجة المتبنّي، وان كانوا ابناء تبن..

ثالثاً: توجد حالة تبادل واجب المساعدة بينهما حين يفتقر احدهما..

رابعاً: للمتبني الحق في ميراث من تبناه كالولد الشرعي تماماً.

خامساً: للمتبنِّي حق الرجوع الشرعي على ورثة المبتنى اذا ورثه اولاده اذا مات وترك ما اعطاه له من تبناه ما دام موجوداً بعينه..

ولا تتعدى هذه الحقوق شخص المتبني والمتبني، وليس لأحدهما قبل الآخر حق خلاف ذلك، خصوصاً في حقوق الأبوة الطبيعية والاذن في الزواج فتبقى للأب الطبيعي[1].

أجل.. اين هذا كله من منطق الاسلام وصيانته للأنساب وهو يرفض التبني ويأباه ويفتح ابواباً كريمة وضيئه لمثل التبني الجزائي وتبني الوصية، تشهد بحكمة الخلاق العظيم ورحمته؟!

٥ - اللقيط..

عرفته كتب الفقه بأنه انسان حي وجد في طريق الناس بعد ان طرحه من خاف الفقر أو فر من التهمة، وأوجبوا على من وجده ان يأخذه إحياءً لنفسٍ مظلومة لا ذنب لها تُطرح به هكذا.. ومن يدري فربما كان هذا الانسان - من بعد - ذا شأن، والله يغري بانقاذ مثله فيقول «ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً»[2].

فاذا ادَّعى مسلم نسب اللقيط وهو يعتقد انه ليس ابن غيره ثبت نسبه منه ولزمه كل ما يلزم للابن، فاذا لم يدَّع نسبه أحد، فهو في يد الملتقط له ولايته وعليه تربيته حتى يستغني بنفسه ولا يكون عبئاً على غيره في مستقبل حياته، ونفقته في ذلك على بيت المال، وآيات القرآن في الاحسان العام على اليتامى والفقراء والمساكين تتسع للَّقيط قبل سواه...

وتوجب علَى المسلمين بره والإقساط اليه اذا ضاق به «بيت المال».

٦ - التلقيح الصناعي:

اقرأ الآن في صحف لبنان خبر هذا الايطالي الذي يحاول ايجادَ ولدٍ عن

(١) المقارنات التشريعية جـ ١ ص ٢٤٨ - ٢٥٢.
(٢) المائدة ٣٢.

طريق التلقيح الصناعي - فيردني النبأ الى ذلك السؤال الذي يتكرر دائماً عن حكم الله في هذا الولد ان وجد عن طريق ماء رجل وامرأة - زوج وزوجة - او عن طريق غير زوجين؟!

وهو في الحالة الثانية زناً قولاً واحداً!!

اما في الحالة الاولى. فيقول الشيخ شلتوت في كتابه «الفتاوي»:

«انه اذا كان بماء الرجل لزوجه كان تصرفاً واقعاً في دائرة القانون والشرائع التي تخضع لحكمها المجتمعات الانسانية الفاضلة، وكان عملاً مشروعاً لا إثم فيه ولا حرج وهو بعد هذا قد يكون في هذه الحالة سبيلاً للحصول على ولد شرعي يذكر به والداه، وبه تمتد حياتها وتكمل سعادتها النفسية والاجتماعية ويطمئنان على دوام العشرة وبقاء المودة بينهما»[1]

---

(١) الفتاوي ١٩٧ - ٣٠١.

التربية الجنسية

١ - على طريقة الاسلام!

المجلات والكتب الجنسية تزحم المطابع، وتشغل حيزاً كبيراً في واجهات المكاتب، كانت تحتله - الى قريب - ذخيرة صالحة من المؤلفات الدينية والتاريخية، والتوجيهية، ويتلقف المراهقون هذه الكتب بما تستهويهم به من كلام مكشوف عن بعض اجهزة الجسم، ومن صور تصرخ على اغلفتها وفي طواياها بالإثم، ولا شك ان هذا اللون من الكتب سهل مربح للمؤلف والناشر اذا استباح الانسان الربح من اي طريق..

والناس يختلفون في التربية الجنسية وتدريسها للشباب، فمنهم من يدعو اليها على تلك الصورة العارية المتداولة الآن بدون تحفظ، ويصطنعون فيها مثل قول بعضهم « ومشيتها التي يتقاذف بها جسمها ذات اليمين وذات الشمال كأن في وسطها هرتين تتعاركان داخل كيس »[١]

ومنهم من يتورع عنها ويراها نمطاً من سوء الأدب، ينبغي ان يتقي ويحذر! وكلا الرأيين لا يستحق المناقشة!. ومنهم من يراها ضرورية قبل ان يتعلمها الأولاد من الشارع وأصدقاء السوء، ولكن على طريقة الاسلام، وبعد ان نحصن ناشئتنا بالايمان بالله، وننمي فيهم الوازع الديني، ونعمق في اعماقهم حقيقة أن الله يراهم، ويسمع سرهم ونجواهم ولا تخفى عليه منهم خافية: حتى لا تتسرب اليهم شرور هذه الثقافة والقلب فارغ، فتطمس فيهم فطرة الله، ونور خشيته!

(١) مجلة الاسبوع العربي اللبنانية عدد ٧٢ في ٢٤ تشرين الاول ١٩٦٠.

فالتربية الجنسية حاجة ماسة، بعد ما علمنا من آثار الجهل بها في اوساط الشباب من الجنسين، وبين بعض الازواج الذين يواجهون الحياة الزوجية بدون هذه الثقافة التي تكمل التربية العامة التي تتفاوت بها درجات الناس!

وأين لغو الحديث الذي يزخرفه المؤلفون، وأين الدعوات الجنسية التي تصم انباؤها الآذان في مدارس السويد وغيرها! من أدب الاسلام في هذا الجانب؟!.

ان القرآن الكريم يقرر العاطفة الشريفة التي قد يجدها أحد الجنسين الى الآخر التي تشد كلاً من الرجل والمرأة الى أخيه بعد ان جمعها الله على كتابه وسنة رسوله فكلاهما زوج «خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها» وجعل من غايات هذا الزواج ما عبر عنه بقوله «ليسكن اليها»[1] يقول الأستاذ البهي الخولي بعد ان قرر «غريزة الزوج» وبين انها ادق في معناها ومبناها من تعبير «غريزة الوالدية» أو «الغريزة الجنسية».

«فهناك حنين ازلي ونزوع فطري، يتجاذب به «أزواج» النوع الواحد بعضها الى بعض، فلا يسعد شوق احدهما الى الآخر ولا يسكن قلقه، ويكمل امره، ويخرج ثمره، الا ان يلتقيا على السنة التي قررها الله سبحانه لافراد نوعها، وهل السالب والموجب في الكهرباء الا زوجان ينزع كل منهما الى الآخر، ويرنو الى الاتصال به، فاذا لم يتصل به فهو كساد وعطل من خلية الثمر والعمل اما اذا اتصلا، فما شئت من نار ونور وحركة وقوة وخير!

وقد خلق الله حواء لآدم، وما كان سبحانه ليخلقها له، الا لأن خلقها تكملة لنظام وجوده، وسداداً لفراغ اصيل في جبلته - طبيعته - او لتكون هي الطرف الآخر الذي يكمل به نسقه المعنوي، ونسقه الحسي جميعاً»[2]

انه كلام يقرر حقيقة في عفة وطهر لا مجال فيها لاستشاره حسية أو معنوية، وأين من هذا ما قرأت في جريدة بيروتية تحت رسم ثلاث بنات مراهقات؟! قالت سألت بنت عمرها ١٨ عاماً أخاها وهو في الخامسة عشرة من

---

(١) الاعراف: ١٨٩.

(٢) كتاب آدم: ١٥٧ - ١٥٨.

عمره - قل لي يا - بماذا تتحدثون اذا خلوت مع زملائك؟! وأجابها اخوها على الفور... في نفس الكلام الذي تتحدثين الى زميلاتك ويتحدثن اليك به - فتضرج وجه الفتاة بحمرة الخجل، وقالت: الله يلعنك. أليس عندكم الا هذا الكلام الفارغ؟! والله لأقول لماما!!(1)

هذا هو اسلوب الكتابة في صفحات تفردها الجرائد في هذه الأيام «للمرأة» ولكم يسرنا ان يكون للمرأة صفحات على ان تزخر بصالح التوجيهات لا بأمثال ما تزخر به من تفاهات وترهات!!

٢ - القرآن يرسم المنهج الرشيد..

أ - حين وسوس الشيطان لآدم وحواء، ليبدي لهما ما يحرص العقلاء على ستره من انفسهم - وهو العورة - كنّى الله عنها بألطف عبارة، فقال «فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما»(2)

ولا ريب ان عورة الانسان مما يسوءه ان ينظر اليها الناس، ومن ذلك كانت تسميتها، ومن أجل هذا بادرا فور انكشافها الى رد الأبصار عنها. قال تعالى «وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة»(3)

فهل وجدت لفظاً منكراً، أو اشارة تحمر لها بعض الوجوه؟!

ب - قال تعالى«.. فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما...»(4) والغشاء غطاء الشيء من اعلاه، وفي التغشية تكلف الجهد والمشقة، عبر بذلك عن اللحظة التي يكون فيها الرجل من زوجته كالغطاء لها، وعبر عن كبر الجنين في بطنها بقوله «فلما اثقلت» وكأن القرآن الكريم يهيب بنا ان نرتفع في احاديثنا ومعارفنا الى مستوى يغني فيه التلميح عن التصريح.. واللفظ المهذب عن القول القبيح.

جـ - قال تعالى يصف الزوجات المطيعات «فالصالحات قانتات حافظات

(1) جريدة صباحية في ١٩٦١/١/١٦.
(2) الاعراف: ٢٢.
(3) الاعراف: ٢٢.
(4) الاعراف: ١٨٩.

للغيب بما حفظ الله »[1] فاجمل سبحانه التعبير عما يستحيا من اظهاره من امور الزوجية بلفظ « الغيب » قال السيد رشيد رضا في تفسير الآية « وهذا التعبير وسوابقه، ابلغ ما في القرآن من دقائق كنايات النزاهة، تقرأها الخُرَّدُ الغيد جهراً، ويفهمن ما توحي اليه مما يكون سراً، دون ان يجرح شعورهن خجل أو حياء، وفي ذكر لفظ « بما حفظ الله » بعد لفظ « الغيب » انتقال سريع بالذهن، حتى لا يذهب بعيداً مع وساوس الشيطان ».

د - قال تعالى « واهجروهن في المضاجع » كيف كنّى الله بهذا الأمر عن ترك الجماع؟..

هـ - وتأمل الكلام المطوي في قصة زليخا، حيث يقول تعالى « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك »[2] وكيف تكررت مادة المراودة دون ان يفتح القرآن بكلمة اخرى باب فتنة من هذه الأبواب التي يطل منها جمهرة الكتاب الجنسيين على رقاق الإيمان بما لا يليق؟.

و - القرآن يعلن الظروف التي يحرم فيها الوصال بين الزوجين، والظروف التي يحل فيها فيقول « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث امركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم وقدموا لأنفسكم »[3] وكم في هذه الآيات من كنايات تنضح بالطهر والفضيلة؟!

ويشرح ابن القيم معنى الأذى في الآية فيقول « ان جماع الحائض حرام طبعاً وشرعاً، فهو مضر جداً، والأطباء قاطبة تحذر منه « في فصل نافع يرجع اليه من شاء في زاد المعاد جـ (٣) وفيه مقنع لبعض الذين قالوا في بحوثهم في المؤتمر الثاني للطب الاسلامي في الكويت ١٨٠٢م في موضوع الحيض خاصة

ز - ويذكر القرآن عدة المطلقة، والمدة التي يحل لها الزواج بعدها بغير مطلقها إن لم يراجعها مطلقها، فيوجب عليها ان تكف رغبتها في الزواج، وان

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) يوسف: ٢٣ وما بعدها.

(٣) البقرة: ٢٤٣ وما بعدها

تصون سمعتها حتى تنقضي عدتها، فيرمز الى ذلك ولا يفيض في القول «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء[1] - أطهار -، ولولا قيد «بأنفسهن ما ادت كلمة «يتربصن» المراد القرآني الجليل..

وتأمل مثل قوله تعالى «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» البقرة ١٨٧ وقوله «لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان» الرحمن ٥٦ - ٧٤ وفيها من الأسرار ما فيها.

٣ - منهج السُّنَّة في ذلك:

مدح الرسول نساء الأنصار فقال «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء ان يتفقهن في الدين»[2] فهل كان منهجن في الفقه والمعرفة على غرار ما يشيع في الصحف والمجلات وعلى ألسنة بعض الذين يجيبون على اسئلة القراء والذين يحلون مشكلات الأسر، واللواتي نواجههن في المجتمعات المختلطة؟!

أ - عن عائشة رضي الله عنها ان امرأة من الأنصار سألت النبي صلوات الله عليه، عن غسلها من الحيض، فقال خذي فرصة من مُسَك - اي قطعة من صوف أو قطن أو خرقة مسك- فتطهري بها. قالت كيف اتطهر بها؟ قال سبحان الله. تطهري بها، فاجتذبتها الي فقلت: تَتَبَّعي بها اثر الدم»[3].

ب - وعن ام سلمة ان ام سليم قالت: يا رسول الله ان الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة الغسل اذا هي احتلمت؟! قال نعم اذا رأت الماء- اي المنى- فقالت ام سلمة، وتحتلم المرأة؟! قال. تربت يداك فبما يشبهها ولدها[4] أي فكيف يشبهها ولدها اذا لم تنزل؟!

جـ - وعن حزام بن حكيم عن عمه انه سأل رسول الله ﷺ ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟! قال.. لك ما فوق الازار»[5]

---

(١) البقرة: ٢٢٨.
(٢) الجامع الصغير جـ ٢.
(٣) الشوكاني جـ ١ ص ٢٤٩.
(٤) الشوكاني جـ ١ ص ٢١٩.
(٥) المصدر السابق ص ٢٧٧.

د – وتقول ام المؤمنين عائشة «ما رأيت منه ولا رأى مني» تريد العورة[1] وهو في صحيح مسلم بلفظ اطول عن عائشة عن أسماء رضي الله عنهما وفيه ما لا رأى مني أن عائشة قالت قولاً خفياً تسمعه المخاطبة وكأنها تخفيه !!! ومتفق عليه وحديثه مباشرة الرسول لهن صحيح بالشمائل للترمذي وهو صحيح عند مسلم عن أنس رضي الله عنهما.

هـ – وتقول «كان رسول الله ﷺ اشد حياء من العذراء في خدرها»[2] اجل ذلك رسول الله الذي ادبه مولاه وللمؤمنين به اسوة حسنة، فأين من فتيات – في دور العلم، ومجال العمل، واسواق الناس، والمركبات العامة – حياء العذارى؟! ان لهن لكلاماً يخزي الانسان سماعه وكأن قائلته لم تقل ما تلام به!! فهل رأيت فيما قال النساء للرسول وقال لهن غير القول الكريم؟!

***

٤ – أدب يجهله الناس

ولقد اوجب الرسول اموراً هي دعائم للاسرة، وهي في الوقت نفسه ادب كريم يجهله الناس، وفيه منهاج راشد للذين يتناولون مسائل الجنس ان ارادوا الاصلاح صادقين...

١ – فمن ذلك: انه اوجب ملاعبة الرجل امرأته قبل إتيانها، فذلك يهيئها ليكون امناؤها معه، وهو حق من حقوقها يثمر لها الاعفاف والسكن وكذلك كان يفعل الرسول – يقول جابر بن عبد الله نهى الرسول (ﷺ) عن المواقعة قبل الملاعبة» زاد المعاد جـ ٣ ص ١٤٧ طبعة صبيح. وما اكثر ما تسبب انانية الرجل، وادراك هواه دون ان يلحظ هذا الحق، امراضاً نفسية وحالات عصبية للمرأة!

٢ – ان لا ينزع الرجل فور قضاء وطره، حتى تقضي زوجه حاجتها، فان تربصه بها وانتظاره عليها تعجيل لفرصة قضاء وطرها.

---

(١) كشف الغمة جـ ٢ ص ٧٧.

(٢) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨٤.

٣ – ان يتستر الزوجان، ويحتشما، ولا يتجردا من الثياب في هذه اللحظات الخاصة، كما يتجرد العيران، فيقول ﷺ «اذا اتى احدكم اهله فليستتر ولا يتجردا تجرد العيرين».

٤ – والتسميـة لازمة في ذلك، فالجماع طاعة من الطاعات، وهو امر ذو بال يبتغي به الزوجان العفاف والنسل، ولا يعين على البركة في ذلك شيء كالاستعانة بالله تعالى، قال الرسول (ﷺ) «لو ان احدكم اذا اتى اهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فان قدر بينهما في ذلك ولدٌ لن يضر ذلك الوَلدَ الشيطانُ»[١]

٥ – ان لا يتحدث الزوجان بما يجري حين يفضي احدهما الى الآخر، او حال الوقاع، فقد جعل الرسول فاعل ذلك من شر الناس وضرب للمتحدثين بذلك، مثل شيطان لقي شيطانة فقضى حاجته منها، والناس ينظرون اليهما فقال «ان من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي الى المرأة وتفضي اليه ثم ينشر سرها».

قال الشوكاني «وانما خض الرجل بالزجر، ولم يتعرض للمرأة، لأن وقوع ذلك في الغالب من الرجل– اقول لو عاش الامام في زماننا لغير تبريره ووجهة نظره– ثم قال:– وهذا التحريم انما هو في نشر امور الاستمتاع، ووصف التفاصيل الراجعة الى الجماع، وافشاء ما يجري من المرأة من قول او فعل حالة الوقاع، واما مجرد ذكر نفس الجماع، فان لم يكن فيه فائدة ولا اليه حاجة فمكروه لمجافاته للمروءة، ولانه من التكلم فيما لا يعني «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وفي الصحيحين «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً او ليصمت» فان كان اليه حاجة، او تترتب عليه فائدة فلا كراهة في ذكره، وذلك نحو ان تنكر المرأة نكاح الزوج لها، وتدعي عليه العجز عن الجماع او نحو ذلك..»[٢]

٦ – ان لا يفاجيء الرجل اهله بالعودة من سفر طويل، في الليل، حتى لا

---

(١) الشوكاني جـ ١ ص ١٩٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٩– ٢٠٠. «نيل الأوطار»

يجدها على حال- من ترك الزينة وعدم النظافة- يدعو الى النفرة والعزوف عنها، ووسائل احاطة الاهل بعودة الغائب كثيرة الآن، فان فعلنا، استوى عند ذلك طروقهم في ليل او نهار. قال صلوات الله عليه: «اذا اطال احدكم الغيبة فلا يطرق اهله ليلاً»[1] والطروق هو المجيء بالليل.

قال الشوكاني عن ابن عمر قال. قدم النبي (ﷺ) من غزوة فقال: «لا تطرقوا النساء، وارسل من يؤذن الناس انهم قادمون»!! وانه لجانب من رحمة الرسول الذي قال فيه الله «وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين».

وفي آداب النكاح في احياء علوم الدين للإمام الغزالي بسط ذلك...

***

٤- شر البلية ما يضحك..

واضحك مع الاستاذ الصاوي، فقد كتب في الاهرام يقول:

«من اخبار وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ان المختصين فيها يدرسون اقتراحاً بانشاء معهد للزواج في القاهرة، يتألف من قسمين احدهما للطلبة والثاني للطالبات، وصرح مسئول لمندوب الاهرام، بأنه قد انشئت اخيراً في ولاية «ماريلاند الامريكية» كلية من هذا النوع حيث تدرس الطالبات فيها طريقة التعرف الى الزوج المنشود، وكيف تحتفظ به الزوجة، وتجعله ينفذ اوامرها «هي»!! وهو يحسب انه لا يزال الآمر الناهي!

وفي قسم الشبان من هذه الكلية يدرس الطلبة طريقة معاملة النساء، والتحدث إليهن، ويتلقى الشبان ضمن المحاضرات دروساً عن عادات المرأة وطبائعها الغريزية».

واضاف المسئول الى ذلك قوله: «انه اذا تم انشاء هذا المعهد في مصر فانه سيساهم[2] بقسط كبير في تدعيم الأسرة، وتقديسها، والمحافظة عليها! اهـ.. كلام المسئول..

وقال الاستاذ الصاوي: «ونحن نأسف لكلام هذا المسئول الذي لا يجوز ان

(١) نيل الاوطار جـ ٦ ص ٢١٣.

(٢) سيسهم هي الصحيحة لأخطاء «يساهم» الذي تجري السنة اساتذة كبار.

يكون مسئولاً ، فهو حتماً من الموظفين الذين يعيشون في المريخ ، ولا يدري الظروف العصبية المحيطة بنا ، والتي تتطلب الجد لا الهزل! وموظف الشئون المسئول لم يسمع عن قناة السويس ، وتأميم شركتها ، والمعركة الدولية التي نخوض اليوم غمارها ، فهو مشغول بالغرائز وما اشبه! وهو يريد ان يجعل في فصلين « من كل زوجين اثنين » من الطلاب على شرط ان يكون الزوج « كروديا »- اي سيء التقدير- وهو يقلد أمريكا حيث يحاصر الشبان بيوت الطالبات ليلاً ، ويهاجمونهن وهن في اسرّة النوم بالملابس الشفافة!!

نُحِبٌّ للمسئول في وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ان يعيش في زمنه ، وان يعيش في وطنه ، او يترك بلادنا ويسافر الى اميركا! اهـ.

وليت الذين لا تعجبهم حياة الحشمة والصيانة والعفاف يسمعون ، ويستجيبون لهذا الرجاء- ليت!![1]

لقد قرأت الكثير من الكتب التي تستهدف شرح اجهزة الجنس للرجال والنساء بصورة علمية مجردة من الفحش وسوء القصد ، وودت- كي يبلغ الناس بها كريم ما أراد كتابها- ان نعيد الايمانَّ ا مكانه من قلوبنا ، وان نعلي من قدر الدين في جميع اتجاهاتنا ، وان نعلم اننا بدون الفضائل التي جاء بها الاسلام سنكون كمن يبني على الرمل ، وإنه لمن المعيب حقاً ان نستورد الافكار والمناهج والتقاليد وعندنا في شريعتنا الخالدة وديننا الحنيف ما ليس عند سوانا من اسباب الخير والعزة والكمال..

والدين سلوى النفس من آلامها وطبيبها من أدمع وجراح!

---

(١) الأستاذ الصاوي مصيب في كل ما قال من وجهة نظر الظروف والتقاليد والعرف العام الصالح وليته ذكر مواقف الاسلام للحياة.

« الميراث يشد عرى الأسرة »

١ - كيف فرق الاسلام بين الذكر والانثى؟!

جعل الاسلام المرأة في كفالة ابيها ، او من يقوم مقامه ، حتى يُؤْنَس منها الرشد ، فتنفق من مالها - ان كانت ذات مال - والا لزمه الانفاق عليها ، ويكفيها زوجها جميع نفقاتها ، ومطالب حياتها ، وإن أربىَ مالها على ماله!

فكيف تضيق صدور ، أن فرق الاسلام بينها وبين اخيها في الميراث ، فذهب بِضِعْفِ نصيبها؟! وكيف ينادي بعض الرجال والنساء بمساواة المرآة بالرجل في الميراث بعد ان شرع الله شرعه ، وفصَّل في ذلك امره؟!.

« فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه » البقرة/١٨١

ان الغرم دائماً على الرجل ، ولها الغنم خالصاً من دونه ، فهي لا تدفع مهراً ، حين تتزوج من نصيبها في الميراث كما يدفع الرجل ، ولا تلزمها النفقة على زوج او ولد ، ولا يوجب عليها الاسلام الاسهام في اعداد بيتها ، او تجهيزه ، بل يلزم ذلك كله الرجل ، وماذا يغني ميراثه في هذا ان لم يضف اليه مزيداً من صالح كسبه؟!

اما ميراثها فهو في حرز حريز يضاف اليه ولا يؤخذ منه ، يضاف اليه ما يوجب لها الاسلام من مهر فيه تعويض واف لها عن نقص نصيبها في الميراث ، وما يوجبه من نفقة تسد حاجاتها جميعاً ..

قال الله تعالى « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... »[١]

---

(١) النساء - ١١ وما بعدها .

يقول الاستاذ عبّاس العقاد « ومسوغ هذا التفاوت ان الأخ مسئول عن نفقة اخته، وان الابن يعول من لا عائل له من اهله، وان رب البيت عامة هو الزوج، او الاب او الرشيد من الابناء والاخوة ومن اليهم، وتقرير وجوب السعي على الرجل اولى واصلح من تقريره على المرأة التي يظلمها من يسويها به في واجبات السعي على المعاش مع زوجها بواجب الأمومة والحضانة وتدبير المعيشة المنزلية »[1].

ويقول الاستاذ سيد قطب: « فأما ايثار الرجل بضعف نصيب المرأة في الميراث، فمرده الى النفقة التي يضطلع بها الرجل في الحياة، فهو يتزوج امرأة يُكلف إعالتها واعالة ابنائها، وبناء الاسرة كله هو مكلف به، فمن حقه ان يكون له حظ الانثيين لهذا السبب وحده، بينما هي مكفولة الرزق، ان تزوجت بما يعولها الرجل، ومكفولة الرزق ان عنست او ترملت بما ورثت من مال... والمسألة هنا مسئلة تفاوت في النفقة اقتضى تفاوتاً في الارث! »[2]

ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي « وقد بنيت هذه التفرقة – اي في نصيب الذكر والانثى – في غالب الاحوال، على تفرقة الاسلام بين اعباء الرجل الاقتصادية في الحياة واعباء المرأة، فمسئولية الرجل في الحياة من الناحية المادية اوسع كثيراً في الأوضاع الاسلامية من مسئولية المرأة، فالرجل هو رب الاسرة، وهو القوام عليها، والمكلف بالانفاق على جميع افرادها بالفعل ان كان متزوجاً، او سيصبح مكلفاً بذلك بعد الزواج، وعلى الرجل وحده تقع كذلك نفقة آبائه واقربائه، على حين ان المرأة لا يكلفها الاسلام حتى الانفاق على نفسها، فكان من العدالة ان يكون حظ الرجل من الميراث اكبر من حظ المرأة حتى يكون في ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التي وضعها الاسلام على كاهله واعفي منها المرأة رحمة بها، وحدباً عليها، وضماناً لسعادة الاسرة، بل ان الاسلام قد بالغ في رعاية المرأة إذ اعطاها نصف نصيب نظيرها **من الرجال، مع اعفائه لها من اعباء المعيشة، والقائها جميعاً على كاهل الرجل »[3].**

---

(١) المرأة في القرآن – ٧١.

(٢) العدالة الاجتماعية ص ٥٤.

(٣) بحث للدكتور في كتاب « الاسلام اليوم وغداً » ص ١٨٠ – ١٧١.

ولقد اكثرت من هذه النصوص لتكون نوراً لطلاب الهدى، ورجوماً للمبشرين ومن يرددون اقوالهم في ذلك[1].

٢ - المرأة بين الاسلام والجاهلية!..

ماذا كانت المرأة قبل الاسلام. يا من تذرفون دموع التماسيح، لأن الاسلام حابى عليها - بزعمكم - اخاها الرجل؟!

لقد كانت تعد في الجاهلية جزء من ميراث ابيها او زوجها، وكان الارامل يصبحن ميراثاً لابن الرجل او بنته وكان الميراث يذهب للأخ الأكبر او العم او ابن العم دونها! هكذا يقول التاريخ، رضينا او لم نرض!!

وحين مات اوس بن ثابت عن زوجة وثلاث بنات، ابى عليهم اهله شيئاً من ميراثه، فقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون لا يرث إلا من طاعن بالرماح وحاز الغنيمة، فجاءت ام كحّة زوج اوس الى رسول الله تشكو اليه امر قومها فطلب اليها ان تنتظر ما يوحي الله، فنزل قول الله تعالى «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه او كثر نصيباً مفروضاً»[2]

فبعث الرسول الى اقارب اوس، الا يتصرفوا في شيء من ماله، فان الله قد جعل لزوجه وبناته نصيباً... قال النسفي «ولم يبين حتى نزل قول الله تعالى «يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين... الآية» فاعطى الزوجة الثمن والبنات الثلثين، وابني العم الباقي»[3] قال السيد عبد الحميد الخطيب، لما تكلم الله في موضوع المواريث «فجعل المرأة اقل نصيباً من الرجل ثم عقب على ذلك موضوع الاحصان وجعل للرجل ان يعمل لإحصان نفسه بالمال الذي بذله للحصول على المرأة التي تشبع شهوتك و يجعل لها مثل هذا الحق، وكل هذه امور من شأنها ان تجعل المرأة تتمنى ان تكون رجلاً - وقد حصل - وقالت ام سلمة (رض) يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، وانما لنا

---

(١) راجع كتاب التبشير والأستعمار للدكتورين الخالدي وفروخ.

(٢) النساء: ٧.

(٣) النسفي جـ ١ ص ١٦٢.

نصف الميراث؟! وقال غيرها «وددنا ان الله تعالى جعل لنا الغزو فنصيب من الاجر ما يصيب الرجال، ولما نزل قوله تعالى «للذكر مثل حظ الانثيين» قال الرجال.. اننا لنرجوا ان نفضل على النساء بحسناتنا كما فضلنا عليهم بالميراث؟ فيكون اجرنا على الضعف من اجر النساء، وقالت النساء انا لنرجو ان يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة، كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا فانزل الله قوله «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض- من التكاليف والمميزات- للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» مما خص الله به الرجال من تكاليف، وما جعله فيهم من مميزات كالجهاد في سبيل الله والعمل لطلب الرزق والانفاق على الأهل، فقد رَصَدَ لهم من الاجر عليه ما لا يشاركهم فيه النساء، وما كان خاصاً بالنساء من المميزات، وما حملوا من مشاق كالحمل والولادة وتربية البنين، وادارة البيت، فقد جعل الله لهن من الاجر عليه ما لا يشاركهن فيه الرجال اقول:- وان اجر ذلك لكبير اذكر فيه هنا قول الرسول صلوات الله عليه «اما ترضى احداكن انها اذا كانت حاملاً من زوجها، وهو عنها راض، ان لها مثل اجر الصائم القائم في سبيل الله؟! فاذا اصابها الطلق، لم يعلم اهل السماء والارض ما أُخْفِيَ لها من قرة أعين؟ فاذا وضعت لم يخرج من لبنها جرعة، ولم يمل من ثديها مصة إلا كان لها بكل ملَّةٍ وبكل مصة حسنة، فان اسهرها ليلة كان لها مثل اجر سبعين رقبة تعتقها في سبيل الله» الجامع الصغير جـ١ - ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء،-

قال الاستاذ الخطيب.. فليس لاحدهما- الرجال والنساء- ان يتمنى ما هو مختص بالآخر، خشية ان يزاحمه فيه فتعم الفوضى ويختل النظام العام»[1] الى آخر ما قال ما نفيس القول!

هكذا كانت المرأة في الجاهلية يذهب الرجال دونها بكل شيء، وكان من طوائف اليهود من يعتبرون البنت في مرتبة الخدم، ويعطون اباها حق بيعها ما دامت قاصرة، ولا يجعلون لها في الميراث نصيباً، الا حين لا يكون لابيها ذرية من البنين، ويقول الدكتور مصطفى السباعي «لم يكن للمسيحية نظام للارث

(١) تفسير الخطيب المكي جـ ٥ ص ٩- ١٠.

الا ما يقرره رجال الدين عندهم، ومن ثم اختلف النظام بين امم مسيحية متعددة كالفرنسيين والانجليز والطليان، والنظام السائد في الكنيسة الكاثوليكية هو النظام الروماني الذي وضعه اوغطانيوس (٥٤٣/٥٤٧م). وتقوم على مبادىء أوردها الدكتور[١]. وهي تختلف كثيراً عما جاء به الاسلام من نظام هو مفخرة المفاخر في هذا الجانب، نظام خالد ثابت منذ شرعه الله لرسوله الى ابد الدنيا، وان تغيرت مذاهب، ودرست أفكار «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً»[٢].

٣ - اصول الارث واسبابه وموانعه..

علم المواريث من العلوم الجليلة في الشريعة الاسلامية، فما من فرد في المجتمع الا وله به شأن وارتباط، ولا يخلو أحدٌ من ان يكون وارثاً او مورثاً او محجوباً من الميراث.. ولهذه الأهمية حث الرسول الكريم على تعلمه، وأخبر انه اول علم ينسى فقال: « تعلموا القرآن وعلموه الناس وتعلموا الفرائض وعلموها فاني امرؤ مقبوض، والعلم مرفوع، ويوشك ان يختلف اثنان في الفريضة والمسألة فلا يجدان احداً يخبرهما، اخرجه الامام احمد..

ولقد حفل به القرآن الكريم كثيراً وبيّن الله حكمة تفصيل معظم احكام الميراث فيه فقال: « يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شيء عليم »[٣] وبيَّنت السنة ارث الام وغيرها، وكان الاجماع من اصول الارث كذلك.

وفي اسبابه يقول الاستاذ الاكبر: «ينبني الاستحقاق في الميراث في نظر الشريعة الاسلامية »:

أولاً- على علاقتي القرابة والزوجية.

والقرابة تشمل: قرابة الولادة «الآباء والأبناء» وقرابة الأخوة بجهاتها الثلاث: للأب والأم معاً وللأب فقط، وللأم فقط.

والزوجية تشمل: الزوج والزوجة، وهذه أسباب الميراث..

---

(١) رسالة مشروعية الارث واحكامه ص ٣١.

(٢) المائدة- ٣.

(٣) آخر سورة المائدة.

ثانياً - على الغاء صفات الذكورة والأنوثة، والصغر والكبر، في أصل الاستحقاق، فكان للصغير والكبير، والذكر والأنثى حق في الميراث.

ثالثاً - على أن الآباء والأبناء - أعنى الأصول والفروع - لا يسقطون في أصل الاستحقاق بحال ما، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم في كمية النصيب.

رابعاً - على إنه لا أرث للأخوة والأخوات مع وجود الأبوين، وإن كانوا ينزلون بنصيب الأم من الثلث إلى السدس.

خامساً - على إنه متى اجتمع في الوارثين ذكور وإناث أخذ الذكر ضعف الأنثى[1] ».

ومناط هذا البحث ان يكون هناك موروث، خَلَّفَه مورِّث، لورثه يتصلون به بسبب من الأسباب السابقة « الزواج الصحيح، والقرابة النسبية، والسبب الحكمي الذي كان يعرف بولاء العتاقة قبل ان يزول الرق، وتكتمل بزواله على الدنيا نعمة الإسلام..

وموانع الارث قد فصلتها كتب الفقه وحسبنا ان نذكر منها الرق، والقتل، واختلاف الدين، والردة واختلاف الدّارين، كما يمنع الميراث: جهالة تاريخ الموت، وجهالة الوارث، واللعان، وولد الزنا، لأن ذلك يجافي حكمة مشروعية التوارث، ومن حدد القرآن والسنة والإجماع حقهم فيه!!

٤ - الارث يشد عرى الأسرة..

والإسلام يلحظ - بعد اخراج الحقوق المتعلقة بالتركة - من تجهيز الميت وتكفينه وقضاء ديونه، وانفاذ وصيته في حدود ثلث ماله، وفيما زاد عن الثلث ان أجازه الورثة - ان يقسم ما بقي على المستحقين للميراث بحسب الأسهم المقررة لهم، نصفاً وربعاً وثمناً، وثلثين وثلثاً وسدساً - عدا العصبات الذين يأخذون الباقي دائماً - وإن يكون التوزيع في أسرته، الأقرب فمن دونه، شدّاً لعُرَى القرابة، وتضييقاً لهوة الاختلاف بين الناس في الغنى والفقر، وتفتيتاً للثروات الكبيرة، التي اطبقت عليها الأنانية أيدي المورثين طيلة حياتهم، ثم

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢١٤.

خلفوها لمن لا يذكرهم بخير - وكأنما عناهم الذي يقول:

هالوا عليه التراب ثم انثنوا عنـــه، وخلوه واعمالـــه
لم ينقـــض النوَّحُ من داره عليـه، حتـى اقتسموا مالـه!

يقول الدكتور ابراهيم سلامة «والميراث ونظامه في الإسلام من تفتيت الملكية، فإذا مات الغني، توزعت أمواله على الوارثين طبقة فطبقة، ودرجة فدرجة، في نظام خاص دقيق، هو النظام المقرر في كثير من آيات سورة النساء ولا يقتصر التوزيع على أصحاب الأنصبة المقدرة، بل يعطي الفقراء والمساكين ومن حضر القسمة من ذوي القربى المحجوبين بالأصول، ومن المساكين جيرة البيت الذي كان يعطف عليهم في حياته «وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً»(١)

«هذه الآية تعتبر أصلاً لما يسمونه في النظام الحديث - الآن - ضريبة التركات، فالغني ان لم يفتت أمواله في حياته بالزكاة والانفاق والسخاء تفتتت بعد موته بحكم القانون الإسلامي، على انه ليس مكلفاً في حياته بأن ينفقها جميعها، فكلام الرسول يحدد له ما ينفقه، ويحذره من عقبى اهلاك المال كله «انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»(٢).

أرأيت كيف يدني نظام الميراث الأقارب بعضهم من بعض، وكيف يخلص بينهم الود والمحبة والتعاون على الخير العام؟!

٥ - لا وصية لوارث!

الوصية المباحة في الإسلام في حدود الثلث لقول الرسول عليه الصلاة والسلام «الثلث والثلث كثير»(٣) وهي تنفذ فيما زاد على الثلث في حق من اجازها من الورثة بقدر نصيبهم من الزيادة دون من لم يجزها، ولا تكون الوصية لأحد من الورثة، فقد كانت واجبة للوالدين والأقربين بقوله تعالى «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين

(١) النساء: ٨.
(٢) من بحث للدكتور في «الإسلام اليوم وغداً» ص ٢٨.
(٣) مسلم رواه سعد.

بالمعروف حقاً على المتقين »[1] ثم نسختها آيتا المواريث « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثاً ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث. فإن كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله أن الله كان علياً حكياً »[2].

« ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجلٌ يورَثُ كَلاَلَةً أو امرأةٌ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضارٍّ وصية من الله والله عليم حليم »[3].

بهاتين الآيتين نسخت آية الوصية السابقة في النزول، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله، قال السيد رشيد رضا: «آية ألوصية نزلت قبل آية المواريث بإتفاق وهذا ما أراده النبي (ﷺ) وبينه في حديث أنس وأبي أمامة بقوله: « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، إلا، لا وصية لوارث » وفي حديث عمرو بقوله: «إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا يجوز لوارث وصية » فالحديث مبين لآية المواريث ولما فيها من نسخ للوصية للوالدين »[4].

ومن الثلث يعطى أبناء من ماتوا في حياة آبائهم نصيب هؤلاء الآباء بشرط ان لا يزيد عن ثلث التركة بحال، وهو اجتهاد يتفق وعدالة الإسلام ورحمته، فلقد يكون هؤلاء الذين ماتوا هم الذين كونوا الثروة أو أسهموا في تكوينها بجهد كبير، فلا ينبغي أن يحرم أولادهم من هذه التركة بينما يأخذ فرضه من لم يعرق له فيها جبين ولم تتعب منه يمين، من أعمام الأبناء وعماتهم، وَمَنْ أولى بالوصية

(١) البقرة: ١٨٠

(٢) النساء: ١١.

(٣) النساء - ١٢ والكلالة: من لا ولد له ولا والد.

(٤) تفسير المنار جـ ٢- ١٣٥/١٣٨.

الواجبة من هؤلاء الأبناء، ثم هي من بعد ذلك ليتدارك بها المالك ما فاته في ماضي أيامه من فعل الخير قبل ان ينتقل ماله من يده إلى يد سواه، والنبي صلوات الله عليه يقول: «إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم. زيادة في حسناتكم ليجعلها لكم زيادة في أعمالكم».

وقد وضعت الشريعة شروطاً للوصيَّة زيادة على انها لا تصح لوارث، يُجْمِلُها قول الله تعالى: «غير مضار وصية من الله» فلا يعطاها من لا حاجة له بها، ولا تكون ملحقة بالوارثين ضرراً..

٦ - درجات الورثة..

وبالنظرة في آيتي النساء اللتين مرتا بك وفي الفروض التي قدرها الله فيها، نستطيع ان نحصر الفروض المقدرة فيها لأصحابها على الوجه التالي:

النصف - هو فرض خمسة.

(١) الزوج عند عدم الفرع الوارث ذكراً كان أم أنثى منه أو من غيره.

(٢) البنت إذا لم يكن معها أبن (أخ لها).

(٣) بنت الابن - وإن نزلت - إذا لم يكن معها بنت أو لم يكن هنالك بنت أعلى منها.

(٤) الأخت الشقيقة عند عدم البنت وبنت الأبن والأخ الشقيق والأب.

(٥) الأخت لأب عند عدم الأخت الشقيقة، والأخ لأب، والأخ الشقيق والأب والبنت والأبن وبنت الأبن.

الربع - فرض اثنين

(١) الزوج عند وجود الفرع الوارث ذكراً كان أم أنثى.

(٢) الزوجة عند عدم الفرع الوارث للزوج ذكراً كان أم أنثى منها أم من غيرها.

الثمن - فرض الزوجة عند وجود الفرع الوارث للزوج منها أم من غيرها.

الثلثان - فرض أربعة.

(١) البنتين فأكثر عند عدم الأبن.

(٢) بنتي الأبن فأكثر عند عدم البنت أو الأبن أو أبن الأبن.

(٣) الأختين الشقيقتين عند عدم الأخ الشقيق والبنت والأبن وأبن الأبن والأب.

(٤) الأختين لأب عند عدم الأبن والبنت وأبن الأبن والأخ الشقيق والأخ لأب والأختين الشقيقتين والأب.

الثلث - فرض اثنين

(١) الأم، ثلث الكل عند عدم الفرع الوارث أو اثنين من الأخوة والأخوات، وثلث الباقي بعد فرض الأب مع أحد الزوجين.

(٢) الأثنين من الأخوة والأخوات لأم عند عدم الفرع الوارث والأب والجد.

السدس - فرض سبعة

(١) الأب عند وجود الفرع الوارث.

(٢) الجد عند عدم الأب والفرع الوارث.

(٣) الأم عند وجود الفرع الوارث أو اثنين من الأخوة والاخوات.

(٤) الجدة لأم أو لأب عند عدم الأم، وتسقطها الأم من الميراث ولا يسقط بالأب إلا الجدة لأب..

والجدة الصحيحة هي التي لا يدخل في نسبتها إلى الميت جد، كأم الأم وأم الأب، وأم أبي الأب..

والجدة الفاسدة هي التي يدخل في نسبتها إلى الميت جد، كأم أب الأم، وهي من ذوي الارحام..

(٥) بنات الأبن مع البنت عند عدم الأبن أو أبن الأبن.

(٦) الأخت لأب مع الأخت الشقيقة. إذا لم يكن معها أخ لأب.

(٧) ولد الأم عند فقد الفرع الوارث والأب والجد..[1]

---

(١) رسالة مشروعية الإرث وأحكامه للدكتور السباعي صفحة ٥٩- ٦١.

٧- العصبات

وهم الذكور من أقارب الميت غير من ذُكِرَ من أصحاب الفروض عند وجودهم- كما أخذ أبناء عم أوس مع زوجه وبناته- ويأخذون المال كله عند عدم أصحاب الفروض. وقد أجمعوا على هذا واستدلوا بقول الرسول: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» البخاري ومسلم..

والعصبات درجات أولاها بالتقديم:

أ- فروع الميت الذكور وإن نزلوا، ما لم تتوسط بينهم وبين الميت انثى
ب- أصول الميت الذكور وإن عَلَوْا، ما لم تتوسط بينهم وبين الميت انثى
جـ- فروع أبي الميت وهم: الأخوة وأبناؤهم ممن لم تتوسط بينهم وبين الميت انثى.
د- فروع جد الميت وهم الأعمام وأبناؤهم ممن لم تتوسط بينهم وبين الميت انثى.

ووراء هؤلاء العصبة بالنفس، عصبة آخرون «بالغير» كالبنت مع الأبن فأنها تصير عصبة بأخيها تأخذ نصف نصيبه بعد أن كانت صاحبة فرض..

وهناك عصبة «مع الغير» كالأخت مع البنت فإنها تأخذ ما بقي من البنت إن لم يكن هناك عصبة بالنفس.

٨- ذوو الارحام:

هم أقارب الميت من غير ذوي الفروض أو العصبات، وهم أقاربه الاناث كالعمة والخالة، والذكور الذين تتوسط بينهم وبين الميت أنثى كأبن البنت، وأب الأم، وهم على درجات.

جزء الميت- وأصله، ومن ينتمي إلى أبويه، ومن ينتمي إلى جدَّيه أو جدَّتيه-

وأكثر الصحابة- رضوان الله عليهم- كعمر وعلي وأبن مسعود وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء وأبن عباس وغيرهم يرون توريث ذوي الارحام، وتابعهم في ذلك علقمة وابراهيم وشريح والحسن وأبن سيرين وغيرهم، وإلى ذلك

ذهب أبو حنيفة وأصحابه.. واحتجوا بقوله تعالى: «وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» أي بعضهم أولى بميراث بعض فيما كتب الله..

أما بعد:

فَلَعَلِي قد كشفت لك الجانب الإجتماعي في نظام الارث في الإسلام، وقدمت بياناً مُقْنِعاً للذين ينقمون من الشريعة الخاتمة، اعطاء الرجل ضعف نصيب أخته، حتى نقرر سوياً ان العدول عما شرع الله ظلم لا تستقر عليه قواعد الحياة ولا تتماسك به عرى الأسرة «تلك حدود الله ومن يطع الله ورسولهُ يدخِله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين»[1].

(١) النساء ١٣- ١٤.

الخدمُ في الأُسرَة

١ - للخدم علينا حقوق كثيرة!

لخدم الأسرة في الإسلام حقوق إن لم يذكرها القرآن بأسم حقوق الخدم، فإنها تطالعنا بأسماء كثيرة كلما نظرنا في القرآن والسنة.. والأخوة الإنسانية، وحقوق العمال والاجراء وحدهما يؤكدان حق هؤلاء الخدم في الرعاية والرفق، ولا ريب ان خدمنا عَوَان عندنا، قد ألجأتهم الظروف للحياة معنا، وهم يؤدون لنا من الأعمال ما لو أهمل لساء المصير، ويعرفون من أسرارنا وخفيات أمورنا ما لا يعرف خاصة أهلنا منه شيئاً، وإكرامهم يؤلف على الأسرة قلوبهم، ويضاعف لأفرادها ودهم، ويستثير اخلاصهم فيما يوكل إليهم ويُراد منهم، وإذا كان الإحسان جميلاً محبباً فهو أعظم ما يكون حين يتسع لهؤلاء الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة إلا بالله، ولا يلوون على أهل ولا مال، وإنما يربطون مصيرهم بمصيرنا، ويرون الحياة من خلال نظرة رحيمة أو كلمة كريمة أو صنيع حسن نؤديه إليهم!!

٢ - الإسلام يدفع ظلماً ويرفع من الخدم رؤساً!

ولقد واجه الإسلام فيما واجه من فساد الجاهلية، سوءَ معاملة الخدم والمماليك، وغض السادة من أقدارهم وإهدار انسانيتهم، فقرر المعصوم صلوات الله عليه ان كفارة أذى الغلام ان يعتقه سيده[١].

وعن أبي مسعود البدري (ض) قال: «كنت أضرب غلاماً لي بالسوط

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢١١.

فسمعت صوتاً من خلفي إعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا مني، إذا هو رسول الله، فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود ان الله عز وجل أقدر عليك من قدرتك على هذا الغلام، فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله، فقال (ﷺ): أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار »[١]

ولقد كان الرسول أبر الناس بالخدم وأحناهم عليهم وحسبنا في ذلك قول أنس: « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قال لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء تركته لم تركته؟ »!![٢]

وأرسلني رسول الله في شأن فانتظرني طويلاً ثم خرج فوجدني في الطريق فقال: « يا أُنَيْس اذهب حيث أمرتك » ورؤى الغضب في وجهه لأنه دعا إليه وصيفته أو وصيفة أم سلمة فتراخت فلما جاءت قال لها وكان بيده سواك « لولا خوف القصاص لأوجعتك... بهذا السواك »!!![٣]

وغضب صلوات الله عليه لأن عبد الله بن رواحة ضرب جارية له كانت تتعاهد غنمة فَعَدَا الذئب عليها وأخذ واحدة منها ثم ندم، فأخبر الرسول بما فعل.. فغضب غضباً شديداً حتى احمر وجهه وهاب أصحابه ان يكلموه.. وقال لابن رواحة: « ضربت مؤمنة؟! وما عسىَ الصبية أن تفعل بالذئب؟ وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب؟ وما زال يكرر ذلك »[٤].

ومساعدة الخادم في عمله في موازين حسناتنا يوم القيامة.[٥]

وفي لحظات الموت حيث لا تُذكَرُ إلا جلائل الأعمال، وكريم الوصايا، كان رسول الله صلوات الله عليه يقول: « الصلاةَ وما ملكت ايمانكم وما زال يقولها حتى ما يُفيض لسانه »[٦].

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١١.
(٢) متفق عليه بلفظ قريب من هذا..
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢١٧.
(٤) جامع مسانيد أبي حنيفة جـ ٢ ص ١٦٢.
(٥) المنذري جـ ٣ ص ٢١٤.
(٦) بالمنذري ص ٢١٥.

٣- بين النظم التي تحمي المجتمع!

لقد وضع الإسلام النظم التي تحمي المجتمع منذ استقر أمر الأمة، وقرر خلالها حقوق العمال والخدم، ورطب القلوب بالترغيب والترهيبَ قبل ذلكَ على هؤلاء الأخوة الذين ينهضون بجانب هام من وجوه الحياة، وبنوء كاهل بعضهم بتبعاتها، فهو لا يستجدي لأنه عزيز أبيُّ ولا يتسول، ولكنه يكافح فاقته فيحترف ويَعمل، وله أسوة طيبة بعلي كرم الله وجهه- يوم أجر نفسه من يهودية يستخرج لها الماء كل دلو بتمرة، وظل يعمل حتى مَجِلَتْ كفاه- تَشَقَّقَتَا- فاستوفى من المرأة أجره، وراح يخبر الرسول خبرَه، فأجلّه وأكبره وأكل تمرة من تمره صلوات الله عليه.. وما أكبر معنى أكل هذه التمرة!

إن الخدم والعمال اخواننا، وحقوق الأخوان- في الإسلام- عند الأخوان كثيرة، نجتزىء منها بقول الرسول (ﷺ): «حق المسلم على المسلم ست. قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا عطس فَشَمِّتْهُ، وإذا مرض فَعُدْهُ، وإذا مات فاتْبَعْهُ»[1] وقوله: «حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه»..!

ومن هذه الحقوق ان توقره إذا أحضر، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وان تسارع إلى بره والإحسان إليه حين يحتاج منك إلى الرعاية، فمن أوائل ما أوجب الإسلام، رحمة الإنسان لأخيه الإنسان، بل رحمة الإنسان للحيوان وإذا كان الله تعالى قد شكر رجلاً سقى كلباً فغفر له[2]، وادخل امرأة النار، بأنها حبست هرة فما أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشَاش الأرض[3]، فلقد بلغت الرحمة بالمسلمين حداً يدعو إلى الدهشة بعد أن سمعوا حديث الرسول: «في كل ذات كبد رطبة أجر». وهو متفق عليه والناظر في وثائق وزارات الأوقاف في مصر والشام تعلن كم كان أوائلنا يرعون الدواب.

ولست أدعو هنا إلى تعهد الكلاب كلما لقبناها بالسَّقْي، وبر الهررة كذلك،

(١) اللفظ لمسلم- رياض الصالحين للنووي ١١٧.
(٢) المنذري جـ ٣ ص ٢١٠.
(٣) المصدر السابق ٢٠٩.

ولكنني أريد أن أتساءل عن مدى رعايتنا للضعفاء من إخواننا الذين يُؤَدُّونَ لنا من الأعمال ما يعود على أموالنا بالنماء، وعلى تجاراتنا وصناعاتنا بالازدهار والسعة؟ يقول الرسول: «اعطوا الأجير اجره قبل أن يجف عرقه».. ويتوعد الذين يستوفون أعمالهم ثم لا يُوَفُّون عمالهم أجورهم، ويضعهم مع الغادرين، ومهدري انسانية الأحرار في قوله: «ثلاثة أنا خصمهم ومن كنت خصمة خصمته يوم القيامة. رجلٌ أعطى بي ثم غَدَر، ورجل باع حراً وأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[1].

ورأى الخليفة عمر، الخدم في مكة يقفون على أقدامهم، بينما يهيل سادتهم الطعام إلى بطونهم، مأدوماً بنظرات الخدم الجياع، فقال للسادة: «ما لقوم يستأثرون على خدّامهم...» ثم دعا الخدم فأكلوا معهم في اناء واحدة!!!

يقول الأستاذ سيد قطب: «ولعل الحادثة التالية عن عمر، ذات معنى حاسم في التطبيق العملي للتكافُل، ولحق الملكية الفردية، وحدوده في محيط الجماعة».

«روى ان غلماناً لحاطب بن أبي بلتَعَة سرقوا ناقة لرجل من مزينة، فأُتِيَ بهم عمر، فأقروا، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم، فلما وَلَّى رَدَّه، ثم قال: «أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرّم الله عليه حل له، لقطعت أيديهم» ثم وجه القول إلى عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة فقال: «وأيْمُ الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك! ثم قال: يا مزني، بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة، قال عمر لابن حاطب اذهب فأعطه ثمانمائة، وأعفي الغلمان السارقين من الحد، لأن صاحبهم اضطرهم إلى السرقة لجوعهم، وحاجتهم إلى سد رمقهم».

وأبو ذر ينحو منحَى عمر في رعاية انسانية الخدَم، يقول المعرور بن سُوَيْد: «رأيت أبا ذر في الربذة، وعليه بُردٌ كثيف وعلى غلامه مثله قال فقال القوم: يا أبا ذر: لو كنت أخذت الذي على غلامك فجعلته مع هذا فكانت حلة؟! وكسوت غلامك ثوباً غيره؟ فقال أبو ذر «اني كنت سببت رجلاً، وكانت أمة

(١) ابن ماجة والبخاري.

أعجميه، فعيرته، بأمه فشكاني إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر انك امرؤ فيك جاهلية فقال: هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه من العمل ما يغلبه، فليعنه عليه»..

ويضع الرسول دستور معاملة الخدم بقوله: «لا يقل أحدكم عبدي أمتي، وليقل فتاي وفتاتي» ويقول: «إذا أتى أحدَكم خادمُهُ بطعام، فإن لم يجلسه معه، فليطعمه أكلةً أو أكلتين، فإنه وَلِيُّ علاجه»[1].

٤ - **خذوها من أدب أهل البيت!**

قد تسوءُ أخلاق الخدم، وتدعو إلى المؤاخذة حين يصير ذلك لهم دَيْدَناً وعادة، والناس يتفاوتون في كظم الغيظ والدفع بالتي هي أحسن، ولكنهم لا يبلغون مبلغ جعفر الصادق (ض) في ذلك.

فقد حكي ان غلاماً له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الابريق من يد الغلام في الإناء، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفرٌ إليه نظرَ ساخط مغضب. فقال: يا مولاي «والكاظمين الغيظ» قال: «قد كظمت غيظي» - حبسته عن الحاق الاذى بك - قال: «والعافين عن الناس» قال: «قد عفوت عنك» قال: «والله يحب المحسنين» قال: «اذهب فأنت حر لوجه الله»[2].

وما ذلك بكثير على جعفر، فقد سبقه علي زين العابدين بمنهجه الرفيع في الصحيفة السجادية التي يقول فيها من فصل «دعاؤه في مكارم الأخلاق»: «وأجر للناس على يدي الخير، ولا تمحقه بالمن، وهب لي معالي الأخلاق واعصمني من الفخر». «اللهم وحلني بحلية الصالحين، وألْبسني زينة المتقين، في بسط العدل، وكظم الغيظ، واطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة..؟[3]

★ ★ ★

(١) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٢٥٠ طبع الخيرية.

(٢) في كتب الأدب، وفي كتاب الشخصية للاستاذ الأهواني ص ٥٥

(٣) الصحيفة - ص ٩٩ وما بعدها.

٥ - شيئاً من الاختيار والحذَر!

ويجب ان نختار خدمنا ، فهم مرآة الأسر ، وإن الصغار ليتأثرون بهم إلى حد كبير ، فلنمعن النظر في اختيارهم ، ولنحاول ان ندربهم على المكارم ، وان يروا منا الحرص الدائم على معالي الأمور ، حتى يتنسموا النسمات الصالحة في بيوتنا ، ان كانوا قد حرموها في بيوتهم ، فما أكثر المفاسد التي تُروَى عمن حرموا التوجيه الصالح ، مفاسد تغض من أقدار الأسر وتوجب مزيد اليقظة والحذر « والله من وراء القصد ».

جيرَان الأُسرَة

١ - عوامل هناءة أو شقوة..

جيران الأسرة من عوامل هناءتها أو شقوتها، وعلى قدر ما يكون بينها وبينهم من ألف أو خلف تحلو الحياة أو تمر وتسوء أو تسر، وهم أقرب إليها وأسرع إلى نجدتها - حين يفاجىء مكروه في ليل أو نهار - من بعض الأهل الذين نأت بهم المنازل، وشطت الديار، وقديماً تعوذوا بالله من جار السوء فقالوا «أعوذ بالله من جار السوء عينه تراني وقلبه يرعاني إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها».

٢ - في الجاهلية..

وما كان حاتم الطائي مَثَلاً شروداً في الجود فحسب ولكنه كان كما قال الرسول «يحب مكارم الأخلاق» فكان صورة عربية أصيلة للحفاظ على حرمة الجار - فهو يقول:

إذا ما بت أختل عرس جاري ... ليخفيني الظلام، فلا خِفيتُ
أأفضح جارتي، وأخون جاري ... فلا - والله - أفعل، ما حيَيت!

ويقول:

ولا تشتكيني جارتي، غير انها ... إذا غاب عنها بعلها، لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلها ... إليها، ولم تُقْصَر عليها ستورها!

ويقول حاتم «والله ما خاتلت جارة لريبة قط وإلا ا تمنت على أمانة إلا أديتها، ولا أوتي أحد من قبلي بسوء».

ومن شعر الجاهلية الذي ينسب لعنترة:

وأغضّ طرفي ان بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها!!

ولا أسترسل في هذا السياق، ولكنني أتساءل: أين المتلصصون على الجيران في عصر المدينة الصناعية، من هذه الأخلاق؟!.

٣- أدب الإسلام في ذلك.

هذه اللبنات الصالحة من آداب الجاهلية، هي التي اعتبرها الرسول الأعظم وهو يقول «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١].

ولقد وضع الله الجيران في مكانهم، من آية الحقوق العشرة فقال «والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل...»[٢].

فأوجب سبحانه للجيران من قرابتنا أو من غيرهم- وإن تعددت بيننا وبينهم المذاهب واختلفت الأديان- حق البر بهم والإحسان إليهم، فلقد عاد الرسول وَلَدَ جارِهِ اليهودي من مرضه[٣] وجعل- صلوات الله عليه- الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق وهو جارك ذو القرابة المسلم «له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام» وجار له حقان وهو جارك المسلم «له حق الجوار وحق الإسلام» وجار له حق واحد وهو جارك غير المسلم «له حق الجوار»[٤].

واستنَّ اصحابه سنة البر بالجيران مسلمهم وغير مسلمهم، فهذا عبد الله بن عمر يأمر غلامه بذبح شاة وتفريقها في جيرانه ويقول «وابدأ بجارنا اليهودي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه»[٥] منذ رأوا رسول الله يقول «انك ان آذيت كلب جارك فقد آذيته».

ان أدنى حقوق الجيران في الإسلام ان نكف عنهم كل أذى، وان لا نتسقط

(١) الموطأ في رواية مالك.
(٢) النساء: ٣٦.
(٣) تفسير الخطيب المكي جـ ٥ ص ١٥.
(٤) الطبراني في هامش الترغيب جـ ٣ ص ٣٦١.
(٥) الترغيب والترهيب ص ٣٦٢.

أخبارهم، وتتبع عوراتهم، وأجمع الأقوال في ذلك قول المعصوم صلوات الله عليه «من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله، فليس ذلك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه- غشمه وظلمه- أتدري ما حق الجار؟! إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك اقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بقتار ريح قدرك إلا ان تغرف له منها، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك، فيغيظ بها ولده»[1]

كأنما كان ينظر محمد صلوات الله عليه إلى الحياة من ستر رقيق، فالمجتمع تضطرب أسره في مجالٍ تتناكر فيه ولا تتعارف وتستطيل في البنيان وتقول كل أسرة: أنا، وبعدي الطوفان! وتختلق أسباب التعادي ان لم تجيء عفواً، إلا من عصم الله!! وقيل في أقل القليل أولئك الذين يسيئون استعمال أجهزة الراديو والتلفزيون[2]، هل حسبوا حساب المريض تزعج الضوضاء قلبه؟ والدارس الذي يمنع الضجيج دراسته» والعامل الذي أوى إلى فراشه يستجم من عناء يومٍ مضى ويستعد لجهاد يوم يقبل فَيَنْفِي النوم عن عينيه صوت هذه الأجهزة الذي يغشي منازل الناس على الرغم منهم؟!

لقد كان الرسول يلقيَ أذى بعض بني عبد مناف على عتبات داره، وفي أطرقه فيقول «يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟! وهو بذلك يعلمنا الرفق في العتاب حين يجاوز الناس حدودهم ويعصون الله ورسوله بأذى جيرانهم!!

قال كعب «ان رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني نزلت محلة بني فلان، وان أشدهم لي أذى أقربهم لي جواراً، فبعث الرسول ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم يأتون المسجد فيقيمون على بابه، فيصيحون إلا أن أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه»[3].

---

(١) المصدر صفحة ٣٥٧.

(٢) وخبراً يخبر من أمثال الفيديو العارض لأفلام الجنس وغيرها.

(٣) المصدر نفسه صفحة ٣٥٣.

انها لمهمة جليلة، ينتدب لها الرسول من صحابته هؤلاء النفر الكرام!!

ويقول مسكين الدارمي:

ناري ونار الجار واحدة	وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرَّ جاراً أجاوره	إن لا يكون لبابه ستر
اغضى إذا ما جارتي برزت	حتى يواري جارتي الخدر

وينشد أبو علي القالي:

ولست بسائل جارات بيتي	أغياب رجالك، أم شهود؟!

٤- في العهد الأموي..

بقي حق الجوار مرعياً حتى قال قائلهم:

ثنتان لا أدعو لوصلها	عُرْسُ الخليل، وجاره الجنْب
أما الخليل فلست غادره	والجار أوصاني به ربي

٥- علي بن الحسين والميراث.

وإليك نفحة من علي زين العابدين في دعائه لجيرانه من الصحيفة السجادية.. قال:

اللهم صلي على محمد وآله وتولني في جيراني وموالىَّ، العارفين بحقنا، والمنابذين لأعدائنا، بأفضل ولايتك ووفقهم لإقامة سنتك، والأخذ بمحاسن أدبك، في أرفاق ضعيفهم، وسدِّ خلتَّهم، وعيادة مريضهم وهداية مسترشدهم، ومناصحة مستشيرهم، وتعهد قادمهم، وكتمان أسرارهم، وستر عوراتهم، ونصرة مظلومهم، وحسن مواساتهم بالماعون، والعودة عليهم بالجِدَةِ والافضال، وإعطاء ما يجب لهم قبل السؤال، واجعلني اللهم اجزي بالإحسان مسيئهم، وأعرض بالتجاوز عن ظالمهم، واستعمل حسن الظن في كافتهم، وأتولى بالبر عامتهم، واغضَّ بصري عنهم عفة، وألينُ جانبي لهم تواضعاً، وأرقُّ على أهل البلاء منهم رحمة، وأُسرُّ بالغيب لهم مودة واحب بقاء النعمة عندهم نصحاً، وأوجب لهم ما أوجب لحامَّتي- لخلصائي- وارعى ما أرعى لخاصَّتي، اللهم صلى علي محمد وآله وارزقني مثل ذلك منهم واجعل لي أوفق الحظوظ فيا عندهم، وزدهم بصيرة في

حقي، ومعرفة بفضلي حتى يسعدوا بي وأسعد بهم آمين. رب العالمين »[1].

* * *

٥- أثر هذه التربية..

في الأدب العربي أمثلة لا نستوعبها- لكثرتها- في أثر هذه التربية ومن ذلك أقوالهم:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا
ومن لم يصن حق الجوار فإنه يلاقي من الأهوال ما ليس ينتهي

* * *

وكنت مجاوراً لبني سعيد فأفقدنيهمُ ريبُ الزمان
فلما أن فقدت بني سعيد فقدت الود، إلا باللسان

ولقد مات أحدهم فبكته احدى جاراته أحر بكاء، فلما سئلت في ذلك قالت: «لقد جاورناه وما منا من أحد إلا وتحل عليه الصدقة، ومات عنا وما منا من أحد إلا وتجب عليه الزكاة »!!

وكانوا يضربون المثل بجار أبي دؤاد.. وكان إذا مات لجاره بعير أو شاة أخْلَفَه، وإذا مات له قريب وداه- دفع ديته-!!

وكان لأبي دلفْ جار ببغداد، ادركته حاجة، وركبه دين مبهظ، حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه فيها فسمَّى ألف دينار، فقالوا له: إن دارك تساوي خمسمائة دينار، فقال:

« أبيع داري بخمسمائة، وجوار أبي دلف بخمسمائة ».

فبلغ أبا دلف الخبرُ، فأمر بقضاء دينه، ووصله، وقال: لا تنتقل أبداً من جوارنا!!

وقالوا مثل ذلك في جار سعيد بن المسيب!!

فهل ندرك من خلال ذلك ما يمكن ان يؤديه بر الجيران من رفاهية الأسرة

(١) الصحيفة السجادية: ١٣٨- ١٤٠.

وسعادتها، وما يمكن ان يُعْقبَهُ التطاول عليهم، والظلم لهم من فتن وأحن لا تطيب معها حياة؟!

* * *

وأخيراً.. فإني أرجو أن أكون قد قاربت- في حدود المنهج الذي رسمته لهذا الكتاب- ما توخيت من فائدة، يزداد بها الذين آمنوا إيماناً، وتأخذ بأيدي التائهين في دروب لذائذهم، إلى سواء السبيل..

وقبل أن أتقدم برجائي «من الطبعة الأولى» أود أن تكون هذه الزيادات «في الطبعة الثانية» قد عالجت في المجتمع أدوار، وقدمت من الاسلام نوراً وعافية.

وأرجو- مرة أخرى- ان يغفر لي القارىء الكريم بعض الأخطاء المطبعية التي وقعت سهواً رغم الجهد المبذول في التصحيح والمراجعة، وهي وصوابها بين يديك أو الكتاب فاصلحها، أصلح الله بنا وبك. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

مصادر الكتاب

١ - القرآن الكريم.
٢ - كتب السنة الصحيحة.
٣ - فتح القدير - المبسوط من كتب الفقه.
الاحياء للغزالي.
الإسلام عقيدة وشريعة، ومن توجيهات الإسلام للشيخ شلتوت.
المبادىء الشرعية للدكتور المحمصاني.
المقارنات التشريعية للاستاذ حسين عبد الله علي حسين.
قطوف من كتب الإمام محمد أبو زهرة.
٤ - تفاسير - الزمخشري، والنسفي، والمنار، والخطيب المكي.
٥ - أمال القالي، ألف باء للبلوى، الصحيفة السجادية للإمام علي زين العابدين
العدالة الاجتماعية في الإسلام للأستاذ سيد قطب.
الاسلام اليوم وغداً لطائفة من الأساتذة.
القرآن والمرأة للأستاذ العقاد.
فتاة الشرق في مرآة الغرب.
ما وراء الستار لجميل بك بيهم.
العلم يدعو للإيمان اكريس موريسون ترجمة الفلكي.
محمد رسول الله ايتين دينيه ترجمة د. عبد الحليم محمود
كتاب قبس من الإسلام وملامح هذا الدين للمؤلف
بعض صحف القاهرة وبيروت والكويت والسعودية.



فهرس